

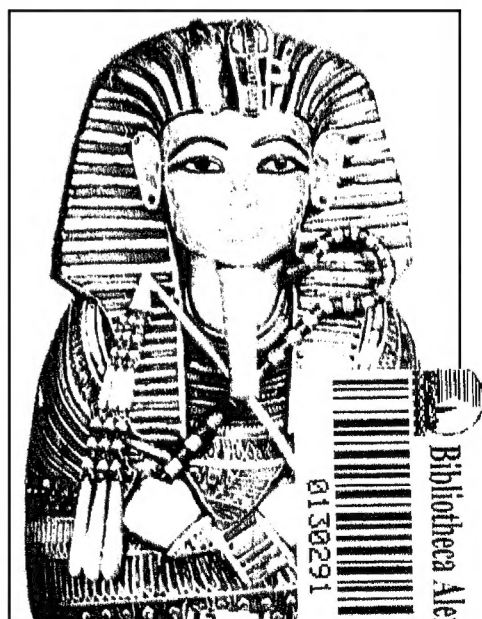
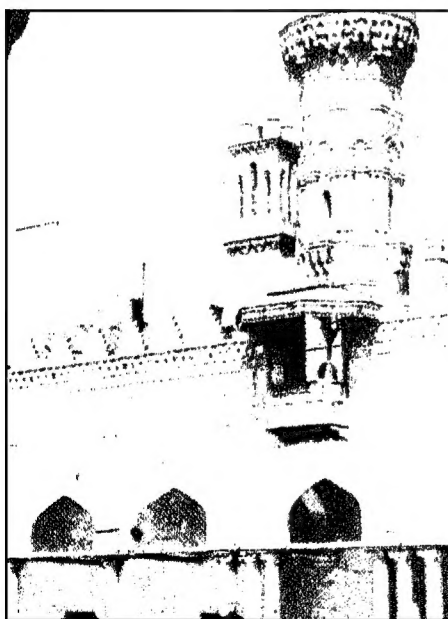
صفحات من تاريخ مصر

٢

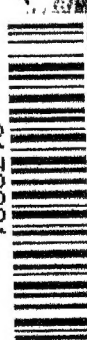
تاريخ مصر

إلى الفتح العثماني

عمر الإسكندري و أ. ج. سفدج



0130291



Bibliotheca Alexandrina

الناشر: مكتبة مدبولي - القاهرة

تاريخ مصر

إلى الفتح العثماني

حقوق الطبع محفوظة لمكتبة مدبولي

الطبعة الثانية

١٤١٦هـ - ١٩٩٦م

الناشر

مكتبة مدبولي

ميدان طلعت حرب بالقاهرة - ج م ع

تليفون ٥٧٥٦٤٢١

صَفَحَاتٌ مِنْ تَارِيخِ مِصْرَ
(٢)

تَارِيخُ مِصْرَ

إِلَى الْفَتْحِ الْعِثْمَانِي

مَعَ نَبْذٍ فِي أَهْبَارِ الْأُمَمِ الَّتِي ارْتَبَطَتْ بِمِصْرَ إِلَى ذَلِكَ

تَأَلَّفَ
عُمَرُ الْأَسْكَنْدَرِيُّ وَ أ.ج. سَفِيحُ

مَكْتَبَةُ مَدْبُولِي
الْقَاهِرَة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله جاعل الأولين سلفاً ومثلاً للآخرين ، والصلاة والسلام على محمد وآله هداة المصلحين . وبعد فهذا كتاب وجيز يتضمن تاريخ مصر من أقدم عصورها المعروفة الى فتح العثمانيين لها سنة ٩٢٣ هـ (١٥١٧ م) . واذ كانت البلاد المصرية لا تكاد تضارعها بلاد في طول تاريخها المُقَمَّم بالحوادث ، لم يعد في امكان امرئ ان يدون في مثل هذا الكتاب الصغير تاريخاً لمصر في مدة لا تقل عن خمسة آلاف سنة الا بُجْماً ، فكيف به اذا أودع خلاله بُسْداً في أخبار الأمم المرتبطة الشؤون بمصر — من فينيقيين وفُرس وإغريق ومقدونيين ورومان وعرب — لتوضيح التاريخ المصري الذي هو المقصد المراد . وإنَّ وضع الكتاب على هذا النمط يطابق منهاج دراسة التاريخ لتلاميذ السنة الأولى من المدارس الثانوية المصرية ، وإن كان بمزاياه العديدة يبعث على الأمل بأن يصادف قبول غيرهم من القراء

اما المصادر التي استقى منها الكتاب فهي صحاح كتب التاريخ المعتمدة ، عربية وفرنجية مثل : تاريخ قدماء المصريين للأستاذ برستيد ، وتاريخ الفراعنة لبروكس ، وبعض مؤلفات بَترى ومَسْنَدُرو ، ثم تاريخ دولة البطالسة تأليف مَهْفِي ، ومثله تأليف بَدَج ، ثم تاريخ مصر في عهد الرومان تأليف مِلْن ، ثم تاريخ الطَّبري ، وتاريخ ابن الأثير ، وتاريخ أبي الفداء ، وحسن المحاضرة للشَّيْطُوطي ، وفتح مصر والاسكندرية تأليف بَتْلَر ، وتاريخ مصر في القرون الوسطى تأليف ستانلي لينبول ، وخطَّط المقرئزي ، وتاريخ ابن إياس ، وغيرها

هذا وإنَّ الشكر الخالص لمن كان لهم آثار مساعدة في هذا الكتاب ، من حضرات اصحاب الرسوم المنشورة فيه ، وحضرة صاحب العزة العالم المفضل اسماعيل رأفت بك

وهذا الكتاب يُعتبر كجزء اول لسان متمم له يحتوي تاريخ مصر من الفتح العثماني الى الوقت الحاضر ، وسينتهي قريباً ان شاء الله تعالى

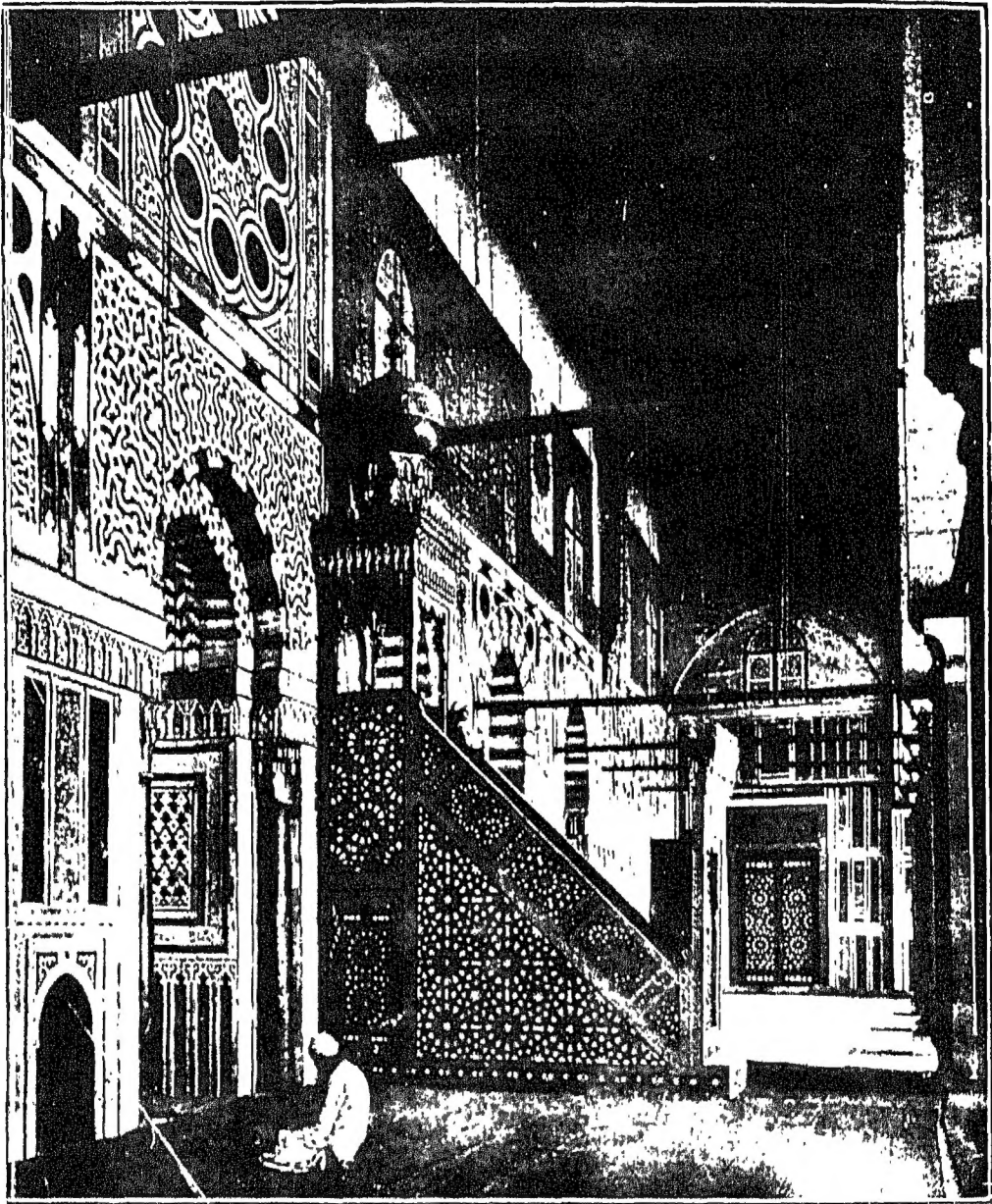
وحرر بالقاهرة في ١٤ شوال سنة ١٣٣٣ هـ — ٢٥ أغسطس سنة ١٩١٥ م

فهرست

كتاب تاريخ مصر الى الفتح العثماني

٦٩	الفصل التاسع -- الفرس وفتحهم لمصر	١	مقدمة
٧٣	الاسرة الثامنة والعشرون الى الاسرة الحادية والثلاثين	١	مصادر تاريخ قدماء المصريين
٧٤	الفصل العاشر -- كلمة في الحضارة المصرية القديمة	٤	تمهيد
٨٧	الفصل الحادى عشر -- كلمة في الفينيقيين ملخص أهم الحوادث التاريخية في عهد القراعنة	٥	الفصل الثانى -- مصر قبل الاسرات الملكية
		٩	الفصل الثالث -- تأسيس الاسرات الملكية واتحاد الشمال والجنوب
		١١	الفصل الرابع -- عصر بناء الاهرام
			الفصل الخامس -- الدولة الوسطى (العهد الاقطاعى)
٩١	مع الفرس	٢٤	عجل حالة مصر فى العهد الاقطاعى
٩٣	ولايات بلاد الاغريق	٢٦	الاسرة الثانية عشرة
	علاقة فارس بالولايات الاغريقية	٢٨	اضمحلال الدولة الوسطى
٩٥	(الحروب الفارسية)	٣٤	الفصل السادس -- الدولة الحديثة
٩٩	عصر بركليس	٣٧	الاسرة الثامنة عشرة
١٠٢	الاسكندر الاكبر وفتح مصر	٣٨	حروب تحتشمس الثالث
١٠٧	الفصل الثانى -- البطالسة	٤٠	الاسرة التاسعة عشرة
١١٢	اضمحلال البطالسة	٤٩	رؤسيس الثانى وحروبه
١١٣	حالة مصر فى زمن البطالسة	٥٠	الفصل السابع -- ابتداء اضمحلال مصر
١١٧	الفصل الثالث -- كلمة فى الرومان	٥٥	اشترك الكهنة وامراء تنيس فى الملك
١١٨	أطوار تاريخ الرومان -- طور الملكية	٥٩	حكم اللويين فى مصر
	نوسلطان رومية وامتداده على غيرها	٦٠	اغارة الاتويين والاشوريين
١٢٠	من البلدان	٦١	الفصل الثامن -- النهضة المصرية
	النزاع بين رومية وقرطاجنة . الحروب	٦٤	استيطان الاغريق الاوائل فى مصر
١٢٢	البونية	٦٥	

١٢٧	فتح الرومان	١٨٧	الراشدين وبنى أمية وصدر بنى العباس
١٢٨	اضمحلال الجمهورية وتأسيس الامبراطورية	١٨٧	شكل الحكومة
١٣١	الفصل الرابع — علاقة الرومان بالبطالسة	١٩٠	الخراج والنفقات
١٣٣	كليو بطرة	٩١	القضاء والشرطة والمظالم
١٣٧	الفصل الخامس — كلمة في الامبراطورية الرومانية	١٩٢	المقاتلة
١٣٩	نقل العاصمة الى القسطنطينية	١٩٤	أهل البلاد
١٤١	الفصل السادس — مصر في عهد الرومان	١٩٤	أشهر الولاة وأهم الحوادث
١٥١	استياء المصريين في عهد الدولة الرومانية الشرقية	٢٠٢	الفصل الثالث — الطولونيون والახشيديون
	ملخص أهم الحوادث التاريخية من عهد دخول الفرس في مصر الى أن فتحها العرب	٢٠٢	(أ) الدولة الطولونية
		٢٠٦	(ب) الدولة الاخشيدية
		٢٠٩	الفصل الرابع — الدولة الفاطمية
			الفصل الخامس — تأسيس الامارات
		٢٢٠	الصليبية بالشام وعلاقتها بمصر
		٢٢٤	حالة الامارات اللاتينية
		٢٢٦	مصر والصليبيون
			دخول شريكه مصر وانقراض الدولة الفاطمية
		٢٣٠	مزاي الفاطميين وأسباب سقوطهم
			الفصل السادس — كلمة في الحضارة العربية بالشرق
		٢٣٤	الفصل السابع — الدولة الايوبية
		٢٤٢	(أ) صلاح الدين
		٢٤٩	(ب) خلفاؤه من الدولة الايوبية
		٢٥٦	الفصل الثامن — دولتنا المماليك
		٢٥٦	دولة المماليك البحرية
		٢٦٣	فشل الحروب الصليبية ونتائجها
			دولة المماليك الشراكسة أو المماليك البرجية
		٢٦٥	ملخص أهم حوادث الدولة الاسلامية
١٢٧	فتح الرومان	١٨٧	الراشدين وبنى أمية وصدر بنى العباس
١٢٨	اضمحلال الجمهورية وتأسيس الامبراطورية	١٨٧	شكل الحكومة
١٣١	الفصل الرابع — علاقة الرومان بالبطالسة	١٩٠	الخراج والنفقات
١٣٣	كليو بطرة	٩١	القضاء والشرطة والمظالم
١٣٧	الفصل الخامس — كلمة في الامبراطورية الرومانية	١٩٢	المقاتلة
١٣٩	نقل العاصمة الى القسطنطينية	١٩٤	أهل البلاد
١٤١	الفصل السادس — مصر في عهد الرومان	١٩٤	أشهر الولاة وأهم الحوادث
١٥١	استياء المصريين في عهد الدولة الرومانية الشرقية	٢٠٢	الفصل الثالث — الطولونيون والახشيديون
	ملخص أهم الحوادث التاريخية من عهد دخول الفرس في مصر الى أن فتحها العرب	٢٠٢	(أ) الدولة الطولونية
		٢٠٦	(ب) الدولة الاخشيدية
		٢٠٩	الفصل الرابع — الدولة الفاطمية
			الفصل الخامس — تأسيس الامارات
		٢٢٠	الصليبية بالشام وعلاقتها بمصر
		٢٢٤	حالة الامارات اللاتينية
		٢٢٦	مصر والصليبيون
			دخول شريكه مصر وانقراض الدولة الفاطمية
		٢٣٠	مزاي الفاطميين وأسباب سقوطهم
			الفصل السادس — كلمة في الحضارة العربية بالشرق
		٢٣٤	الفصل السابع — الدولة الايوبية
		٢٤٢	(أ) صلاح الدين
		٢٤٩	(ب) خلفاؤه من الدولة الايوبية
		٢٥٦	الفصل الثامن — دولتنا المماليك
		٢٥٦	دولة المماليك البحرية
		٢٦٣	فشل الحروب الصليبية ونتائجها
			دولة المماليك الشراكسة أو المماليك البرجية
		٢٦٥	ملخص أهم حوادث الدولة الاسلامية



داخل جامع المويد (رسم ل. اميناز).

الباب الأول

قدماء المصريين

الفصل الأول

مقدمة

المصريون الأولون من أقدم أُمم الأرض . وكانت لهم حضارة عظيمة قبل الميلاد المسيحي بألاف من السنين ويحسن بنا قبل الكلام عليهم أن نبيّن كيف وصلنا الى معرفة تاريخهم مع تطاول العصور بعد انقضاء أيامهم ، وتعاقب الدهور على انقراض دُولهم

* مصادر تاريخ قدماء المصريين *

تاريخ قدماء المصريين كغيرهم من الأُمم القديمة مستمدّ من مصدرين أصليين :

الأول (وهو أوثقها) آثارهم القديمة وما عليها من الكتابة والنقوش (١) الآثار
والثاني ما وصل إلينا مما كتبه الأقدمون في تاريخهم
فمن الأول يتيسر لنا أن نعرف كثيراً من حطهم من الحضارة ومبطلهم من العلم

فمثلاً مبانيهم الهائلة وما عليها من النقوش البديعة ، تدلنا على مقدار نبوغهم في فنّي البناء والتصوير . وجثث موتاهم المحنطة الخالدة منذ أزمان سحيقة والأصباغ الثابتة الجميلة التي استعملوها في تصاويرهم وتهاويهم ، تدلنا على براعتهم في علم الكيمياء العملي . على أنهم لم يقصّروا في تدوين بعض حوادثهم العظيمة ووقائعهم الجسيمة وقصصهم العجيبة وأدعيتهم الغريبة مع بيان عصورها وأسماء الملوك القابضين على أزمّة الملك في إبانها . فتراهم كتبوا هذه الحقائق على مبانيهم وآثارهم ، وتراهم أعادوها بعينها على قطع الخزف وأوراق البردي التي وصلت إلينا من تلك الأيام الغابرة

كيفية استنباط
التاريخ من
الآثار القديمة

وأما ثانی المصدرين وهو ما كتبه قدماء المصريين أو معاصروهم في تاريخ وادي النيل ، فنقول بكل أسف : انه لم يصل إلينا منه الا التزُّ اليسير ، واكثره يفتقر إلى إثبات ، بحيث لا يحمل بنا الاعتماد على شيء منه ما لم يكن قد أيّدته الاستكشافات العديدة ، أو استنبط صحته كبار المؤرخين والأثريين

(٢) ما كتبه
القدماء

وأقدم الكتابات التي وصلت إلينا من تاريخ مصر هو ما كتبه المؤرخ الإغريقي « هيرودوت » في سنة ٤٥٠ ق . م . ذلك بأنه حضر الى مصر ، وكتب تاريخاً لها باللغة الإغريقية ، فكان وصفه للبلاد غاية في بابه جديراً بالثقة به ، غير أن ما كتبه في التاريخ ذاته على ما به من الإمتاع والتشويق ، غير موثوق به ، إذ كان أكثره مستمدّاً من الأقاصيص الشائعة على ألسنة العامة في ذلك العصر

« هيرودوت »
المؤرخ
الإغريقي

وبعد ذلك بنحو مائتي سنة قام كاهن وطني يدعى « مانيتون » بتأليف

كتاب
« مانيتون »

كتاب في تاريخ مصر كتبته باللغة الإغريقية . وكان ذلك في عصر
« بطليموس فيلادلف » حوالي سنة ٢٦٣ ق . م

ومما يؤسف له أيضا أن معظم هذا الكتاب قد ضاع ، ولم يصل
إلينا منه إلا ما عني بنقله وحفظه مؤرخو العصور الأولى بعد الميلاد .
ولا يعتمد المؤرخون على ما جاء بهذا الكتاب إلا في الوقائع التي أثبتوها
من المصادر الأخرى . فأهم ما انتفعوا به منه حصر ملوك مصر . وكان
يُشك في ذلك أيضا ، لولا أن الاستكشافات الحديثة أثبتت صحته . وعند
كلامه على ذلك بدأ بالملك « مينا » وقسم الملوك الذين من بعده إلى ٣١ أسرة
حكمت مدة ٣٥٥٥ سنة

ثم كتب في تاريخ مصر في أوائل ظهور المسيحية « ديودور »
و « إسترابون » الإغريقيان ، ولكن كلامهما أيضا جاء محتاجا إلى برهان
ولو لم يعرف الناس بعد قراءة النقوش والرسوم التي على تلك الآثار ،
لبقيت أبد الدهر قليلة الجدوى في إرشاد المؤرخين إلى الحقيقة . فقد
كانت الكتابة الهيروغليفية قد نسيت أيما نسيان . ولم يكن في العالم
أجمع من يستطيع فك طلاسمها وحل رموزها ، إلى أن جاء « نابليون
بوناپرت » إلى مصر في غارته المشهورة ، فعثر أحد ضباطه سنة ١٧٩٩
على الحجر المشهور المسمى بحجر رشيد

ويوجد هذا الحجر الآن بين أناس دار التحف والمعادن بمدينة
لندن . ويحتوي على عبارة مكتوبة بثلاث لغات : أولاها بالهيروغليفية ،
وتحتها ترجمتها بالديوتيقية (وهي اللغة المصرية القديمة الدارجة) ،
وتحتها ترجمتها باللغة الإغريقية . فتمكن الباحثون من مقارنة أسماء الأعلام الواقعة

اهمية فك
الحروف
الهيروغليفية

حجر رشيد

في العبارتين الميروغليفية والديموتيقية بنظائرها في الترجمة الإغريقية . ومن ذلك الحين ابتداء المؤرخون والأثريون في أوربا يشتغلون بحل رموز الكتابة المصرية القديمة . واستعانوا على ذلك بالآثار الأخرى وأول من خطا الخطوة الأولى في ذلك هو « تومس ينج » الانجليزى سنة (١٧٧٣ — ١٨٢٩) ، ولكن الذى يُنسب إليه التغلب النهائى على هذه الصعوبة هو (فرنسوا شمبليون) الفرنسى . ومن ذلك الوقت الى الآن ازدادت معرفة العالم بتاريخ مصر القديم ، ولا سيما في العشرين سنة الأخيرة

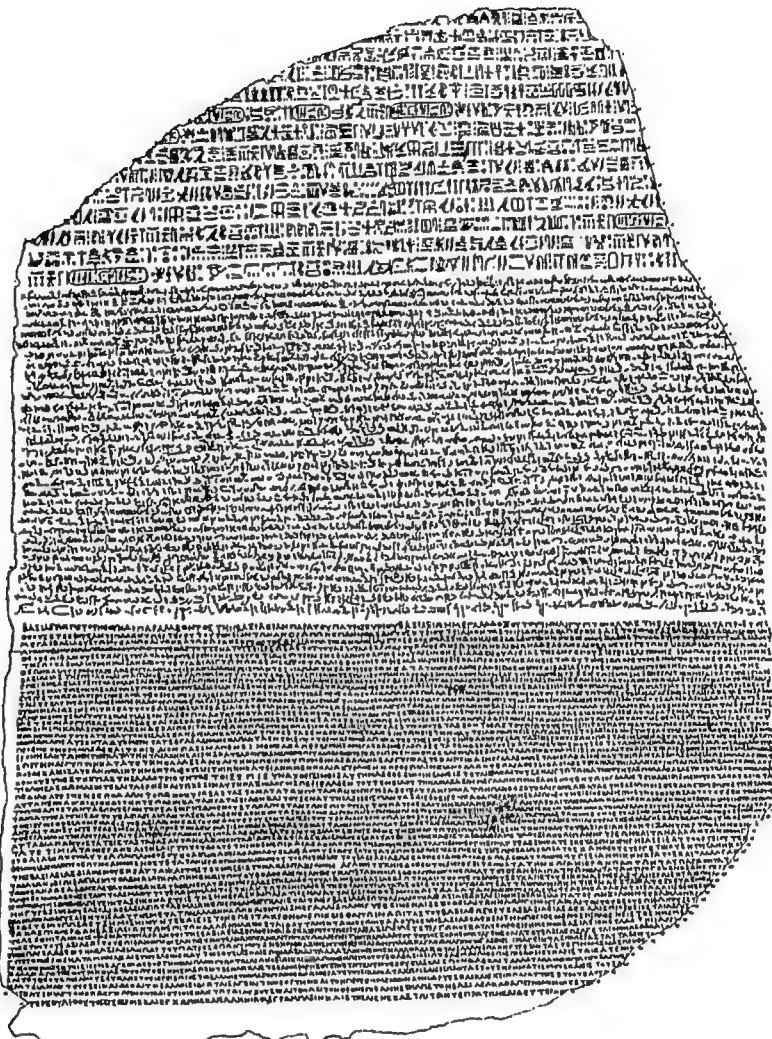
* تمهيد *

كانت مصر في أول عهدها تشمل عدة ممالك صغيرة تكونت منها بعد مملكتان عظيمتان : الأولى في الوجه القبلى ، والثانية في الوجه البحرى . ثم ظهر من الوجه القبلى رجل يدعى « مينا » ضم القطرين بعضهما الى بعض ، وجعلهما مملكة واحدة تحت سلطانه سنة ٣٤٠٠ ق . م . * وهذا هو ابتداء العصر التاريخى لمصر الذى تكاد أكثر أخباره تكون معروفة

ملخص تاريخ
مصر القديم

* تواريخ العصور الأولى من تاريخ مصر القديم ليست معروفة يقيناً بل يقدّر لها المؤرخون بمقتضى فروض لهم . وقد قدّر كل منهم اسنة تولى « مينا » مثلاً تاريخاً يختلف عما قدّره الآخر . والذى اتبعناه في هذا الكتاب هو رأى الأستاذ « برستد » معلم التاريخ المصرى القديم وتاريخ المشرق بجامعة شيكاغو . وهالك آراء بعض مشاهير المؤرخين الآخرين عن سنة تولى « مينا » :

بترى ٥٥٠٠ ق م — مريت ٥٠٠٤ ق م — بروكش ٤٤٥٥ ق م —
إرمن ٣٣٠٠ ق م . على أن المؤرخين يكادون يتفقون على تواريخ العصور التى
تبتدى من الدولة الوسطى



حجر رشيد

مستيقنة ، وافتتاح العصور التي تكلم عليها « مانيتون » في تاريخه
وقد نهج المؤرخون منهج « مانيتون » فقسموا الملوك المصريين الذين
أولهم « مينا » الى ٣١ أسرة ، وتلك الأسرات الى ثلاث طبقات ، تعرف
بالدولة القديمة ، والدولة الوسطى ، والدولة الحديثة

وبعد اضمحلال الدولة الحديثة غزا الفرس مصر ، ولبثوا فيها حتى
دخاها عليهم الاسكندر المقدوني . وبعد وفاة ذلك الفاتح العظيم الذي لم
يكن له وارث للملكة ، اقتسم قواده أملاكه ، فكانت مصر نصيب أحدهم
المدعو « بطليموس الأول » وهو مؤسس دولة البطالسة التي حكمت مصر
مدة انتهت باستيلاء الرومان عليها سنة ٣٠ ق . م

الفصل الثاني

مصر قبل الأسرات الملكية

تدل الآثار المصرية ، ولا سيما التي كُشفت حديثاً ، على أن الجنس
الإنساني قطن مصر منذ أزمان متوغة في القدم . وقد عثر الباحثون على
آلات من الطران* دقيقة الصنع وعلى آنية فخارية مزخرفة وغير مزخرفة
وعلى غير ذلك من الآثار القديمة جداً ، مما يدل على وجود حضارة بمصر
قبل الميلاد بنحو ٧٠٠٠ أو ٨٠٠٠ سنة . وأرجح الآراء الحديثة أن مؤسسي

وجود حضارة
بمصر قبل الميلاد
بنحو ٨٠٠٠
سنة

* الطران والطرار : جمع طر وطرر . وهو الحجر الصلب الرقيق الذي حده كحد
السكين وقد استعمله الانسان قديماً للقتال

تلك الحضارة قوم لوييُّ الأصل ، غير ان حضارتهم ليست هى أساس
مدنية المصريين الذين تكوّنت منهم الأسرات المختلفة التى سنتكلم عليها ،
والذين وصلوا بمصر إلى أعظم درجات الرقى ، بل كانت لهم حضارة قديمة
مستقلة بذاتها . أما الحضارة التى ابتدأ ظهورها بابتداء الأسرات الملكية
فيعزى أصلها الى القوم الفاتحين أجداد « مينا » ذلك الملك الشهير . وقد
ثبت أن أصل هؤلاء الفاتحين قوم ساميِّو الجنس قدموا إلى مصر من آسيا .
ولا يُعلم بعد علم اليقين من أين دخلوا البلاد ، فمن قائل إنهم جاءوا من
برزخ السويس (وهو الأرجح) ومن قائل إنهم عبروا البحر الأحمر ،
ووفدوا على مصر من جهة بلاد الحبشة . وعلى كل حال نعلم يقيناً أن القوم
الذين نشأ من بينهم « مينا » كانوا قبل ظهوره يقطنون الجهة الجنوبية
من مصر . ومما يدل على أن الفاتحين أجداد « مينا » من الأجناس السامية
أن اقدم ما وصل إلينا من لغتهم مشاهد فيه العنصر الأفريقى والسامى ،
وان الأخير غالب على الأول . دخل هؤلاء الفاتحون ومعهم حضارة أرقى
من التى كانت بمصر فى ذلك الوقت ، فهم الذين جاءوا بفن التحنيط
وبالكتابة الهيروغليفية . ومنذ دخولهم درجت مصر فى طريق الرقى
شيئاً فشيئاً ، اذ كان لحضارتهم تأثير فى السكان الأصليين ، ونشأت من
اتحاد العنصرين فى ذلك العصر (أى الذى قبل زمن الأسرات) حضارة
لا بأس بها . فكانوا يصنعون آنية جميلة من الفخار ، ثم صنعوها من
الأحجار ، فأجادوا فيها كل الإجادة . وفى ذلك العصر ابتدأ فن عمل التماثيل
يظهر بينهم ، فصنعوا تماثيل من الخشب والعاج والحجر متلائمة الصنع ،
واتخذوا من الطران قُوساً وحرباً وغيرها من الآلات ، ثم تقدموا فصنعوا

فى أن حضارة
الاسرات الملكية
اصلها من آسيا

أمثالها من النحاس . وفي الجملة كان هذا العصر دور انتقال من العصر الحجري الى عصر المعادن . أما أهم ما اشتغلوا به في ذلك الوقت فكانت الزراعة التي لفتهم اليها خصب وادى النيل . وكان بالبلاد اذ ذاك كثير من الغابات تأوى اليها الفيلة والزرافى وأفراس الماء وغيرها . وكان من المصريين عدد وافر يشتغل بصيدها وصيد سباع الصحراء التي هي أشد منها بأساً كالأسد والثور البري يرونها بالسهام والنشاب . أما التماسيح وأفراس الماء ، فكانت ترى من القوارب بالحراب والخطافات . وكان صيد هذه السباع يعدّ من المآثر العظيمة التي يخلدونها بالنقش على الصخور

وكانوا يشتغلون في ذلك العصر أيضاً بقليل من التجارة ، واتخذوا لهم سفناً شرعية عليها أعلام مختلفة ، يقول المؤرخون انها رموز الممالك الصغيرة التي كانت تحتوى عليها مصر اذ ذاك ، والتي انتهى أمرها بانضمام بعضها إلى بعض وتكوين مملكتين عظيمتين منها : احدهما في الشمال ، هي مصر السفلى ، والاخرى في الجنوب ، هي مصر العليا . وتمّ ذلك الاتحاد في عصر بعيد (أى قبل سنة ٤٠٠٠ ق . م) ، ولا نعرف شيئاً عن الرجال الذين سعوا فيه ، أو الحروب التي نشبت من أجله ، بل لا نعرف شيئاً كثيراً عن المملكتين اللتين نشأتا من هذا الاتحاد لبعده عهدهما

ومما نعرفه عنهما أن كليهما كانت لها صفات وشارات تميزها عن الأخرى : فمن ذلك أن أهل الشمال كانوا يتخذون رمزاً لهم حُرْمة من نبات البردى النبات بكثرة في منافع الوجه البحرى . وكان ملكهم يتخذ النحلة رمزاً له ويلبس تاجاً أحمر ذا شكل خاص . أما أهل الجنوب فكان رمزهم

الحضارة في
مصر قبل
الاسرات
الملكية

انقسام مصر في
الأزمنة الغابرة
الى اقسام
عديدة

مملكتا الشمال
والجنوب ورمز
كل منهما

الزَّئْبَقُ ، ورمز ملكهم نبات آخر من نبات الجنوب ، وشارته تاج
طويل أبيض

ولما كانت مصر السفلى عرضة للوبيين القاطنين في غربها كان يرد
عليها العدد العظيم منهم فيقيمون بها ، حتى أخذ الجزء الغربي منها صبغة
لوية بقيت ظاهرة فيه زمناً طويلاً ، على حين ان مصر العليا كانت
مصطبغة بالصبغة المصرية البحتة

ومما يؤسف له ان مصر السفلى طالما غمرها النيل بفيضانه المتكرر
على مرّ الدهور ، فاندثرت آثار تلك المملكة الشمالية ، مع ان الظاهر انها
أقدم في الحضارة من أختها الجنوبية

أما عاصمة هذه المملكة الشمالية فكانت مدينة « بوتو » ^(١) يقابلها
مدينة « نَجَب » ^(٢) عاصمة المملكة الجنوبية

ولم يصلنا شيء يذكر من أخبار ملوك ذلك العصر ، ولم نعثر بعد على
قبورهم ، بل لم نقف إلا على أسماء نفر منهم منقوشة على الحجر المعروف
بحجر « بَلَرَم » ^(٣)

وكان الذين خلفوا هؤلاء الملوك يلقبونهم « بنصف آلهة » ثم قيل
عنهم فيما بعد إنهم آلهة حكموا مصر قبل أن يحكمها الإنسان

(١) في شمالى الدلتا

(٢) مقرها قرية « الكاب » الحالية الواقعة بين اسنا وادفو

(٣) « حجر بَلَرَم » وُجد ضمن الآثار المصرية نُقش في أيام الأسرة الخامسة
ومكتوب عليه أسماء ملوك مصر الأوائل وبه أسماء ١٣ ملكاً حكموا مصر من عهد
الأسرة الأولى الى عهد الخامسة مع بيان مدة كل منهم . وبه أيضاً بيان ارتفاع
النيل في كل سنة منها وهذا الحجر الآن بمدينة « بَلَرَم »

الفصل الثالث

تأسيس الاسرات الملكية

واتحاد الشمال والجنوب

بقى كل من أقليمى الشمال والجنوب (مصر السفلى والعليا) مستقلاً اتحاد الشمال والجنوب بذاته الى أن تولى حكم مصر العليا رجل عظيم يدعى « مينا » جمع بين المهارة الحربية والمقدرة السياسية ، فقبض على جميع أزمّة الأقليم الجنوبي ، ثم تمكن بذلك من غزو مصر السفلى ، وضمها الى ملكه فكوّن من الاثنين مملكة مصرية عظيمة كان هو أول الفراعنة الذين جلسوا على عرشها . ولما كان منشؤه فى مدينة « طينة »^(١) لم ير أن موقعها بحيث يسهل جعلها مركزاً لإدارة مملكته الواسعة الجديدة . فحول مجرى النيل من الجبل الغربى الى مجراه الحالى وبنى عاصمته « منف » (منفيس)^(٢) فى الفضاء الذى تخلف من ذلك . ثم سنّ القوانين ونظم البلاد . ومن أعماله أيضاً أنه ردّ أهل النوبة الى الجنوب بعد أن كانت بلادهم الشمالية واصله الى مقاطعة ادفو

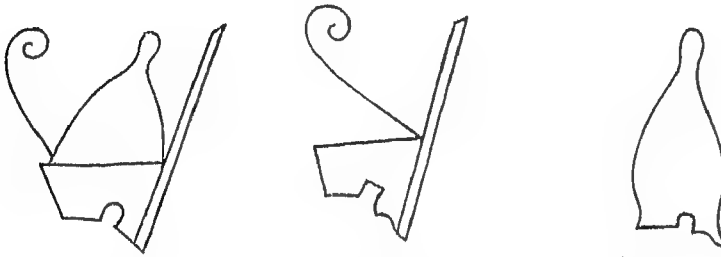
ومات بعد أن حكم طويلاً ودُفن بالقرب من « طينة » مسقط رأسه . خلفه ابنه « تيتى » وكان مولعاً بالعلوم فألف كتاباً فى الطب به عدّة

(١) موقعها الآن « العرابة المدفونة » بالقرب من جرجا

(٢) موقعها الآن البدرشين ومنية رهينة

أوصاف لعلاج أنواع شتى من المرض خصوصاً داء البرص . وله كتابان
فى الفلك وغير ذلك من العلوم

وبقى الأقليمان من بعده يحكمهما ملك واحد . وكانت كل شارات الملك
ورموزه تدل على أنه حاكم المصرين ، فكان يسبق اسمه فى جميع الكتابات
الرسمية بصورة النحلة رمز الشمال مشفوعة بنبات الجنوب . وكان تارة يلبس
تاج الوجه القبلى الأبيض ، وأخرى يلبس تاج الوجه البحرى الأحمر ،
وطوراً يلبس تاجاً جمع بين الشكلين ، هكذا :



(تاج الوجه القبلى الأبيض) (تاج الوجه البحرى الأحمر) (تاج الوجهين)

فكان ظهوره بهذه الهيئة فى أيام الزينة كفتح الترع ومواكب النصر
وما شاكل ذلك من الحفلات الرسمية ، عنواناً على أنه ملك الوجهين البحرى
والقبلى ، غير أن هذه الرموز الرسمية كانت فى الحقيقة دليلاً على أن كلا
من الأقليمين شاعر بوجوده بذاته ، وأنه لم يندمج ويتلاش فى الآخر ،
وفى الحقيقة كان الأقليمان منفصلاً أحدهما عن الآخر فى الإدارة الداخلية
وكان أصعب عمل أمام ملوك الاسرتين الأولى والثانية هو إرضاء
أقليم الشمال وجعله يندمج تماماً فى أقليم الجنوب . وكثيراً ما شق أهل
الشمال عصا الطاعة فنشبت بسبب ذلك حروب أريققت فيها الدماء .

انفصال
الأقليمين فى
الإدارة الداخلية

وما زلنا نرى تذكارات الانتصارات عليهم منقوشاً على جدران معبد « هوروس »
بجهة « هيراقنبوليس »*

ولا شك أن هذه الحروب أثرت في حالة مصر السفلى ، ولكنها لم تمنع مجموع المملكة من التقدم ، بدليل أن حفر الترع وما شاكله من المنافع العامة كان آخذاً في الازدياد ، وكذلك أخذت طوابع النبوغ تظهر في فن الهندسة ، وارتقى نظام الحكومة وكثر بناء القصور ، وعظم تشييد المقابر والنواويس ، وابتدأت أيضاً التجارة بين مصر وما جاورها من البلاد مثل شبه جزيرة بلاد العرب ، ويغلب على الظن أن المصريين ابتدءوا منذ ذلك العهد البعيد يتجرون مع سكان جزائر « بحر إيجه » بدليل أنه قد وجدت في قبور ملوكهم أوانٍ من الفخار شبيهة جداً بأواني سكان تلك الجزائر

الفصل الرابع

عصر بناء الأهرام

(٢٩٨٠ — ٢٤٧٥ ق م)

الأسرة الثالثة ٢٩٨٠ — ٢٩٠٠ الأسرة الخامسة ٢٧٥٠ — ٢٦٢٥

» الرابعة ٢٩٠٠ — ٢٧٥٠ » السادسة ٢٦٢٥ — ٢٤٧٥

يطلق هذا الاسم على العصر الممتد من منشأ الأسرة الثالثة الى منتهى
الأسرة السادسة ، وذلك لانتشار بناء الأهرام فيه انتشاراً كبيراً أدى الى

* بالقرب من المنيا

تلقبيه « بمصر بناء الأهرام » وإن كان تشييد الأهرام لم يبطل بته إلا في أواخر أيام الدولة الوسطى . وهذا العصر يمثل طوراً هاماً من الأطوار التي تقلبت فيها مصر . ويلخص وصفه فيما يأتي :

كان ملوك الاسرتين الأولى والثانية على جانب عظيم من القوة وشدة البأس ، فكانت جميع السلطة في قبضة الملك لا ينازعها فيها منازع وقد يهب جانباً كبيراً منها لحكام الأقاليم مختاراً ولكنه يستأثر بالسيطرة العليا فيعزلهم من مناصبهم إذا هم أساءوا استعمالها أو حادوا عن الخضوع لسلطانه . استمرت هذه الحالة في أيام الأسرة الثالثة ، حتى وصلت قوة الملك فيها الى منزلة لم يسبق لها مثيل ، يدل على ذلك الآثار الهائلة التي أُقيمت في أيام هذه الأسرة وما بعدها ، إذ لم يكن يتسنى تشييدها إلا في عهد ملك قوى قبض على كل السلطة في أنحاء البلاد ، حتى تمكن من إنفاق تلك القناطر المقنطرة من الثروة في بناء هرم هائل لا داعي لإقامته سوى رغبته الخاصة . ويظهر أن قوة الملك بلغت أقصاها في أوائل أيام الأسرة الرابعة أي في الوقت الذي شيد فيه « خوفو » هرم الجيزة الأكبر ومن بعد عهده أخذت السلطة تتسرب من يد الملك . ويرجع ذلك الى أمرين : الأول أن حكام الأقاليم استبدوا بجانب كبير من القوة ، والثاني أن كهنة عين شمس (مقر عبادة « زع ») أخذوا يتدخلون في الأمور السياسية ، حتى صار لهم فيها نفوذ كبير فأضعف ذلك قوة الملك من جهة ، وزاد في شوكة حكام الأقاليم من جهة أخرى . وما زال نفوذ الكهنة يزداد شيئاً فشيئاً حتى قضوا على الأسرة الرابعة ، وأسسوا الأسرة الخامسة . واتهن حكام الأقاليم هذه الفرصة فجعلوا مناصبهم وراثية ، وإن

لم يجيدوا عن الولاء لمليكم . واستمرت البلاد آخذة في أسباب التقدم . فزاد فرعون من نفوذ مصر في بلاد النوبة وأرسل البعثات التجارية الى بلاد « بُنت * » و « سيناء » و « فينيقية » و « بحر إيجة » . ومع كل هذا أفضت مزاحمة الأمراء والولاة للملك الى ارتباك عظيم في سياسة البلاد وانتشار الفوضى فيها ، وعند وفاة آخر ملوك الأسرة السادسة رجعت مصر الى تلك الفوضى التي ألقدها منها مينا قبل ذلك بنحو ١٠٠٠ سنة

بناء القبور
والاهرام

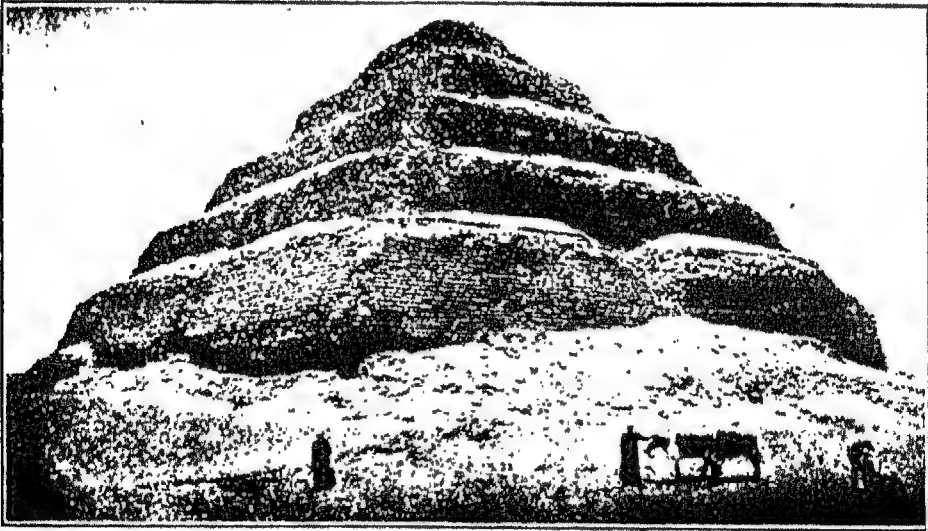
ولكى نفهم الغرض من بناء الأهرام والمقابر عند قدماء المصريين يجب علينا أن نعرف شيئاً من معتقداتهم فيما يخص بالحياة بعد الموت . كان المصريون يعتقدون أن من عاش عيشة طاهرة في هذه الحياة الدنيا يعيش بعد الموت عيشة رغدة في أرض أخرى يتخيّلون موقعها بالإجمال في الجهة الغربية . وكانوا يعتقدون أيضاً أن الإنسان مكوّن من جزأين : الجسم والروح (المسمى عندهم « كا ») . ولكي يبقى الروح متمتعاً بالحياة يجب أن يكون الجسم بعد الموت باقياً على صورته ولذلك عملوا على تحنيط الموتى وبناء المقابر الحصينة كي يُحفظ الجسم بها من يد العابثين واللصوص . وكانوا يضعون في القبور الطعام والشراب ليتناول الروح منهما ما ينتعش به . وكثيراً ما كانوا ينقشون على جدران المقبرة المناظر التي كان يعيش بينها الميت والخيرات التي كان يتمتع بها ، مثل صورة منزله وحدائقه ومزارعه وخدمته على اختلاف أنواعهم ، كلُّ شغل بعمله ، ومثل أشكال الرياضة التي كان يروض نفسه بها وغير ذلك ، زعماً منهم أن الروح يستأنس بهذه الصور ، فتذهب عنه الوحشة

* موقعها الآن بلاد الصومال وشواطئ خليج عدن

وكانت حالة القبور في الأسرتين الأولى والثانية تقرب الى الغضاضة وقلة التأنيق ، فان الجثة كانت توضع في حجرة تحت الأرض توصل اليها زلافة منحدره . وكانت بالمقبرة حجرتان أخريان فوق الأرض : إحداهما توضع فيها العطايا المقدمة للروح ، والأخرى توضع فيها تماثيل الميت (وتسمى الآن عند علماء الآثار سرداباً) . وكان يُصنع في الجدار الغربي من كل مقبرة فجوة غائرة في الحائط تحاكي الباب ، ترد الروح منها على زعمهم لتتناول ما تريد من العطايا . وكانت القبور في أول الأمر تُبنى من اللبن المجفف في الشمس وتُشيد على شكل هرم ناقص أضلاعه قليلة الميل . ولوجود شيء من الشبه بين هذا الشكل وبين المصاطب التي بمدخل منازل القرى في الوقت الحاضر أصبحت كل مقبرة من هذا النوع تسمى « مصطبة » . ثم ارتقت المقابر شيئاً فشيئاً فصار يُبنى فوق المصطبة مصطبة أصغر منها وقد يبنى فوق هذه أخرى أصغر منها وهكذا فينشأ من ذلك ما يسمى « بالهرم المدرج » . وأول من شيد هرمًا بهذه الصفة هو « زوسر » مؤسس الأسرة الثالثة فإنه شيد « هرم سقارة المدرج » حوالي سنة ٣٠٠٠ ق . م من خمس مصاطب إحداها فوق الأخرى فكان هرمه هذا أقدم بناء كبير من الحجر عُرف في التاريخ . وقد اتبع هذه الخطة العامة بناء الأهرام من بعده ، غير أنهم زادوا في أهرامهم ما جعلوا به أضلاعها مستوية . وفي المقابر الهرمية كانت توضع الجثة في حجرة خفية داخل الهرم أو تحته وبذلك كان الهرم والحجرة التي به بمثابة الحجرة التي كانت توضع فيها الجثة في العصور الأولى . أما العطايا التي تقدم للروح فكان يبنى لها معبد ملاصق للهرم من الجهة الشرقية يسكنه كهنة قومة بشؤون هذه العطايا . ولا تزال

آثار هذه المعابد ظاهرة بالجيزة وبوصير

وصلت « منف » (منفيس) فى أواخر أيام الأسرة الثانية الى درجة الاسرة الثالثة
من الرقى أخذت على عظمة « طينة » التى يُنسب اليها ملوك الأسرتين
الأولى والثانية . ولما انتهت الأسرة الثانية أسس « زوسر » الأسرة
الثالثة فكانت أيامه مبدأ عظمة منف . وفى عهده استمر استخراج
معدن النحاس من شبه جزيرة سيناء وأُخضعت قبائل بلاد النوبة الشمالية
المجاورة للجنادل الأولى . وقد ساعد « زوسر » على نجاحه العظيم وزيره
المدعو « إِيْحْتِيب » الذى كان على جانب عظيم من الحكمة وطول الباع فى
فلسفة الدين والسحر والحكم والأمثال والطب وفن البناء
و « زوسر » هو أول من شيد من الحجر مباني عظيمة كثيرة
العدد، وأول من حسن صناعة القبور، فبنى بجمهة « بنى خلاف » بالقرب



(هرم سقارة المدرج)

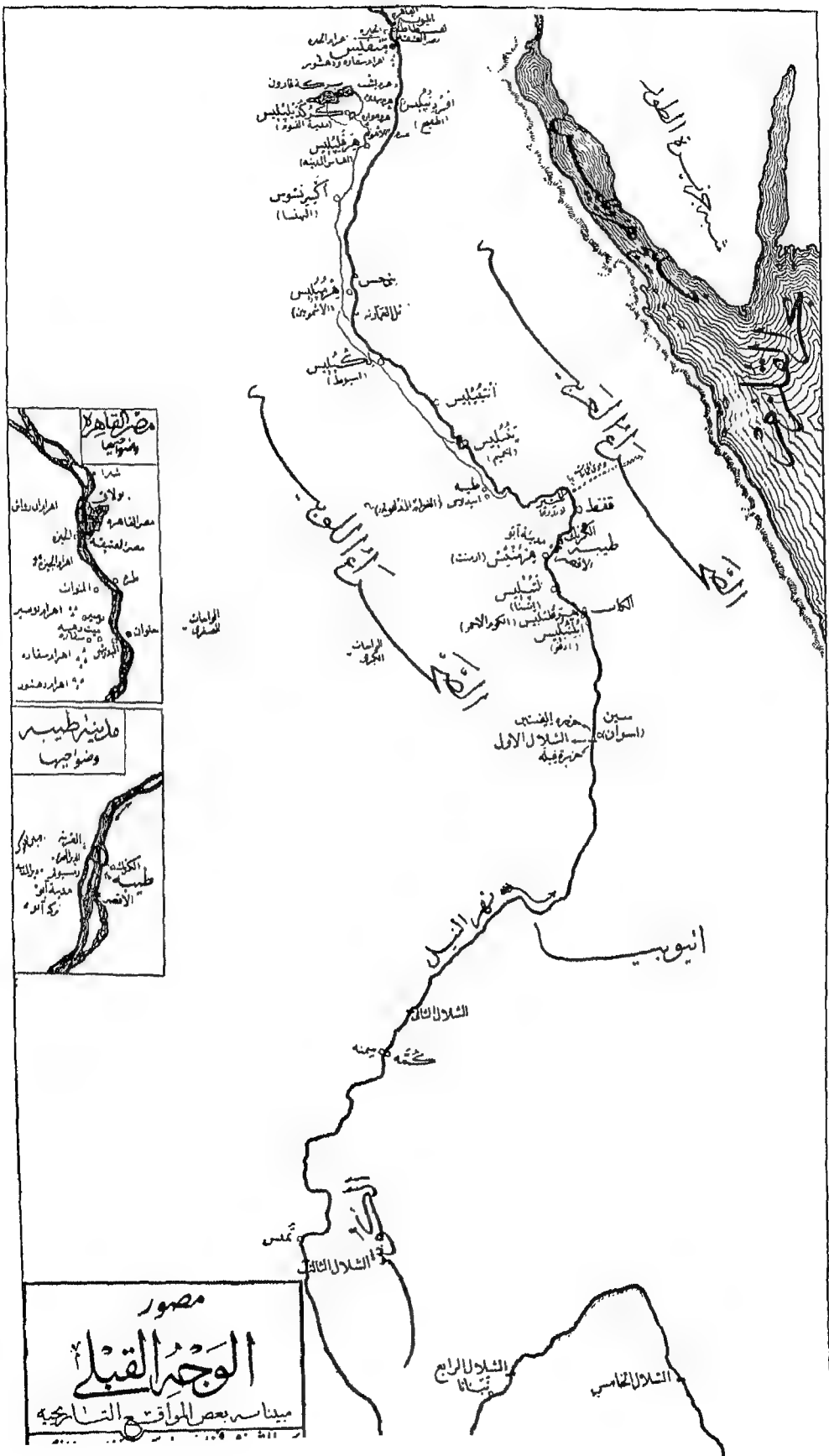
من «أييدوس» مصطبة عظيمة من الطوب ، ثم شيد في الصحراء بالقرب من منف تربة من الحجر أعظم من هذه ، بل أعظم من أى تربة بنيت قبلها ، وهى الهرم المدرج المذكور آنفاً المعروف بهرم سقارة المدرج وبعد أن توفى «زوسر» بقيت البلاد آخذة فى أسباب التقدم الى أن تولى الملك «اسنفرو» آخر ملوك الأسرة الثالثة وكان بصيراً ساهراً على ما فيه الصالح لبلاده فشىد الطرق التجارية وبنى السفن العظيمة . ومن أعماله أنه فتح باب المتاجرة مع الممالك الشمالية وأرسل أسطولاً مكوناً من أربعين سفينة الى الشاطئ الفينيقى لإحضار خشب الأرز من جبال لبنان ، فكان ذلك أول بعثة بحرية أرسلت داخل البحار . ومن أعماله أيضاً أنه نظّم حدود القطر الشرقية وحصنها وقاد حملة حربية على بلاد النوبة الشمالية فعاد ومعه الألوف من الأسرى والماشية

وقد شيد تربتين احدهما بجهة «ميدوم» على شكل هرم مدرج والأخرى بجهة «دهشور» على شكل هرم كامل ، وكلا الهرمين بين منف والفيوم

وكانت مصر فى أيام «اسنفرو» قد وصلت الى درجة كبيرة من الرقى مهدت لها طريق السير الى تلك العظمة الهائلة التى بلغت فى أيام الأسرة الرابعة وما بعدها . وتقوّت فى أيامه طائفة الأشراف الموظفين فى حكومة الملك ، وجعلوا يبنون لأنفسهم المصاطب العظيمة من الحجر المنحوت ، ويختارون مواضعها حول قبر مليكهم الذى يخدمونه

وبعد وفاة «اسنفرو» انتهت أيام الأسرة الثالثة ، وتولى الملك «خوفو» مؤسس الأسرة الرابعة التى يُعدّ عصرها أزهى عصور الدولة القديمة . وقد

خوفو مؤسس
الاسرة الرابعة



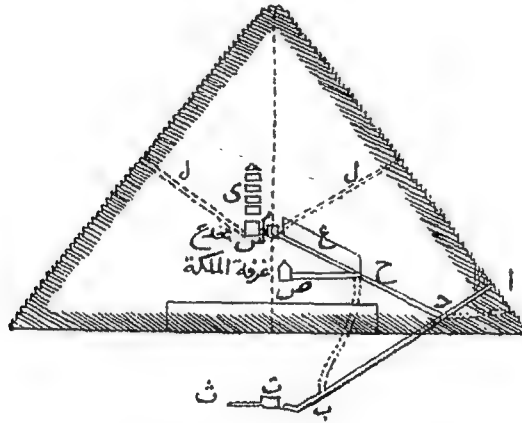
ذهب بعض المؤرخين الى أنه أزهى عصور الحضارة المصرية بأجمعها .
ولا غرو فإن دقة البناء ونخامته وجمال التماثيل وروعها في تلك الأيام
لتكفي لإثبات ما كان المصريون عليه من الحضارة العظيمة في عصر
هذه الدولة

ومؤسس الأسرة الرابعة هو الملك « خوفو » ، وكان يسميه اليونان
(كيئس) . وقد عرّف هذا الملك كيف يخلّد اسمه في التاريخ ، فشيّد هرم
الجيزة الأكبر الذي لم ير العالم بناءً أكبر منه . ولا نريد التعرّض لموضوع
فائدة ذلك الهرم أو غيره وإنما نؤكد أنه من أجله صار اسم « خوفو » أظهر
اسم بين أسماء الملوك الذين حكموا في الشرق الى وقتنا هذا . وان ضخامة
هذا البناء الهائل جعلته إحدى عجائب الدنيا ، فقد قرّر المؤرخون
والمهندسون ان بناءه يشمل نحو ٢,٣٠٠,٠٠٠ حجر ، متوسط وزن الحجر
منها طنان ونصف . وقد قال « هيرودوت » المؤرخ اليوناني . إنه كان يشتغل
في بناء الهرم مائة ألف رجل^(١) يُستبدل بهم غيرهم كل ثلاثة أشهر ، وان
بناءه استغرق عشرين عاماً . وقد أثبت أعظم المؤرخين المُحدثين أن ذلك
تقدير معتدل . وليست غرابة الهرم في حجمه فقط ، بل من حيث دقة
صناعته كاتّخاب الأحجار وجوده نحتها وضبط زواياها وحسن رصفها ورقّة
الملاط الذي بينها ، مما أدهش أعظم مهندسي الوقت الحاضر

أما ارتفاع الهرم فكان وقت تشييده ١٤٥ متراً ثم تناقص بتهدم قِمته
في السنين الطوال حتى صار ١٣٧ متراً . وأما قاعدته فربعة الشكل وطول
كل ضلع من أضلاعها يبلغ الآن ٢٣٣ متراً^(٢) ومسطحها يبلغ ١٢ فداناً تقريباً

(١) قيل إن معظمهم كان من الاسرى (٢) ألف شبر

وكان القصد من بناء الأهرام إيجاد مكان حصين خفي يوضع فيه تابوت الملك بعد مماته ، ولذلك شيدوا الهرم ، وجعلوا فيه أسراباً خفية زلقة صعبة الولوج لضيقها وانخفاض سقفها واملاستها ، حتى لا يتسنى لأحد الوصول الى المخدع الذى به التابوت . ومن أجل ذلك أيضاً سُدَّ مدخل الهرم بحجر هائل متحرك لا يعرف سر تحريكه إلا الكهنة والحرس ، ووُضعت أمثال هذه الأحجار على مسافات متتالية فى الأسراب المذكورة ، وبهذه الطريقة بقي المدخل ومنافذ تلك الأسراب مجهولة اجيالاً من الزمان



(بيان الهرم الأكبر من الداخل)

أ : المدخل — ادب : زلاقة الى أسفل ، منها اد مفرغ فى بناء الهرم والباقي مفرغ فى الصخر — ت : حجرة تحت الأرض — ث : سرب أفقى — دح س : زلاقة صاعده — ع : ايوان مرتفع على يمين الزلاقة — س : دكة — م : ممر من الدكة الى مخدع الملك — ح ص : سرب أفقى موصل الى الحجرة المعروفة الان بغرفة الملكة — ل ، ل : ممران لدخول الهواء — ي : خمس غرف صغيرة أفرغت فى البناء فوق مخدع الملك لتخفيف الثقل عن سقفه -- ح ب : بئر

وجميع هذا الهرم مشيد من الحجر الجيرى الصلب ما عدا المخدع الأكبر فإنه من الصخر المحبب (الجرانيت) . وكان يحيط بقاعدة الهرم

طَوَّار (رصيف) عرضه يقرب من الثلاثة أمتار وكان الهرم مغطى بطبقة من الصخر المحبب فوقها أخرى من الحجر الجيري المصقول . ووضع الملاط بين الأحجار في غاية الدقة حتى كان الناظر إلى الهرم يكاد يظنه صخرة واحدة . ثم انكشف هذا الغطاء بعد أن كان ساتراً لمدخل الهرم وهو عند المدماك الثامن عشر في الجانب الشمالى

ومما يلاحظ فيه أن جوانبه مواجهة للجهات الأربع الأصلية بالضبط ، وقد ذهب بعضهم إلى أنه كان لذلك أهمية فلكية في ذلك العصر ومع اننا لم يصلنا شيء كثير من أخبار «خوفو» وملكه الزاهر فوق بنائه لهذا الهرم العظيم يسهل علينا أن ندرك مقدار نظام الحكومة ورخاء البلاد في أيامه بالتأمل في الكيفية التي تم بها بناء الهرم ، إذ انه ليس من السهل اطعام مائة ألف عامل وياؤهم وكلهم عالة على الأمة لا يفيدون ثروة نافعة ، كما انه من الصعب تنظيم تلك الحركة الهائلة عند مقاطع الاحجار بحيث لا ينشأ عنها عطلة في البناء

خفرع والهرم
الذى شيده

وبعد أن توفي خوفو خلفه « خفرع » * فشيدهم الجيزة الثانى وهو أصغر قليلاً من هرم خوفو وأقل جودة في صناعته . ومما يجدر ذكره هنا انه كان لهذا الهرم كما كان للهرم الأكبر معبد مائتصق بجانبه الشرقى ، وكان يوصل لذلك المعبد طريق مرتفع ، في طرفه الأسفل بناء من المحبب

* معنى « خفرع » (المقتبس من نور رع) . ولعل هذا دليل على ابتداء ظهور القوة في يد كهنة « رع » . ويلاحظ مثل هذا الاشتقاق في كثير من أسماء الملوك من بعده في الاسرات الرابعة والخامسة والسادسة



(تمثال خفرع)

بدار الآثار المصرية رسم ف . د . د . بيرز

مازلنا نراه الآن بجوار أبي الهول العظيم ، وقد أطلق عليه « معبد أبي الهول »

الهول » مع انه لم تثبت بعد علاقته بهذا التمثال

أما أبو الهول ذاته فلم يُعلم صانعه بعد يقينا . وانما الأرجح انه عمل أبو الهول

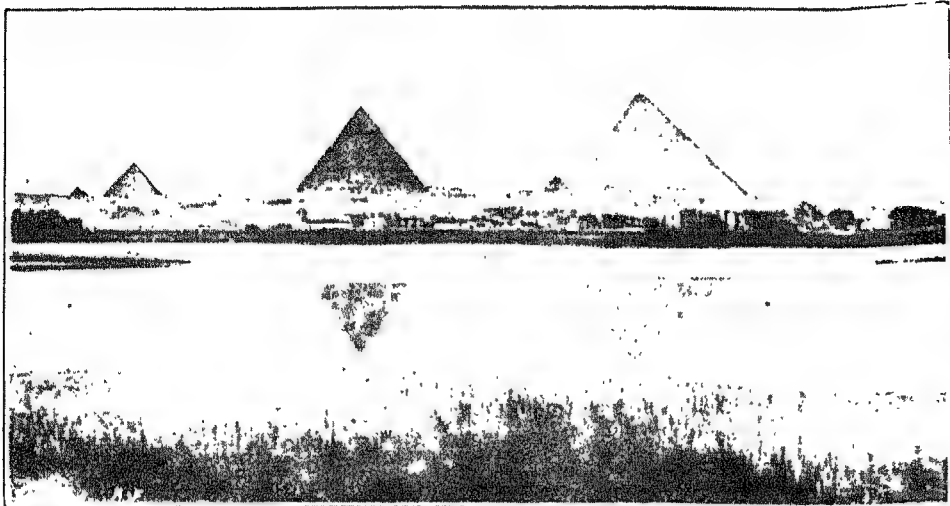
في زمن الأسرة الرابعة ، وقيل قبلها . وهو تمثال هائل حفر من الصخر

الطبيعي ، وجهه وجه انسان وجسمه جسم أسد ، ارتفاعه نحو ٢٠ متراً

وطوله نحو ٤٦ متراً ، ولم يعلم الغرض الحقيقي من صنعه الى الآن

وبعد أن توفي « خفرع » خلفه « منقرع » مشيد هرم الجيزة

الأصغر . وفي أيامه حافظت مصر على عظمتها غير أن شوكة الملك ابتدأت



اهرام الجيزة من بعيد (رسم محمد افندی علی سهودی)



هرم الجيزة الاكبر وابو الهول (رسم محمد افندی علی سهودی)

تضعف قليلاً وزادت قوة كهنة « أُون » (عين شمس) واكتسبوا جانباً عظيماً من السلطة السياسية

لاحظنا ان كهنة « أُون »^(١) أخذوا يستبدون بالأمر في أوائل أيام الأسرة الخامسة الأسرة الرابعة وبقوا كذلك نحو ١٢٠ سنة وصلوا بعدها الى درجة من القوة مكنتهم من اسقاط تلك الأسرة وتأسيس أسرة جديدة هي الخامسة . ولما كان الفضل في تأسيس هذه الأسرة راجعاً الى الكهنة كان ملوكها أضعف ممن قبلهم ، فاتهنز حكام الأقاليم ورؤساء الحكومة هذه الفرصة ، واكتسبوا لأنفسهم تولى المناصب بالوراثة . فمن ذلك ان منصيب « قاضى القضاة وكبير الوزراء » بعد أن كان يُسند الى اسن أولاد الملك أصبح حقاً خاصاً لأسرة جديدة هي أسرة « طاحُيب » الشهيرة^(٢) . وحدث مثل ذلك في الأقاليم أيضاً ، فان كل حاكم كان يزداد في القوة عن سلفه على أن هؤلاء الحكام حافظوا بالرغم من ذلك على الولاء للملك ولم يألوا جهداً في مساعدته بالنفس والنفيس على ما فيه تقدم البلاد ورفقها . ولا غرو فان مصر في عهد هذه الأسرة حافظت على ينابيع ثروتها ، وقامت بمشروعات تجارية وحرية نافعة زادت من ثروتها . وكان لها أثر ظاهر في رفاهتها ونمو حضارتها . فمن ذلك ان « أوسر كاف » أول ملوك هذه الأسرة مد سلطانه الى الجنادل الأولى (حوالى سنة ٢٧٥٠ ق . م .) وان خلفه « سَحُورَع » ارسل حملة بحرية الى الشواطئ الفينيقية ، واخرى الى

(١) يسمون « كهنة أُون » أو « كهنة رَع »

(٢) لأحد أفراد هذه الأسرة مقبرة بسقارة تعرف « بمقبرة طاحُيب »

ويدل حجمها وضخامتها على ما كان لصاحبها من العظمة

بلاد « بُنت » وشواطئ خليج عدن الجنوبية ، واخرى برية الى شبه جزيرة سيناء . ومن ذلك أيضاً ان الملك « إيسى » أرسل حملة حوالى سنة ٢٦٨٠ ق . م لفتح محاجر وادى الحمامات ^(١) وارسل حملة اخرى الى بلاد « بُنت » أيضاً . ثم ان الملك « أوناس » آخر ملوك هذه الأسرة أيد سلطانه فى الجنوب الى الجنادل الأولى حيث وُجد اسمه منقوشاً على الصخور مشفوعاً بلقب « رب البلاد » . وقد تركت هذه الأسرة مقابر عديدة على غاية من الابداع فى النقش ^(٢) بعضها بمنف وبعضها فى جهات شتى فى الوجه القبلى . وآخر أهرامها هرم « أوناس » بسقارة ، وهو منقوش من الداخل بالألوان

الاسرة السادسة وحافظت مصر فى أيام الاسرة السادسة أيضاً على حضارتها ، غير انه فى عهدها زاد استقلال حكام الأقاليم فصاروا يُعرفون « بالامراء العظام » وأصبح كل منهم يُدفن بموطنه بعد أن كانت قبورهم ملتفة حول قبر مليكهم . ومع هذا لم تزل للملك الكلمة العليا عليهم ، بل تمكن بمساعدتهم من تنفيذ سياسة خارجية ما كانت تتم الا بالقوة والبأس الشديد . فمن ذلك ان « بيبى الأول » ثالث ملوك هذه الأسرة (٢٥٩٠ — ٢٥٧٠ ق . م) بسط نفوذه فى بلاد النوبة حتى جعلها تمد جيشه بالرجال . وقد أرسل حملة الى فلسطين وفينيقية وعدة حملات اخرى لتأديب قبائل البدو الشمالية الذين تعدوا حدود مصر الشرقية . ثم حذا حذوه ابنه « مَرْنَرع »

(١) هذا الوادى يمتد بين قنا على النيل وبين القصير على البحر الاحمر

(٢) قارن هذه باهرام الاسرة الرابعة التى لم تتوقف عظمتها على جمال نقشها بل على ضخامة احجارها ودقة صنعها

فتمكن بمساعدة امراء « إلفنتين » الاشداء من حفر قناة في حجر الصوان بالقرب من الجنادل الاولى تسيهلاً لارسال الحملات الى بلاد النوبة . وكانت فائدة هذه البلاد لمصر قد زادت ، لاستخراج معدن الذهب منها ولكونها الطريق الموصل إلى بلاد بنت والسودان ، ولذلك قام « مرزوع » بالاستكشاف عن تلك الجهات بنفسه ، فوفد اليه كثير من رؤسائها لتقديم الطاعة

وفي عهد « بيبي الثاني » (٢٥٦٥ - ٢٤٧٦) الذي حكم البلاد نيافا وتسعين سنة (وهو أطول زمن تولاه ملك في التاريخ) استمر ارسال الحملات الى داخل إفريقية وخصوصاً ما كان منها بقيادة « حَرْخُوف » أمير « الفنتين » ذلك الذي منحه الملك لقب « حاكم البلاد الأجنبية » . وفي هذا العهد بسطت مصر بعض السيادة على بلاد النوبة ، وكشفت جهات الجنادل العليا ، فكان ذلك تمهيداً لطريق الاستيلاء التام على بلاد النوبة فيما بعد . ولبثت الغزوات تتوالى طول هذا العهد على بلاد « بُنت » وتعود الى مصر بكثير من الخيرات

ولما توفي « بيبي الثاني » تولى الملك من بعده عدة ملوك حكموا مدداً قصيرة ، وتاريخهم غامض . وكانت قوة الملك في أيامهم قد بلغت منزلة من الضعف أصبح فيها عاجزاً عن ضبط ولائه ، ولم تلبث الأسرة السادسة أن انقضت واستقلت الأقاليم المصرية بتدبير شؤونها بنفسها ، فبعد ان كانت البلاد في قبضة ملك واحد أصبح يحكمها عدد من الامراء يتنازعون الأمر فيما بينهم . ف وقعت مصر في مثل تلك الفوضى التي انقذها منها « مينا » بعد ان قضت في مجبوحة المجد نحو الف سنة

وقد كان العصر الأخير من أيام الأسرة السادسة مظلماً جداً، لم يبلغنا شيء واضح من أخباره . ويفهم مما تقدم انه كان عصر حروب وفتن داخلية طويلة نشأت من عظم نفوذ الأشراف وانتهت بسقوط الأسرة السادسة التي تعد في الحقيقة آخر الدولة القديمة . ومن ملوك هذه الأسرة الملكة « نيتوكريس » التي أتمت هرم الجيزة الثالث ، وتحكى عنها أقاصيص كثيرة لم يثبتها الاستكشاف بعد . ثم حكمت مصر الأسرة السابعة ثم الثامنة ، ولم يصلنا من أخبارهم سوى أسماء ملوكهم

سقوط الدولة
القديمة

الفصل الخامس

الدولة الوسطى

﴿ العهد الإقطاعي ﴾

(٢١٦٠ — ١٧٨٨ ق م .)

قضت على الدولة القديمة الفتن الداخلية التي ابتدأت في أواخر الأسرة السادسة . وبفناء الأسرة الثامنة انتهت تلك المدة الطويلة التي كانت فيها منف ، قرراً للحكومة ، وذلك أن الأشراف والامراء الذين كانوا يقيمون في أقاليم مصر المختلفة اخذت قوتهم في الازدياد الى ان أفضى أمر أسرة منهم الى التغلب على ملوك الأسرة الثامنة الضعفاء ، فترعوا منهم الملك وجعلوا مقره في « هرَاقُو بوليس » جنوبي الفيوم وهي المدينة التي نشئوا فيها . وبذلك ابتدأت « الاسرتان التاسعة والعاشرية » * . أما مؤسس

الاسرتان التاسعة
والعاشرية

* هكذا سمي مانيتون ملوك هذه المدة

[illegible]

وتمت الخ محمد بن الحسين المكي في شهر ربيع الثاني سنة ١٠٠٠
مينايا بعض المراجع النخبة
الجبالي
مصور

ورحمه الشيخ محمد بن محمد بن الحسين المكي

هاتين الأسرتين فهو « خيتى الأول » أو (أختويس) ، ولكن ملوكهما كانوا ضِعفاء ، ولم يتركوا وراءهم أى آثار باقية تخلد ذكرهم . ولبثت سطوة أمراء النواحى فى أيامهم على أشدها . وهم فى ذلك فريقان : فريق حانق على الملوك شديد العداوة لهم ، وفريق مُزدلف إليهم مظاهر لهم على عدوهم ، ومن هؤلاء أمراء أسيوط فانهم كانوا مقرّين جدّاً من بيت الملك وكثيراً ما أفادوا الملك بحماية الحدود الجنوبية ، وقد عين أحدهم « قائداً حربياً لمصر الوسطى »

وفى ذلك الوقت كانت إحدى الأسرات الأخرى من أمراء الجنوب الاسرة الحادية عشرة
آخذة فى النهوض وهم أمراء « طيبة » بالقرب من مدينة « الأقصر » الحالية ، فما زال يشتد أزهرهم حتى أعلنوا استقلالهم ، ثم أسسوا الأسرة « الحادية عشرة » التى أخذت فى توسيع نطاق ملكها زاحفة من الجنوب الى الشمال حتى خضعت لها البلاد بأجمعها

أما ملوك هذه الأسرة فكان بعضهم يسمى باسم (أشِف) وبعضهم يُدعى « مِشْوَحْتِب » . ومما يؤثر عن آخرهم وهو « سِنْخَرَعْ مِشْوَحْتِب » أنه أرسل حملة الى بلاد « بُنت » عن طريق البحر الأحمر

وانقضت أيام هذه الأسرة حوالى سنة ٢٠٠٠ ق . م . ولم يترك ملوكها وراءهم من الآثار إلّا قليلاً ومعظمه لم يذم الى زماننا . وأهم ما يعرف عن هذه الأسرة أنها نقلت مقر الحكومة من شمالى مصر الى جنوبيها (فى طيبة) ومهدت الطريق لبلوغ مدينة طيبة تلك الدرجة المشهورة فى الرقى والحضارة مما جعلها الآن أغنى مدينة قديمة بالآثار فى جميع أنحاء المعمورة

أسس « امنمحت الأول » * الأسرة الثانية عشرة بعد حروب طويلة . وكان عند ابتداء حكمه قد بلغ أمراء الأقاليم مبلغاً عظيماً من الثروة والسلطان وصارت لهم قوّة يُخشى بأسها لا يمكن للملك قهرها بالشدة والعنف . وأدرك ذلك « امنمحت » نخادعهم بالهدايا النفيسة ووعدهم الوعود الجميلة ، وبهذه الوسيلة استخدمهم في فتح الفتوح وتنظيم البلاد وقبل أن ندخل في الكلام على تاريخ الأسرة الثانية عشرة التي كان عصرها من أزهى العصور المصرية نذكر شيئاً عن الحالة العامة لمصر في تلك المدة التي ابتدأت بظهور شوكة هؤلاء الأمراء وانهت باتيهاها ، وهي ما يسمى بالعهد الإقطاعي

﴿ مجمل حالة مصر في العهد الإقطاعي ﴾

كانت مصر في هذه المدة مقسمة الى أقسام أو ولايات صغيرة يحكم كلاً منها أمير ، وهؤلاء الأمراء لم يتولوا مناصبهم بأمر الملك بل بطريق الوراثة عن آبائهم ، فلم يُعتبروا من أرباب الوظائف في سلطانه بحالة ما ، غير أن جميعهم كانوا يشعرون بواجب الولاء لفرعون مصر وعزيزها ، ينصرونه اذا حارب ، ويمدونّه بالرجال والمال اذا كان في حاجة اليها

حالة الامراء

ولما مضت عليهم الأجيال الطويلة وهم سائرون على هذا النظام قويت شوكتهم وأصبح الواحد منهم في ولايته فرعوناً صغيراً في نفسه ، له من رجال البلاط وأمناء الخزان وقضاة المحاكم وعملة الدواوين وكتّابها أمثال من فرعون مصر الأكبر ، وكان كل أمير منهم مسؤولاً أمام

* ويسمى أيضاً « أمنمحات »

ضميره عن مصالح قومه ، وقصارى أمه أن يترك بعده الذكر الحسن فيهم ولم تكن جميع الأراضي التي يحكمها كل أمير من الأمراء ملكاً خالصاً له يرثها عن سلفه ويورثها خلفه بل كان منها أجزاء يهبها المليك الأكبر طُعمَةً لهم يحكمونها طول حياتهم. وهذه الأراضي كان يهديها اليهم على هيئة « إقطاعات » تعطى لهم عند وفاة سلفهم . ولهذا سُمي ذلك العصر بعهد الإقطاعات أو « العهد الإقطاعي »

وهذه هي الوسيلة التي بها استطاع الملك أن يكون له بعض النفوذ عليهم وأن يكون له في إماراتهم من الوكلاء والسفراء من يوقفونه على أحوال أمته حتى يتنبأ له ضبط ملكه والنظر في مصالح بلاده ، غير أن سلطة هؤلاء الوكلاء والسفراء لم تخرج عن حد المراقبة ، فكان الأمراء هم الذين يرسلون بأنفسهم ما يأخذه الملك من ريع البلاد وخراجها وكانت هذه العلاقة بينهم وبين بيت المال أكبر رابطة تربطهم بالملك وتربط أنحاء البلاد بعضها ببعض

ولم ير ملوك مصر إزاء هذه الحالة بُدّاً من أن يحيطوا أنفسهم بالحرس والأعوان لحمايتهم وحفظ شوكتهم وتنفيذ رغباتهم ، فكان ذلك مبدأ إعداد الجيوش القائمة في مصر

وكان للأمراء رجال من هذا القبيل يقودونهم الى ساحة القتال فينضمون الى رجال الملك اذا استمدهم في حروبه

أما الطبقة الوسطى من الأمة فكانت في هذه العصور رائجة السوق الطبقة الوسطى كثيرة العدد ، لكثرة الحاجة اليهم ، وذلك لنمو قوة الأمراء في أنحاء البلاد وازدياد حاجاتهم المكتملة لمعيشة الترف والأبهة ، فزاد بذلك عدد النقّاشين

والحفَّارين والنجَّارين وغيرهم من أصحاب الحِرَف الدقيقة، كما زاد عدد التجَّار والموظفين . ومما امتازت به أهل هذه الطبقة على أفراد الطبقة السفلى معرفةهم بالقراءة والكتابة . ومن ابتداء، ذلك الوقت نجد للكاتب أهمية كبيرة، فتراه يفتخر بعلمه ويفضل مهنته على غيرها

أما طبقة العامة والدهماء من ألوف الألوف المشتغلين بالحرف الصغيرة وبزراعة الأرض التي هي أساس ثروة البلاد فكانوا أميين محتقرين . والظاهر أنهم كانوا موالى للأمير الحاكم في الإمارة التي يعيشون فيها، وأن معظم ما يُفقدونه كان لحاجة الأمير وحاشيته، وأنهم لم يتجروا بشيء في الأسواق إلا القليل

وهذا النظام بما فيه من علاقة طبقات الأمة بعضها ببعض يشبه النظام الذي ساد في أوروبا في القرون الوسطى، ولذلك سمى كل منهما بالنظام الإقطاعي

الشبه بين النظام الإقطاعي في الدولة الوسطى المصرية ومثله في القرون الوسطى بأوروبا

الأسرة الثانية عشرة (٢٠٠٠ — ١٧٨٨ ق م)

ان عصر هذه الأسرة هو أزهى عصور الدولة الوسطى، فكانت فيه البلاد في أعلى درجات الرخاء والسعادة وفيه أحييت العلوم والفنون واتسعت أملاك مصر في وادى النيل وتقدمت الزراعة وشيدت العمارات . ومؤسس هذه الأسرة هو « أَمْنَمَحَمَت الأول » (٢٠٠٠ — ١٩٧٠ ق م) . وقد تغلب على المصاعب الكبيرة التي لاقاها في اصلاح البلاد وتنظيمها بعد أن عبثت بها يد الفتن والحروب الداخلية . وباستيلائه على عرش مصر نقل مقر حكومته من طيبة الى جهة متوسطة بالقرب من « اللّشت » على بعد

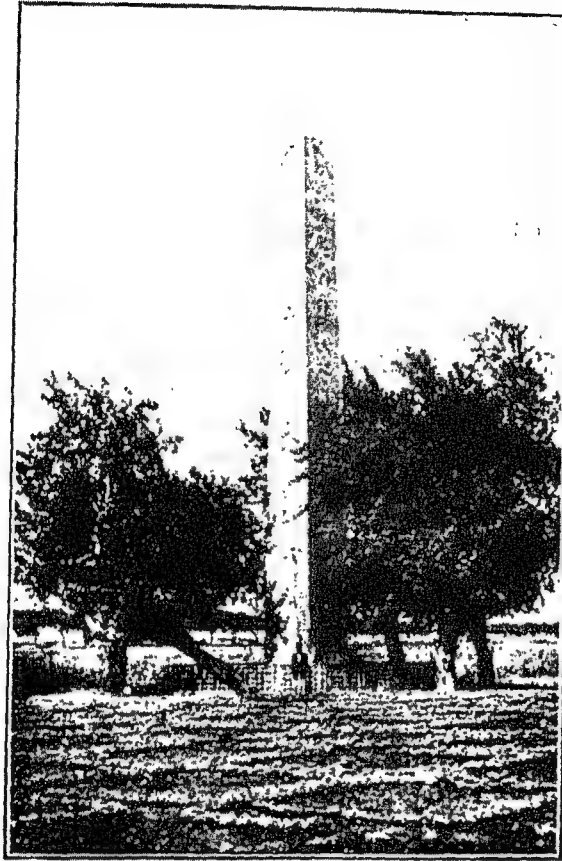
امنمحت الاول

٢٥ ميلاً من جنوبي منف . وقد ترك وراءه من الآثار في جميع أنحاء مصر ما يشهد له بالجدّ والسعي وراء مصلحة بلاده . ومن أعماله استخراج المعادن من المناجم الممتدة في الصحراء الى شبه جزيرة سيناء وقطع الأحجار من المحاجر العديدة ولا سيما ما كان واقعاً منها بجهة « الحمامات » . وأرسل حملة الى بلاد النوبة فأخضعت بلاد « الواوات »^(١) الى كروسكو، حيث كان يوجد الذهب بكثرة . وبعد أن حكم البلاد وحده عشرين عاماً أشرك ابنه « أُسِرْتَسِن الأول » في الملك بقصد تدريبه على ادارة شؤون البلاد . ولما أسرتسن الاول طمن امنمحت في السنّ وشعر بقرب منيته قدّم لابنه « أسرتسن » مجموعة نصائح مفيدة أوصاه فيها بالعناية برعيته ، وحذّره ممن يلتفون حوله من كافري النعمة ذاكراً له ما جرى له : من أن جماعة من خدمة قصره حاولوا قتله لولا أن كشف أمرهم

وتوفي امنمحت الأول بعد أن حكم ثلاثين عاماً ، خلفه ابنه « أُسِرْتَسِن الأول » (١٩٨٠ - ١٩٣٥ ق م) بعد أن تدرّب على الملك عشر سنين كان في أثناءها شريكاً عاملاً لأبيه وقاد فيها الجيوش بنفسه لتأديب اللوبيين واخضاع النوبة . واشتهر منذ صغره بالشجاعة والقوة . وبعد وفاة والده قام بأمر الملك خير قيام وحفظ عظمة الأسرة أثناء حكمه الطويل الذي دام خمساً وأربعين سنة^(٢) . ومن أشهر آثاره المخلفة مسألة عين شمس التي ما زالت بتلك الجهة الى الآن . وبدأ أيضاً مشروع خزان بحيرة مورييس ، وسنشرحه عند الكلام على « امنمحت الثالث » الذي

(١) شمالى النوبة

(٢) بما في ذلك عشر السنوات التي حكمها مع أبيه



(مسلة عين شمس)

رسم محمد افندي على سعودى

تمَّ على يديه . ومن أعماله أيضاً أنه بنى معبدًا بجهة وادى حلفا ودون على
بلاطة فيه انتصاراته على قبائل النوبة . ومن الأمراء المقربين منه «أميني»
وله مقبرة جميلة بجهة بنى حسن . وقد وُجد هرمه وهرم أبيه بجهة «اللشت»
ثم تولى الملك . «امنحمت الثانى» (١٩٣٨ — ١٩٠٣ ق م) فجنى
ثمّار فتوح سلفه وحكم البلاد فى هدو وسكينة ، وعند وفاته دفن بهرمه
بدهشور

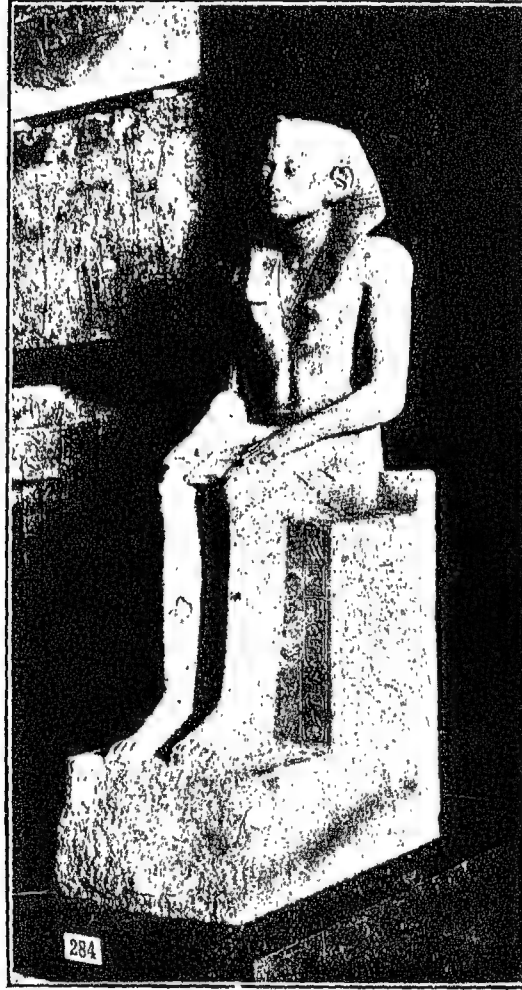
وتبعه « أسرتسن الثانى » وله هرم بجهة « اللاهون » بالفيوم . وقد عُثر فى هذا الهرم قريباً على بعض حُلِيٍّ من أجل ما وصل إلينا من صنع العالم القديم

وبعد « أسرتسن الثانى » تولى « أسرتسن الثالث » (١٨٨٧ — ١٨٤٩ ق م) وكان شديد البأس مولعاً بالحروب . غزا بعض جهات سورية وأتمَّ الحروب فى بلاد النوبة فمدَّ الحدود المصرية الى ما وراء الجنادل الثانية وشيَّد لحمايتها قلعتين بنقطتى « سِمْنَة » و « قُمَة » (خُمَة) وأمر السودان بالآ يتجاوزوا ذلك الحد برًّا أو بحراً ما لم يكن ذلك بقصد التجارة وفى هذه الحالة كانوا يعاملون بالحسنى . ومن أعماله أنه لوقوف الجنادل عقبة فى سبيل الملاحه حفر فى صخرها المحبب مجرى تعبر منه السفن الكبيرة فتيسر بذلك مجاوزة السفن الى ما وراء الجنادل الأولى . ومن أعماله أيضاً أنه وصل النيل والبحر الاحمر بخليج يُعرف « بخليج سيزُوستريس » * . وأيامه من أزهى عصور اللغة المصرية القديمة . وفى عهده أخذت شوكة الاشراف فى الاضمحلال . أما هرم هذا الملك فبجهة دهشور ، وقد وُجدت بالقرب منه حلى بديعة لبعض أميرات أسرته

وبعد ان توفى خلفه « امنمحت الثالث » (١٨٤٩ — ١٨٠١ ق م) امنمحت الثالث وقد خلَّد ذكره فى التاريخ بأعماله السامية المفيدة . وفى أيامه بلغت الدولة الوسطى أقصى درجات مجدها . وكادت تنفى فى عهده قوة الاشراف بعد ان أخذت فى الاضمحلال فى أيام سلفه ، وقد تمت على يديه عدة مشروعات

* هذا أيضاً من الأسماء التى أطلقت على « أسرتسن » . وقد أطلق أيضاً على رمسيس الأكبر

سامية زادت كثيراً في ثروة البلاد، ففي أيامه نُظِّمَت مناجم سيناء وصارت
ينبوعاً مستمراً للثروة، وأنشئ بجهة « سمنة » مقياس للنيل ينبئ عن
حال الفيضان فتجبي الضرائب بمقتضاه



(تمثال امنمحت الثالث)

(بدار الآثار المصرية) رسم محمد افندي على سعودي

أدرك امنمحت الثالث توقف فلاح مصر على جودة ريّها، فقام

بم شروع عظيم لخزن مياه الفيضان حتى يُنتفع بها في أوقات هبوط النيل .
وذلك انه لما رأى انخفاض اقليم الفيوم عن سطح النيل وأن مياه الفيضان
تغمره كل عام فتقلبه الى بحيرة عظيمة أقام حول جزء منه سوراً عظيماً ،
فصار هذا الجزء بمثابة خزان كبير ترد اليه المياه وقت ارتفاع النيل بواسطة
ترعة ^(١) وتخرج منه أيام انخفاضه بترعة أخرى فتروى أراضي الوجه
البحري ^(٢) . وبهذه الطريقة أيضاً انحسرت مياه النيل عن كثير من البقاع
التي كان يغمرها الفيضان في الفيوم كل عام ، فأصبحت صالحة للزراعة .
ومن ذلك العهد صارت الفيوم مقراً لملوك هذه الأسرة . وقد أدرك بعض
من سبقه من ملوك الأسرة الثانية عشرة ثمرة هذا المشروع ، ولكن
الفضل الأكبر في انجازه راجع الى هذا الملك العظيم الذي كان من صفوه
مولعاً بمراقبة مد النيل ورصده

وقد شيد أمنمحتب على شاطئ التربة التي ترد منها المياه الى الخزان
ذلك البناء العجيب المسمى «لايرنت» الذي اشتهر في قديم الزمان ببداعته ،
ولم يبق منه الآن إلا بعض أحجار بالقرب من هرم اللاهون . على ان
«هيرودوت» المؤرخ اليوناني قال عنه : انه يحتوي على ثلاثة آلاف محل
ما بين حجرة ورذعة نصفها تحت الأرض والنصف الآخر فوقها عدا ثمانى
ساحات مسقفة متقابلة الأبواب . والظاهر انه كان مقراً للحكومة تُدار
منه جميع البلاد

(١) هذا الخزان هو المعروف ببخيرة موريث والترعة هي المسماة الآن بحريوسف

(٢) دلت الاحصاءات الحديثة على ان المياه التي كانت تخزن بهذه الطريقة

تكفى لجعل مياه النيل في المائة اليوم الأوائل من انخفاضه ضعف ما تكون عليه بدونها

وفي عهد امنمحت أيضاً نُظِّمَت التجارة ووُضِعَت وحدة مشتركة لقياس قيمة ما يشرى وما يباع، وهي عبارة عن وزن خاص من النحاس وكانت تسمى «دِين». وبالاختصار كانت أيامه أيام سعادة ورخاء في جميع أنحاء البلاد. وبوفاته دُفِنَ بهرمه بدَهْشُور، وكانَ حظ مصر قد دُفِنَ معه حكم من بعده «امنمحت الرابع» ثم الملكة «سِيَكْنِفَرُورَع» ولكن مدتهما كانت قصيرة، وأخذت فيها البلاد تنهقر تنهقرًا سريعًا حتى انتهت أيام الأسرة الثانية عشرة بعد ان استمرَّت نحو ٢١٣ سنة

﴿ اضمحلال الدولة الوسطى ﴾

أتى بعد أيام الأسرة الثانية عشرة عصر مظلم جداً امتدَّ الى ظهور الدولة الحديثة. ومعظم ما نعرفه عن هذا العصر مستمد من القصص الدينية ومن الفروض التي لم تثبت للآن

جاء أول ملوك الأسرة الثالثة عشرة على عرش مصر بدون فتن واضطراب، ولكنه فُصِّلَ عن عرشه بعد ان حكم خمس سنوات فقط، فتبع ذلك عصر شقاق وفتن بين أمراء الأقاليم الذين كان يحارب بعضهم بعضاً في التنازع على تولى الملك. وقد يتغلب أحدهم على غيره ويقبض على صولجان الملك فلا يلبث ان يظهر عليه آخر فيغلبه على أمره. نعم قد حكم بعضهم زمناً طويلاً ولكن معظمهم لم تزد مدة أحدهم على عام أو عامين ومنهم من حكم مدة ثلاثة أيام فقط. ولم يترك ملوك هذا العهد شيئاً من الآثار يُذكر بسبب اشتغالهم بالحروب، ولذلك لم تقف على كثير من أعمالهم. ولما كانت البلاد على هذه الحال من الشقاق والانقسام كان من السهل أن تقع غنيمة

الاسرة الثالثة
عشرة

باردة في أيدي الفاتحين من الأجانب ، ففي أواخر أيام الأسرة الثالثة عشرة (حوالي ١٦٥٧ ق.م) ابتدأت اغارة قوم فاتحين من آسيا لم يُعلم للآن أصل منشئهم يقيناً ، وهؤلاء الفاتحون هم الذين يُعرفون الآن « بالهكسوس » أو « ملوك الرعاة »* . ومما قيل في اطلاق هذا الاسم عليهم أن المصريين لما تغلبوا عليهم في آخر الأمر وطردوهم الى بلادهم كانوا يذكرونهم بالاحتقار والازدراء فلقبوهم « بالأجناس البربرية » و « بالكفرة » و « بالرعاة » أى الذين يرعون الغنم . وأرجح ما قيل في أصلهم أنهم قوم نشؤوا من اختلاط العرب بالفينيقيين وربما كانوا من قبائل البدو المحالفين لملوك قادش (وهؤلاء الملوك هم الذين قاوموا « تحتس الثالث » أشد مقاومة عند توسيعه نطاق الأملاك المصرية كما سيأتى بيانه في الكلام على الدولة الحديثة)

وتلخص الأسباب التى سهلت دخول الهكسوس مصر فيما يأتى :

(١) عدم السير على نظام ثابت فى الرى مما دعا دوام المشاحنة بين

الأشراف

(٢) كثرة الضرائب الباهظة

(٣) شدة استبداد الأحزاب المختلفة وظلمهم

ولما دخل الهكسوس مصر أسسوا بلدة لهم بالوجه البحرى تدعى

الاسرة الرابعة
عشرة

« أوَاريس » (هوَارَة) لا يُعلم مكانها بعد باليقين ، وجعلوها مقراً لحكمهم . ولما انقرضت الأسرة الثالثة عشرة وخلفتها الأسرة الرابعة عشرة كان ملوكها مصريين كذلك وكان مقر حكومتهم مدينة « إِكْمُويس »

* وهم الذين يسمون فى كتب العرب بالعاقلة . وقيل ان كلمة « هكسوس »

لا يقصد بها « رعاة » وان اطلاق هذا الاسم عليهم من باب الخطأ

(سخا) بالوجه البحرى أيضاً . غير أنهم كانوا أشبه بولاية الهكسوس
وما زال نفوذ الهكسوس يزداد عاماً فعاماً حتى أخضعوا جميع البلاد
فدفعت لهم الجزية

الاسرنان
الحامسة عشرة
والسادسة عشرة
من الهكسوس
ولما انقضت الأسرة الرابعة عشرة قبضوا على زمام الملك، ولذلك اعتبرت
الأسرنان الخامسة عشرة والسادسة عشرة في تاريخ مصر من هؤلاء
الملوك الرعاة

وكانوا في أول أمرهم ظالمين كثيرى الاعتداء على المصريين ولكنهم
عدلوا عن ذلك فيما بعد وتطبعوا بكثير من الطباع المصرية وشيدوا كثيراً
من المعابد والمباني واتخذوا لهم معبوداً جمع بين معبودهم الأصلي وأحد آلهة
المصريين

ولو وصلت إلينا الآثار التى تركوها أو النقوش التى عليها لعرفنا كثيراً
من أخبارهم . ولكن المصريين بعد أن طردوهم من البلاد عبثوا بمعابدهم
وعفّوا آثارهم ، وكل أثر لم يحجوه أزالوا منه النقوش والمعالم التى تدل على أنه
للحكسوس

ويقال إن قدوم سيدنا يوسف عليه السلام الى مصر وحدث ما حدث
له كان فى عهد الأسرة السادسة عشرة

وعلى توالى الأيام أخذ ملوك الهكسوس فى الاضمحلال . وفى زمن
الأسرة السابعة عشرة انقسمت مصر الى عدة ولايات صغيرة كانت «طيبة»
أهمها . فاتهزأ من هذه الفرصة وشقوا عصا الطاعة على الهكسوس
وما زال المصريون يحاربونهم حتى طردوهم من مصر ، وبذا تكونت الأسرة
الثامنة عشرة وهى مبدأ الدولة الحديثة

وقد كان لدخول الهكسوس في مصر وبقائهم فيها مدة تأثير كبير في المصريين . فالهكسوس هم الذين أدخلوا الخيل في مصر ومنهم تعلم المصريون الفنون الحربية وتعبئة الجيوش الجرارة ، فهما نال المصريون من مظالمهم فقد اكتسبوا منهم مزايا لا تُحصى

الفصل السادس

الدولة الحديثة

(١٥٨٠ - ١١٥٠ ق م)

﴿ امتداد سلطة مصر على غيرها من البلدان ﴾

تعلم المصريون فن الحرب أثناء مكافحتهم للهكسوس قهيات بذلك تمهد مصر للدخول في طور حربى عظيم وسّعت فيه أملاكها ومدّت نفوذها على كثير من الممالك المجاورة لها ، وبلغ هذا المجد أقصاه في عهد « تحتمس الثالث » و « أمنحيتب الثالث » من ملوك الأسرة الثامنة عشرة غير أنه في أواخر أيام هذه الأسرة تولى الملك رجل ضعيف السياسة تلهى بالمباحث الدينية عن شؤون الدولة فلحقها الضعف من كل جانب ، لولا أن أتاح الله لها رجالاً أشداء في الأسرة التاسعة عشرة أنقذوها من هذا السقوط ، ولكن بعد أيام رمسيس الثانى انقضى ذلك الدور أيضاً ودخلت مصر في دور اضمحلال مستمر . وقد استفحل هذا الخطب بنهوض الأمم المجاورة لها من جهة ، وخنود الروح الحربية من المصريين من جهة أخرى

﴿ الأسرة الثامنة عشرة ﴾

(١٥٨٠ — ١٣٥٠ ق . م)

يظهر أن الأسرة الثامنة عشرة كانت لها قرابة بالسابعة عشرة . وأول غرض رمى إليها ملوكها استئصال شأفة الهكسوس فقام « أَحْمِس » (أَحْمِس) مؤسس هذه الأسرة وغزاهم في عاصمتهم أواريس وطردهم منها ثم اقتنى أثرهم وغزاهم ثانية في « شاروهين » بالجنوب الغربى من فلسطين فافتتحها بعد حصار دام ثلاث سنوات . وقد قام هذا الملك أيضاً بحروب في الشام وأخرى ببلاد النوبة ، ذلك الى الحروب التى انتصر فيها على الأمراء الوطنيين الذين حاولوا أن ينازعوه فى السلطة ، وفى الحقيقة انه أفنى معظمهم فلم يبقَ منهم إلا أعوانه المخلصون مثل أمير « الكاب » وباستيلائه على الملك صارت جميع الأراضى ملكاً خاصاً للملك أما الملك الذى خلفه فهو « أَمِنْحُتِب الأَوَّل » ، وله غزوات بالشام والنوبة . وفى سنة ١٥٤٠ ق . م خلفه « تَحْتَمُس الأَوَّل » (طُوْطَمِيس الأَوَّل) . وقد انتصر تحتمس عدة مرار فى حروبه التى شنها على الشام وبلاد النوبة وأرض الجزيرة (ما بين النهرين) . وفى هذا الوقت كان قد مضى على مصر نحو ثلاثين سنة لم يحدث فيها اضطراب أو فتن داخلية ، فصار للحكومة من القوة والثروة ما يؤهلها للدخول فى ذلك الطَّوَر الحربى العظيم الذى تهيأت لها فيه تلك الفتوح الكبرى الآتى ذكرها بعد . وقد ساعدها على ذلك استقلال الملك بالأمر وإضعافه ما كان للأمراء من النفوذ والعظمة فى أيام العهد الإقطاعى

بدأ «تحتمس» بإخضاع بلاد الكوش (النوبة) فأدخلها في طاعته، تحتمس الاول
وكانت هذه البلاد تمتد من «نباتا» بالقرب من الجنادل الرابعة (الشلال
الرابع) جنوباً الى مدينة «الكاب» شمالاً. ثم صرف عزمه الى الشام
فغزاها، وساق جيوشه حتى أوردتها نهر «الفرات» حيث نقش تذكاراً
لهذا الحادث. ولم يصلنا شيء كثير من أخبار هذه الحروب المكحلة بالظفر،
وانما الراجح أن نفقاتها لم تكن باهظة، وأن المصريين كانوا يعودون منها
بالأسرى والغنائم الكثيرة، فيزيدون في ثروة البلاد

ووجه «تحتمس» شيئاً من عنايته أيضاً الى المباني، فزاد كثيراً في
معبد «الكرنك»*. وعند وفاته دُفن بوادي مقابر الملوك بطيبة الذي يعرف
الآن «بيبان الملوك» فكان هو الأول لعدد عظيم من الفراعنة الذين
دُفنوا بهذه البقعة

وفي أواخر أيامه حدث تنازع بشأن العرش، فجلس عليه ابنه
«تحتمس الثاني» مدة وجيزة لم يكن له فيها أثر يذكر. ثم آل الملك الى
بنته (بنت تحتمس الأول) «حتشبسوت» (حاتاسو) بالاشتراك مع
«تحتمس الثالث»

وكانت «حتشبسوت» على جانب كبير من قوة البأس، فما لبثت
أن استأثرت بالسلطة وسلبت من «تحتمس الثالث» كل أمر. وساعدها
على ذلك صغر سنه، فخضع لها كما خضعت لها مصر بأسرها. وقد أظهرت

الملكة
حتشبسوت

* ما يُسمى الآن «معبد الكرنك» هو عبارة عن بناء هائل بجهة قرية الكرنك
شيّدت أجزاؤه على عدة دفعات وكان المعبد الأصلي في أول الأمر صغيراً وأسس
بمدينة «طيبة» في عصورها الأولى

أثناء حكمها غروراً عظيماً وتبهاً متناهيًا، وتزيت بزى الرجال
وكان جلّ مقاصد هذه الملكة موجهاً للأعمال السامية، فأكثر
من تشييد المباني ونقشها وتدوين أخبارها ودعاويها العريضة عليها. وأهم
ما شيدته معبد «الدير البحري» الفاخر بجهة طيبة على الجانب الغربي للنيل،
وزادت جزءاً في معبد الكرنك، وأقامت مسلتين عظيمتين عند مدخله
ومما يؤثر عنها أنها أرسلت بعثة بحرية الى بلاد «بُنت» لإحضار
أشجار منها لغرسها بمعبد المذكور، فنجحت البعثة في الوجه الذي
خرجت له وعادت بالأشجار المطلوبة وغيرها من نفائس تلك البلاد
وبوفاتها قبض نحتمس الثالث على الملك بعد أن مضى عليه منذ تنويجه
نحو اثنتين وعشرين سنة خاملاً فيها. وعند ذلك ظهرت مواهبه العظيمة
وما عنده من قوّة البأس والثبات والإقدام والمهارة الحربية التي جعلته في
عداد كبار الفاتحين في العالم القديم

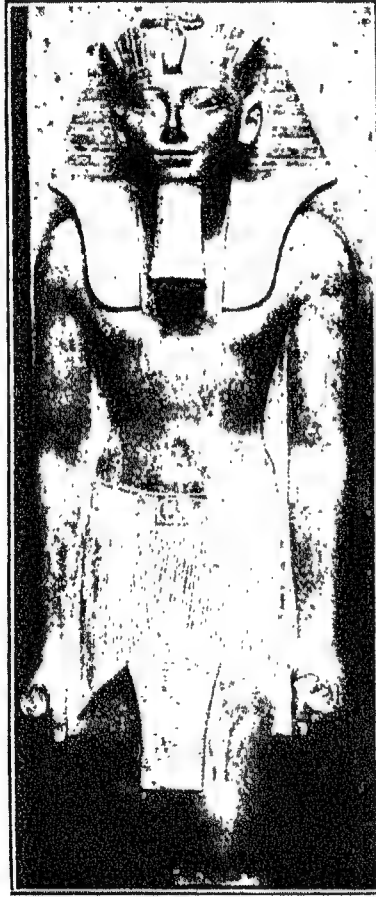
نحتمس الثالث

✽ حروب نحتمس الثالث ✽

(١٤٧٩ — ١٤٤٧)

كان ببلاد الشام في تلك المدة عدة ولايات صغيرة غربي سورية، وكانت
خاضعة لنفوذ المصريين، ولكن لما مضى على ملوكها زمن طويل لم يروا
فيه الجيوش المصرية في بلادهم تكبح جماحهم وتؤدبهم على ما كان يقع منهم
من التمرد، شقوا عصا الطاعة جملةً على المصريين بعد وفاة «حتشبسوت»،
وكان ملك «قادش» زعيم هذه الحركة. فخرج «نحتمس» من مصر في
أواخر السنة الثانية والعشرين من تنويجه قائداً لجيش عرمرم نزل به بعد

نحو عشرين يوماً على السفح الجنوبي لجبال «الكرمل». وقد كانت جيوش الأعداء المتحدة قد سارت نحو الجنوب يقودها ملك «قادش»، حتى عسكرت في «مجدو»، وهي مدينة منيعة في السفح الشمالي من جبال «الكرمل». فسارت تحتبس نحو العدو، وأقسم أن يكون هو في طليعة



موقعة مجدو

الجيش، فحمل به على الأعداء ظاهر المدينة، فولوا مذعورين إليها تاركين معظم النفائس التي بمعسكر ملك «قادش» غنيمة باردة للمصريين ثم حاصر تحتبس مدينة «مجدو» المذكورة، فسامت إليه بعد بضعة أسابيع

أما الغنائم التي أخذت من المدينة فكانت أخف وأنفس من التي أخذت خارجها*. ثم اتجه نحو الشمال ففتح ثلاث مدن في السفح الجنوبي لجبل لبنان، وبني حصناً في تلك الجهة ليأمن به شر ملك قادش إذا زحف ثانية نحو الجنوب. ثم بدأ بتنظيم هذا

تحتبس الثالث

(بدار الاثار المصرية)

رسم محمد افندى على سعودى

* من هذه الغنائم سرادق ملك قادش الفخم و٩٢٤ عجلة حربية فيها عجائتا ملك قادش وملك مجدو و٢٢٣٨ جواداً و٢٠٠ درعاً فيها درعا هذين الملكين

الاقليم الذى فتحه ، فعزل ملوك الأسرات القديمة مخافة أن يعاودوا الخروج عليه ، ونصب مكانهم آخرين

ثم عاد الى مصر بعد أن غاب عنها أقل من ستة شهور ، فكان لعودته اكبر سرور فيها ، وأقيمت الحفلات العظيمة ، وقُرِّبت القرايين للمعبود أمون* شكراً له وابتهاجاً بهذا الفتح الباهر . ثم أعاد الكرة على هذه البلاد فقمع ثوارها . وقد طار صيته وذاع نبأ فتوحه الأولى حتى وصل الى مدينة بابل ، وكانت قد ابتدأت تأخذ في الظهور ، فرأى ملكها ان أحسن سياسة يتبعها أن يتودد لفرعون ، فأهدى اليه الأحجار الكريمة الفاخرة وأرسل اليه الجياد البابلية المُنمَّمة ، فوصلت اليه وهو في ميدان القتال . ثم رجع تحتمس الى مصر وشرع في التخطيط اللازم لتوسيع معبد الكرنك ، حتى يصير ملائماً لحال الدولة العظيمة التى يرغب فى تكوينها

غزو أرواد وفى السنة الخامسة والعشرين من حكمه غزا بلاد سورية غزوة ثالثة ، ثم غزاها رابعة . وكانت أهم أعماله فيها تتمم إخضاع البلاد التى فتحها وتنظيمها . ثم أوغل فى الغزوة الخامسة ، ففتح «أرواد» وغيرها من المدن الفينيقية ، وغنم منها ذخائر كثيرة

فتح قادش وفى الغزوة السادسة حاصر «قادش» . ولمنعة موقعها لم تسلم له إلا بعد حصار طويل ، وكان طول مدة الحصار قد غرر بأهل مدينة «أرواد» وما جاورها ، فظنوا ان قوة فرعون قد اضمحلت ، فشقوا عصا الطاعة . ولكن «تحتمس» ذهب اليهم فى السنة التالية ، وأدبهم وأخذ الجزية من جميع بلاد الشام

وكان «تحتمس» طول هذه المدة يتأهب لغزو «بلاد النهرين» وما جاورها. وفي السنة الثالثة والثلاثين من حكمه رَجَّحَ شِيشَه من مدينة «قَادِش» قاصداً «قَرَقَمِيش»، فتغلب على كل من اعترضه في طريقه، ثم عبر نهر «الفرات»، وأقام وراءه نصباً بجانب النَّصَب الذي أقامه «تحتمس الأول» دون عليه نبأ وصوله الى تلك البقعة. ثم اتجه جنوباً وسار متبعاً مجرى النهر حتى وصل الى مدينة «نِينوى»، وبعد ان فتحها لبث ثمة قليلاً للرياضة يتصيد الفيلة. وفي غضون ذلك كانت تفقد أمراء بلاد النهرين الى سُرَادِقِهِ يقدّمون اليه الجزية اقراراً بخضوعهم له. وسرى الخوف من بطشه الى أهل الممالك المجاورة لأرض الجزيرة جنوباً وشمالاً، فبعث ملك بابل على بُعد داره بالتحف والنفائس تزيّناً لفرعون، وحذا حذوه في ذلك أهل «خيتا» الذين كانت تمتدّ أملاكهم الى أواسط آسيا الصغرى (والأرجح أنهم هم «الحِثِّيُّون» المذكورون في التوراة). وكما قويت سطوة جيوش تحتمس البرية كذلك عظمت مهابة أساطيله البحرية، فأصبح ملك «قُبْرُس» أشبه بوال له، وصار الاسطول المصرى يلقى الرعب في النفوس، فأكسب مصر نفوذاً يمتد من شرق البحر الأبيض المتوسط الى ما وراء «بجر إايجه»، كما كان له فائدة كبرى في تسهيل فتوح الشام، فانه باستيلائه على الثغور الفينيقية ضمن لتحتمس عدة مراكز منيعة يهاجم منها «قادش» وغيرها من البلاد الداخلية. وهذا أقدم مثال في التاريخ يؤيد مزاي القوة البحرية، فان «تحتمس» استغرق في غزوته الأولى ٢١ يوماً للوصول براً من الأراضي المصرية الى «مجدو» (وذلك يُعتبر سيراً سريعاً جداً)، مع انه لم يستغرق في غزواته التالية أكثر من بضعة أيام للوصول الى أي ثغر من الثغور السورية

فتح نينوى

قوت اسطول
تحتمس

وقد غزا «تحتمس» في أيامه الأخيرة بعض غزوات في بلاد النوبة .
وتوفي في السنة الرابعة والخمسين من حكمه بعد أن ملأ الشرق الأوسط
شهرة وعظمة

وكان «تحتمس» ينتهز فرصة فراغه بين حرب وأخرى فيلتفت الى
شؤون بلاده الداخلية . وقد أظهر في ذلك مقدرة عظيمة في ادارة البلاد
وضبطها . فلم تغفل عينه لحظة عن أى جزء من أجزاء دولته العظيمة
ومن آثاره مستنان عظيومان أقامهما بعين شمس ، ثم نقلتهما
«كِلْيُو بَطْرَه» الى الاسكندرية ، ولذلك اشتهرتا « بمسلى كِلْيُو بَطْرَه » .
واحداهما الآن بلندن والأخرى بنيويورك

وما زالت بعدُ جثة «تحتمس الثالث» بدار العاديات المصرية . وهو
أعظم ملوك الدولة الحديثة ، وقد قال بعض المؤرخين : انه أعظم ملك في
تاريخ مصر بأجمعه

وبعد وفاة تحتمس الثالث تولى الملك ابنه « أَمِنْحُتِبِ الثَّانِي »
(أَمِينُوفِيسِ الثَّانِي) ، وكان في آخر أيامه قد أشركه معه في الملك . ومن
أوائل أعماله أنه قاد جيشاً إلى سورية لقمرد أهلها مرة أخرى ، فوصل في
سيره الى نهر الفرات ، وعاد الى طيبة ومعه غنائم كثيرة وسبعة ملوك
اسرى ، فذبحهم وعلق جثث ستة منهم على سور المدينة ، وأرسل الجثة
السابعة الى «نباتا» حيث نُصبت هناك لتلقى الرعب في قلوب الإيتوبيين .
وحكم هذا الملك ستة وعشرين سنة ، ثم ترك الملك لابنه «تحتمس الرابع» .
وأشهر ما يعرف من أخباره أنه أزال الرمال من حول أبي الهول . وله
حروب في سورية وبلاد الكوش

وفي سنة ١٤٠٠ ق . م تولى بعده ابنه «أمنحتب الثالث» (امينوفيس أمنحتب الثالث الثالث). وكان من أعظم مشيدين المباني في أنحاء البلاد ، ولا سيما طيبة ، فمن ذلك أنه أسس معبد الأقصر ، وزاد في معبد الكرنك ، ووصل ما بينهما بحديقة جميلة شيد بها طريقاً على طول كل جانب من جانبيه صف من أصنام أبي الهول جسم كل منها شبيه بجسم الأسد ، ورأسه شبيه برأس الكباش ، ولذلك يعرف هذا الطريق بطريق الكباش . ومن أجل مبانيه بمعبد الأقصر الدهليز ذو الأربعة عشر عموداً ، فان نخامته لا تزال ظاهرة الى الآن

وشن «أمنحتب» الغارات على اثيوبيا فكان نفوذه يمتد من «نباتا» الى نهر الفرات . وكانت ملوك اشور وبابل وقبرس يهابونه ، ويتوددون اليه . أما ولاته في الشام فكانوا على غاية الخضوع والامتثال لأوامره . وبالجملة لم يطرأ من الحوادث في عصره ما يحمله على إثارة ملاحم عظيمة . فتفرغ بكل قواه الى تنظيم المصالح الداخلية ، وارتقت في أيامه التجارة حتى تقدم التجارة وصلت الى حد لم تصل اليه من قبل ، فكانت تُجَبَّى الى مصر ثمرات جميع العالم المعروف إذ ذاك ، وأصبحت القوافل البرية وأساطيل البحر الأحمر تأتي اليها بالأخشاب النفيسة والعطرية وأنواع التوابل والأفاويه وما شاكلها من الشام ومن بلاد الشرق ، كما كانت تأتي اليها من فينيقية بالآلات الحربية والآنية المزخرفة . وكانت السفن الفينيقية في البحر الأبيض المتوسط واسطة في نقل البضائع بين مصر وقبرس وجميع جزائر بحر ايجة وقد وُجد في بلاد الإغريق وجزائرها بعض الآثار المصرية التي يرجع عهدها الى ذلك العصر . ونتج من معاملة سكان هذه البلاد

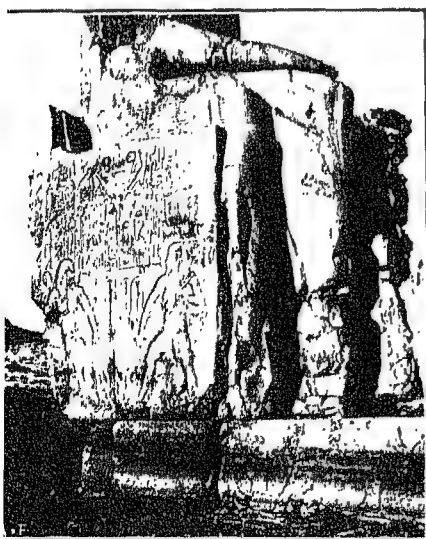
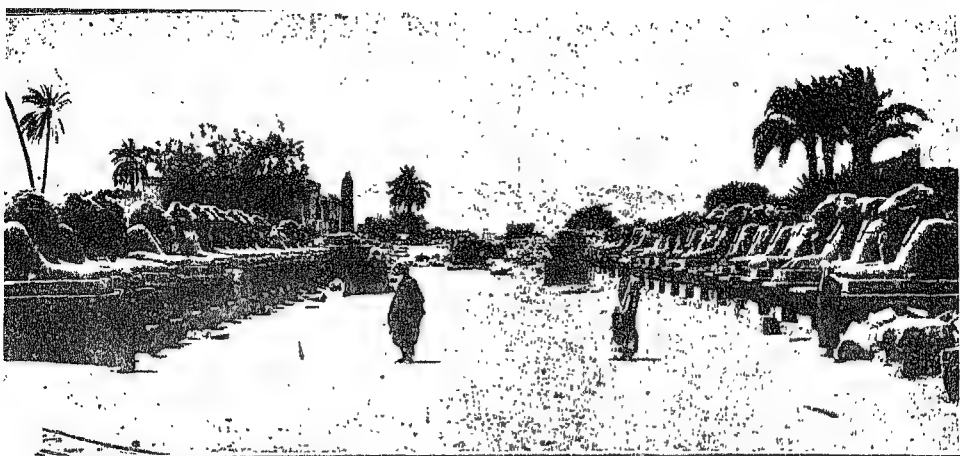
تأثير الحضارة
المصرية في غيرها

للمصريين ان أثرت الحضارة المصرية في حضارتهم بعض التأثير ، فظهر ذلك في محاکاتهم للمصريين في الرسم والتصوير

وفي زمنه ارتقى فن البناء والنقش والتصوير ، واتسعت مدينة طيبة عظمة المباني في عصر امنتب الثالث التماثل والوحدة ووُجد في عصره عدد عظيم من المهندسين ، منهم المهندس « أمنتب » الذي طار صيته في الآفاق ، حتى كان الإغريق بعد مماته بنحو ١٢٠٠ سنة يتجدونه تمجيداً وصل بهم الى أن وضعوا في صف الآلهة ومن المباني التي شيدها هذا الملك معبد له أقامه في الجهة الغربية من طيبة ، ولم يبق منه الآن سوى تماثيل هائلين له كان موضعها أمام مدخل المعبد ، يربو علو كل منهما على العشرين متراً ويُعرفان بتمثال « ممنون »* . وشيد له في الجهة الغربية قصرًا جنوبي المعبد ، حفر بالقرب منه بركة عظيمة لزوجته ، كانت تركب فيها قارباً كلما قصدت النزهة

قضى أمنتب ذلك الزمن العظيم ، ولم يعكر صفو السلم في بلاده قتل أو حروب . ولكن حدث في أواخر أيامه أن هوجمت الشام من جهتين ، فدخلها « الحثيون » من الشمال وأغار عليها من الصحراء الشرقية أقوام آخرون ساميون . وعند ذلك انشق ولاية الشام الى فريقين : فريق اتفق مع هؤلاء المغيرين ، وساعدهم على دخول البلاد ، وفريق بقي على الولاء لفرعون مصر فبادر باخباره بالخطر الذي يهدد دولته . ومات

* كانت تخرج من هذين التماثيل اصوات بديعة في الصباح . ولكن لما حاول الرومان ترميم التماثيل أيام حكمهم في مصر بطل خروج تلك الأصوات ولم يعد يسمع منها شيء



(١) طريق الكباش (رسم لكجيان) و (٢) تمثالاً ممنون و (٣) قاعدة احدهما و (٤) دهليز الاربعة عشر عموداً بالاقصر
(رسم محمد افندي على سعودى) وكلها من آثار المنحوت الثالث

« أمنتب » بعد أن حكم ٣٦ سنة ، ولم يتمكن من صد أعدائه
وكانت مصر في هذه الأزمة في أشد الحاجة الى رجل حازم قوى
يسهر على ما فيه صالح الدولة ، ويعمل على تماسك أجزائها ، ولكن الذى
خلف « أمنتب الثالث » هو ابنه « أمنتب الرابع » المعروف « إخناتون »
(١٣٧٥ — ١٣٥٨ ق. م) ، وكان شديد التغلغل فى العقائد الدينية ، كثير
التعمق فى الفلسفة الخيالية ، فانقطع لتحقيق مسائلها ، وتوفر على النظر فى
أصولها ، فشغله ذلك عن تدبير دولته ، وهاون فى صد الغزاة الذين أغاروا
على الشام قبيل توليه الملك . وما زال نفوذه فيها يتقاص شيئاً فشيئاً حتى
كاد يتلاشى بالمرّة عند وفاته فى سنة ١٣٥٨ ق م

شغل « إخناتون » طول حياته بالسعى وراء توحيد الديانة المصرية
وحمل الأمة على عبادة معبود واحد هو الشمس ، فان المصريين عبدوا الى
زمن حكمه عدة معبوات كان أعظمها عند توليه العرش هو « آمون » . وكان
أجلّ معبد لهذا المعبود بمدينة « طيبة » عاصمة البلاد . أدرك هذا الملك
خطأ تعدّد الآلهة ، واعتقد بوجود معبود واحد مسيطر على العالم بأسره ،
وقال انه هو الشمس التى تتوقف عليها حياة كل شىء ، وأطلق عليه اسم
« آتون » . ولشدة رغبته فى نشر مذهبه ونسخ ما عداه من المذاهب نقل
عاصمة البلاد من « طيبة » موطن عبادة « آمون » ، وبني له حاضرة جديدة
سمّاها « أخيتاتون » تقرّباً لمعبوده « آتون » ، وموقعها الآن « تل العمارنة »* .

* وجدت هنا الخطابات الأثرية الشهيرة المعروفة بخطابات « تل العمارنة »
وهى خطابات على قطع من الفخّار ومحرورة بخط بابل « المسامرى » تبودلت بين
أمنتب الثالث والرابع وبين ملوك بابل وقبرس وغيرها ، وهى من أهم الآثار التاريخية

ولما رأى ان اسم « امنحتب » مندمج فيه اسم « أمون » غير اسمه وسمي نفسه « إخناتون » ، ومعناه « روح أتون » . ثم عمل على محو النقوش من جميع الآثار القديمة التي عليها اسم « أمون » حتى التي نُقش عليها اسم والده واستغرقت هذه الأمور كل أوقات « إخناتون » فلم يدع وقتاً للتلفات لشؤون دولته فأخذت في الانحلال السريع ، فاستولى الحثيون على مدن سورية الشمالية ، وأغار غيرهم من الأمم السامية على أطرافها الجنوبية . كل ذلك بالطبع جعله مُبغضاً في نفوس الأمة على اختلاف طبقاتها ، فحنق عليه كهنة أمون لما لحقهم من الأذى ، وسخط عليه جنود والده لما رأوا من انحطاط الدولة على يديه ، ونفرت منه العامة لأنهم لا يرضون بغير دينهم بدلاً

توفي « إخناتون » سنة ١٣٥٨ ق . م خلفه بضعة ملوك من نسله حكموا مدداً قصيرة حاولوا فيها الاستمرار على نشر مذهبه ، ولكنهم لم يفلحوا . وبوفاة آخرهم سنة ١٣٥٠ ق . م أُعيدت الديانة القديمة الى أصلها ، وعبد الناس معبوداتهم الأولى . وقد اشتدت كراهة القوم لإخناتون من بعده حتى انهم لقبوه « بمجرم إخناتون » ، وأزالوا النقوش من جميع آثاره ، وأعادوا اسم « أمون » في كل مكان ، فركدت بذلك تلك العاصفة الدينية التي أثارها ، ولم يبقَ إلا إصلاح شؤون البلاد وجمع شتات الدولة وإعادة مجدها . وهذا ما عمل عليه ملوك الأسرة التاسعة عشرة كما سيأتي بيانه

﴿ الأسرة التاسعة عشرة ﴾

(١٣٥٠ — ١٢٠٥ ق.م)

بعد ان انقرض نسل « اخناتون » قبض على الملك رجل يدعى « حَرَمَحَب » (١٣٥٠ — ١٣١٥ ق.م) وكان فى أول أمره قائداً حربيّاً . ولما جلس على العرش وجّه عنايته لاصلاح ما نتج عن اهمال أسلافه ، فقام بكثير من الاصلاح الداخلى ، وبعث بعدة جيوش الى بعض الممالك المجاورة لمصر . ويعتده بعض المؤرخين المؤسس للأسرة التاسعة عشرة

وبوفاته جلس على سرير الملك « رَمْسِيس الأول » (١٣١٥ — ١٣١٤ ق.م) ولم تُعرف علاقته بحرمحَب ، بل يحسبه آخرون من المؤرخين المؤسس لهذه الأسرة . وقد تولى الملك وهو طاعن فى السن ، ولذلك لم يتمكن فى المدة القصيرة التى حكم فيها من القيام بكل ما فى نفسه من الآمال الكبيرة . وأهم أعماله انه بدأ تشييد ذلك البهو العظيم بمعبد الكرنك المعروف بهو الأعمدة نسبةً الى العمّد الهائلة المصفوفة به ، وهى التى بعظم حجمها ونخامتها جعلت هذا البهو من أنخر وأجمل الآثار المصرية

وبعد وفاته تولى الملك ابنه « سِمْتِى الأول » ، فبدأ أعماله باخضاع أهل البدو الذين أغاروا على فلسطين ، ثم استأنف المسير حتى وصل الى لبنان ، فخضع له الفينيقيون ، وأهدى اليه أمراء الشام شيئاً كثيراً من خشب الأرز . ثم واصل السير حتى التحم جيشه بالحِثيين . ولكن لثبوت قدمهم فى هذه الجهة اذ ذاك عقد محالفة مع ملكهم وبذلك انتهت حروبه . ولما عاد الى مصر وجّه عنايته فى السنة التاسعة من حكمه الى الأعمال

الداخلية ، فأصلح الطريق الموصل
لمناجم الذهب بصحراء النوبة الشرقية،
واستتم العمارة التي بدأها والده بمعبد
الكرنك ، وأصلح ما شوّهه الملك
« اخناتون » من المعابد والهياكل ،
وشيّده معبداً في « أيبُدوس » وناوُسا
في وادي مقابر الملوك ، وكلاهما أجمل
شئ في نوعهما سواء أكان ذلك
من جهة الهندسة أم الزخرف . ومما
ينسب إليه أنه حفر خليجاً يوصل



(سیتی الأول)

عن جثته المحنطة بدار الآثار المصرية
رسم ف . د . بيرز

البحرين الأبيض والأحمر مستمداً من فرع النيل الشرقي

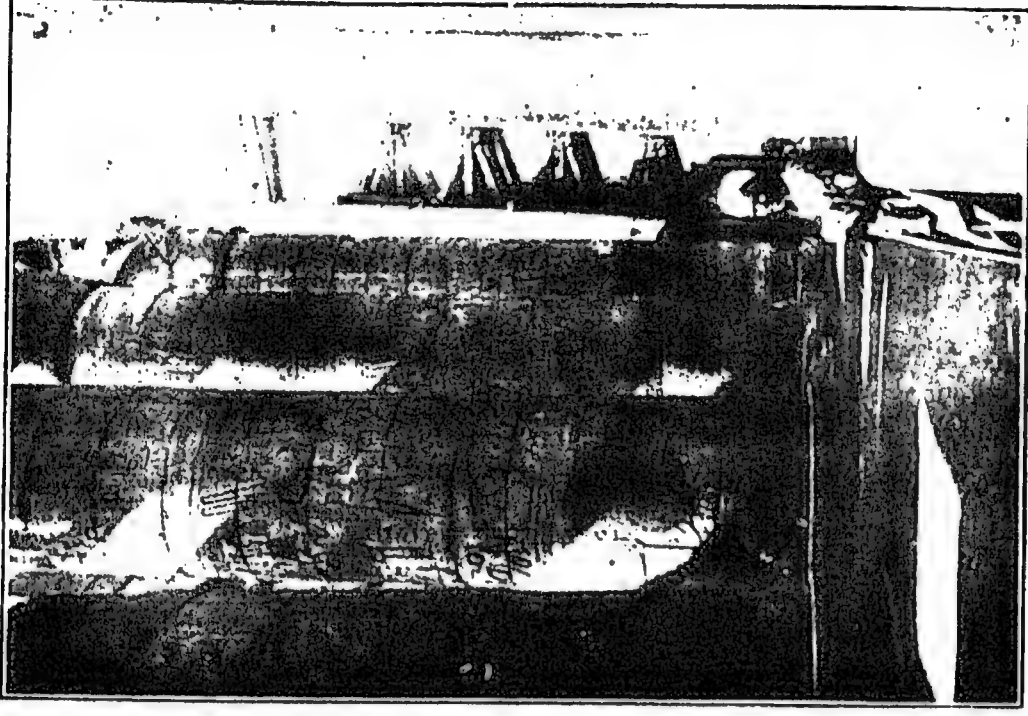
✽ رمسيس الثاني وحروبه ✽

(١٢٩٢ — ١٢٢٥ ق م)

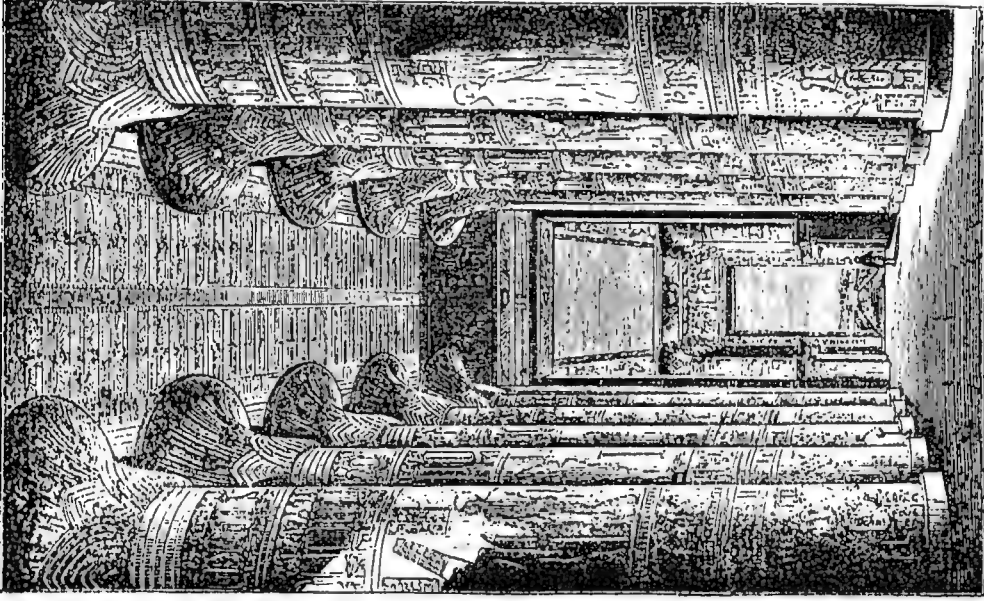
خلف «رمسيس الثاني» والدَه سیتی الأول وهو صغير السن . ويُعرف
أيضاً برمسيس الأكبر لما اكتسبه من الشهرة الفائقة التي جعلت كثيراً
من الناس يزعمون أنه أعظم ملوك مصر . والذي كوّن له هذه الشهرة
الكبيرة تلك المباني العديدة التي شيدها في جميع أنحاء البلاد ، ونقش عليها
أخبار حروبه وانتصاراته التي ظهر بعد أنه بلا شك مغال فيها

ادعاء رمسيس

ولم يكتفِ «رمسيس» بنقش اسمه على المباني الكثيرة التي شيدها
بنفسه ، بل كان يححو من كثير المباني التي شيدها الملوك السابقون أسماء



يهو الاعمدة العظيم بالكرك
(رسم محمد افندي علي حودو)



صورة خيالية ليهو الاعمدة في ايم روتقه

مشيديها وينقش عليها اسمه ، رغبةً في الشهرة وطمعاً في تخليد ذكره
في التاريخ

ولما تولى رمسيس الملك وجد أن الدولة العظيمة التي كوَّنها جدّه الأكبر
« تحتمس الثالث » محاطة بالأخطار، وأن الحثيين غلبوا على معظم الشام ،
فعزم على تجديد مجد مصر واسترداد ما فقدته من أملاكها ، فاتبع في
سياسته الحربية نفس الخطة التي اتبعها تحتمس الثالث ، وهي البدء
بالاستيلاء على الشواطئ ليكون له أنزال على البحر تسهل المواصلات بينه وبين
مصر . وفي السنة الرابعة من حكمه نفذ ما في عزمه فغزا هذه الجهات ،
ونقش على إحدى الصخور المطلة على نهر « الكلب » ما يدل على وصوله
إلى تلك البقعة

وفي أثناء ذلك كان ملك الحثيين يشتغل بجمع جيش عظيم من جميع
أنحاء الشام ليحارب به مصر ، واستمال لذلك جميع ملوك الشام الذين كانوا
أعداء لمصر في قديم الزمان ، فانضمت إليه ملوك « أرواد » و « قادش »
و « بلاد النهرين » و « حلب » وغيرها من الولايات السورية ، وضمَّ إليه
رجالاً من ولاياته التي في آسيا الصغرى . ولم يكتفِ بذلك بل استجلب
بمال خزائنه الجنود المرتزقة من آسيا الصغرى وجزائر البحر الأبيض . أما
رمسيس فلم يألُ جهداً في جمع جيش يضاهي جيش عدوه عدداً وعدداً ،
وألحق به الجنود المرتزقة من بلاد النوبة وسرْدَانِيَّة وقسمه إلى أربعة أقسام
جعل نفسه قائداً لأحدها . وسار في مقدمة الجيش فاصلاً به من مصر
في السنة الخامسة من حكمه أي حوالى سنة ١٢٨٨ ق. م . فأوردته بعد
شهر نهر « أورُنْت » (العاصي) ، وسار شمالاً متتبِعاً مجرى النهر حتى وصل

قادش الى التلّ المشرف على ذلك السهل العظيم الذى فيه «قادش» حيث نصب معسكره . فكثت فى هذا المكان عدة أيام ، وكانت طلائع جيشه تخبره كل يوم أنهم لم يقفوا للعدو على أثر . وعقب ذلك أتى الى المعسكر المصرى اثنان من أهل البدو وقالا : إنهما شردا من الجيوش الحثية ، وأن ملك الحثيين تقهر شمالاً الى حلب . فصدق ذلك رمسيس ، وقوّاه عنده ما أخبره به طلائعه من عدم رؤيتهم شيئاً يدل على أن العدو على مقربة منهم ، فنهض فى الحال ، وأخذ قسم الجيش الذى يقوده بنفسه ، وأسرع نحو قادش بعد أن أمر باقى الجيش أن يلحق به ، وعند ذلك اتضح أن ملك



(رمسيس الثانى فى مركبته الحربية)

قادش هو الذى أرسل ذينك البدوين ليغررا برمسيس . فلما رأى ان حيلته قد أفاحت غير وجهة سيره ، وفاجأ رمسيس على غير استمداد ، ففصل بينه وبين معظم جيشه . ولولا شجاعة رمسيس الذاتية التى أدهش بها الأعداء لقضت عليه فرق العجلات الحثية قضاء عاجلاً ، ولكنه تمكن بتلك الشجاعة النادرة من مقاومة الأعداء حتى تلاحقت به بقية

مهارة رمسيس
وشجاعته

جيوشه فنجبا من الخطر المحدث به ، وصدّ جيوش الأعداء . وبالرغم من ذلك كانت خسارته بلا شك أكبر من خسارة أعدائه . ولم يكد يفرغ من صدمهم حتى جمع ما بقي من جيشه وعاد الى مصر

رجع رمسيس الى مصر عقب هذه الواقعة توّا بدون أن يحاول محاصرة قادش . فأنّ ذلك في ولاية الشام وفلسطين ونزع من قلوبهم خشية فرعون ، فخرجوا عليه ، وامتدّ الخروج جنوباً حتى وصل حدود مصر

ولذلك ابتدأ بعدُ باسترجاع دولته الآسيوية من جديد ، ففقدى ثلاث سنوات في إخضاع فلسطين . وفي السنة الثامنة من حكمه سار بجيش جرار حتى وصل وادي الأورنت مرة أخرى . وهناك أوقع بالحشيين . ثمّ غزا « بلاد النهرين » ففتح جانباً عظيماً منها ، ونصب بهائماتاً له . ولم يلبث الحشيون أن أثاروا عليه أهل هذه الجهات مرة أخرى ، فقمعهم جميعاً وخضعت له بلاد النهرين وشمالى سورية وأرواد وبعض جهات من وادي الأورنت . ثم استمرّت الحروب بينه وبين الحشيين حتى كانت السنة الحادية والعشرون من حكمه . وكان ملك الحشيين قد توفى ، وخلفه أخوه ، فعقد محالفة مع رمسيس على أن يمسك عن الحرب ، وأن يكونا صديقين الى الأبد ، وحدّا في المحالفة حدود أملاكهما

عقد محالفة
مع الحشيين

وفي السنة الرابعة والثلاثين أى في سنة ١٢٥٠ ق. م. حضر ملك الحشيين الى مصر لمشاهدة عجائبها وزوّج إحدى بناته لرمسيس ومن وقتئذٍ لم يخض رمسيس ميدان القتال واكتفى في المناوشات الصغيرة التي نشبت بينه وبين اللوبيين وأهل النوبة بإرسال قوّاده للقيام بها ، وتفرّغ هو للأعمال الداخلية

أما النتيجة النهائية لحروب رمسيس فهي أنه استردَّ معظم أملاك مصر الآسيوية التي فتحها تحتمس الثالث ، ولم يفقد شيئاً من ممتلكاته في الجنوب ، بل بقيت حدود مصر ممتدة جنوباً الى « نباتا » بالقرب من الجنادل الرابعة ، وزاد نفوذ مصر في النوبة في أيامه

قلنا ان رمسيس شيد عدداً عظيماً من المباني في جميع أنحاء البلاد . وأهم ما قام به من ذلك انه أتم المعبد الذي بدأه والده بطيبة وبنى لنفسه هنالك معبداً جديلاً يعرف « بالرمسيوم » ، وأتم البهو ذا الأعمدة الذي بدأه جده رمسيس الأول بمعبد الكرنك

اهم المباني التي
شيدها رمسيس

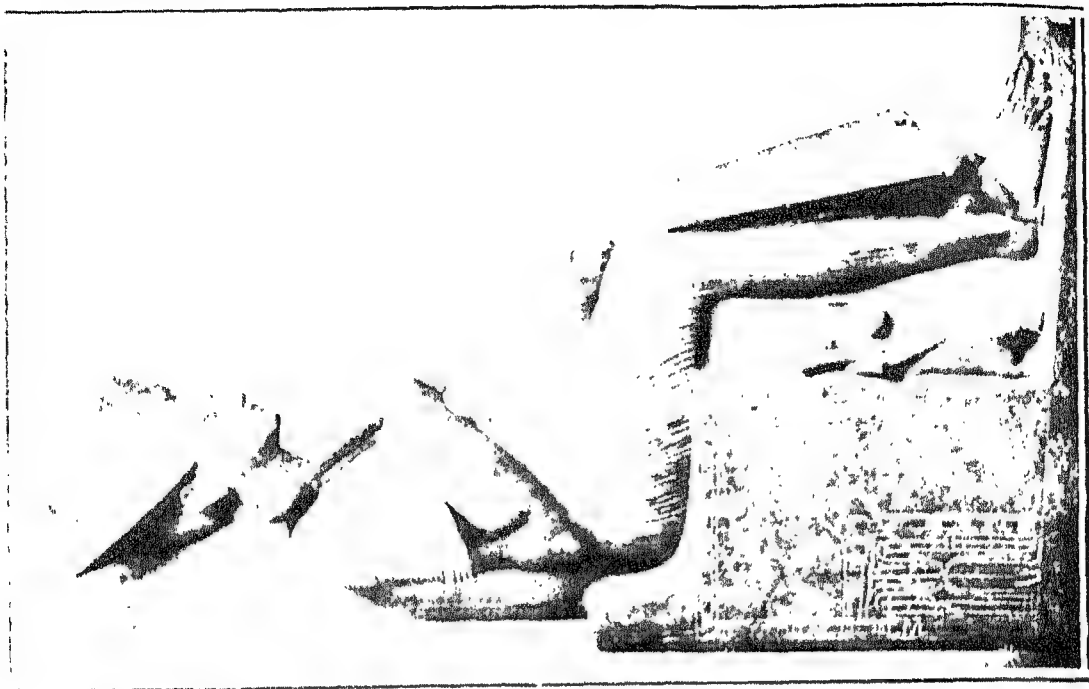
وقد أكثر رمسيس من اقامة المسلات وتزيين مبانيه بالتمثال ، ولا سيما تماثيله ذوات الحجوم الهائل التي من أهمها التمثال الذي أقامه بمدينة « تنيس » (صان) بالوجه البحري ، وكان علوه نحو ٢٧ متراً ووزنه نحو ٩٠٠ طن ،

والتمثال الذي ما زالت بقاياه بالرمسيوم وكان وزنه نحو ١٠٠٠ طن . وقد عثر حديثاً على تمثال له آخر هائل بالبدرشين ، وهو غاية في الجمال . وله تمثال من المحجب بدار عاديات « تورين » بايطاليا لايزل حافظاً لروقه الى الآن ولما كان هم رمسيس تدير أملاكه الكثيرة في آسيا نقل مقر ملكه الى مصر السفلى . وبقيت « طيبة » العاصمة الدينية للبلاد . وكثيراً ما

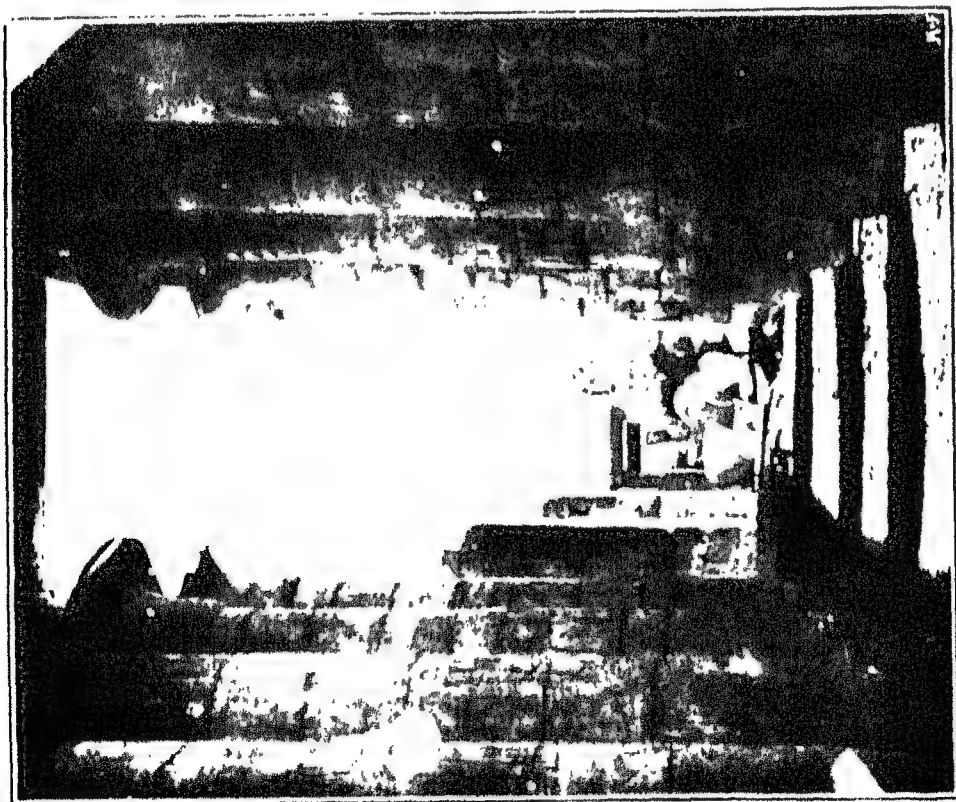


(رمسيس الثاني)
عن جثته المحنطة بدار الآثار المصرية
رسم ف . د . د . بيرز

تمثال رمسيس الثاني (بدار آثر تورين)



الرسم (زسم الكيجيان)



كان يذهب اليها . وبانتقاله الى الوجه البحرى أرجع الى كثير من بلاده روتقها القديم ، فصارت « تنيس » مدينة عظيمة زاهرة ، وشيد بها معبداً من أنحر المعابد . وشيد رمسيس بلداناً جديدة بالوجه البحرى ، منها بلدة فى شمالى عين شمس تعرف آثارها الآن « بَتْلَ الْيَهُودِيَّة »

ومات بعد أن حكم ٦٧ سنة . وقد بلغ اعجاب خلفه به مبلغاً كبيراً جداً ، حتى ان عشرة منهم سمو أنفسهم باسمه على التوالى

الفصل السابع

ابتداء اضمحلال مصر

فقد المصريون بالتدريج بعد عصر « رمسيس الثانى » تلك المأسكة الحرية التى رُيت فيهم منذ أيام « تحتمس الثالث » وغيره من مؤسسى الدولة الحديثة . فاضطُر الملوك فى الدفاع عن بلادهم الى استخدام الجنود المرتزقة والأجراء من الأجانب (وذلك من بواذر الانحلال فى الأمم) ، واقتصروا على خطة الدفاع بعد ان كانت مأرب الذين من قبلهم توسيع نطاق الدولة وبسط نفوذها على غيرها من البلدان . ويا ليتهم تمكنوا من مجرد المحافظة عليها ، فقد عملت على ضعف نفوذ الملك عدة عوامل بعضها داخلية وبعضها خارجية أفضت الى وهن الدولة ذاتها . فمن العوامل الداخلية ان الكهنة أخذوا يبتزون شطراً عظيماً من الثروة ، وقبضوا على جانب كبير من السلطة ، كما قبضت الجنود المرتزقة على جانب آخر . ومن العوامل الخارجية ان البلاد المجاورة لمصر نمت وازداد عدد سكانها ، فعمدوا الى

فتح بلاد جديدة ينتعون فيها الرزق ، فانهالت الغارات على مصر من كل جانب ، فهاجمها اللوبيون من الغرب ، وزحف عليها سكان جزائر البحر الأبيض من الشمال ومن الشرق أيضاً عن طريق الشام . وظهر في هذا العصر ملك قوى يدعى « رمسيس الثالث » قضى حياته في رد هؤلاء الأعداء . ولما أن توفي لم يقدر أخلافه من الملوك الضعفاء على صدمهم ، فهوت الدولة الى حضيض الاضمحلال بعد أن بلغت من المجد درجة لم تبلغها أمة من قبل

خلف رمسيس الثاني ابنه « منفتاح » فخارب حروباً كثيرة لحماية الملك ، فأطفاً نيران الثورة في فلسطين وسورية بعد أن صد هجمات اللوبيين الذين اتفقوا مع سكان بعض جزر البحر الأبيض وهاجموا مصر من الغرب ، فردّهم على أعقابهم ، وغنم منهم غنائم كثيرة ، وأسر عدداً كبيراً من رجالهم

منفتاح

وكان « منفتاح » مولعاً بالمباني ، ولم يكتفِ بما أمكنه تشييده ، بل فعل ما فعله أبوه من قبله ، اذ كان يحجوا أسماء الملوك من الآثار التي شيدها وينقش اسمه مكانها . وقد فعل ذلك بكثير من آثار والده نفسه ، فكان أباه قد لاقى جزاءه على يد ولده . وقد قيل ان « منفتاح » هذا هو فرعون موسى ، وأنه الذي خرج في عهده بنو اسرائيل من مصر ، غير ان ذلك ما زال مفتقراً الى اثبات

وحكم بعد منفتاح « سبتى الثاني » ، ولم يتم في أيامه شيء عظيم . وحدث بعده نزاع كبير في شأن من يخلفه أفضى الى تقسم السلطة بين الأشراف وعمال النواحي ، وكثرت الفوضى والمجاعات ، وجلس على سرير

الملك عدة أشخاص حكم أحدهم بعد الآخر مدداً وجيزة . فانتهم اللوبيون هذه الفرصة وزحفوا على الوجه البحرى مرة أخرى ، الى ان استولى على المائت رجل قوى يدعى « سِتْنِيخت » ، فاستأصلهم من مصر وأعاد السكينة فى البلاد ، غير انه توفى بعد سنة أو سنتين ، خلفه ابنه « رمسيس الثالث » الذى هو فى اعتبار أكثر المؤرخين أول ملوك الأسرة العشرين

تولى « رمسيس الثالث » والدولة تهددها الأخطار من كل جانب ، رمسيس الثالث وحروبه
فتمكن بجده وشدة بأسه من حفظها من الخطر وإعادة جانب كبير من مجدها

وكان يقطن جزائر البحر الأبيض فى ذلك العهد أقوام يسميهم المصريون « سكان البحر » أخذوا يفتدون على مصر السفلى من « أقريطش » (كريت) و « صقلية » وغيرهما ، ثم تحالفوا مع اللوبيين على غزو الوجه البحرى . وكان « رمسيس » قد نظم الجيش وعززه بالأشداء من الجنود المرتزقة ، فسار اليهم فى السنة الخامسة من حكمه ، وهزمهم شرّ هزيمة فى البر والبحر وكان قوم آخرون من « سكان البحر » قد زحفوا على الشام بعجلاتهم الحربية ومعهم نساؤهم وأولادهم وبضائعهم وماشيتهم ، كأنهم ينوون الإقامة فيها ، ووصلوا فى فتوحهم الى نهر الفرات بعد أن اضطلموا الحثيين وخربوا بلادهم . ثم همّوا بالزحف على مصر . فقاد رمسيس جيشاً وأسطولاً فى السنة الثامنة من حكمه ، وسار لملاقاتهم ، فهزمهم برّاً على نهر « العاصى » وبحراً على الشواطىء الفينيقية . فغضبوا له ودفعوا اليه الجزية ، ولم يحاولوا الخروج عليه بعد ذلك قط

وفى السنة الحادية عشرة من حكمه أغار اللوبيون على شمالي مصر

من الغرب، وكان بعض قبائل المغرب قد أجلاهم إليها، فردّهم «رمسيس» على أعقابهم بعد أن ألحق بهم خسائر كبيرة، ولم يحاولوا بعد ذلك غزو مصر وإن كانوا لم يمسكوا عن القدوم إليها طلباً للرزق بالخدمة في الجيش وغير ذلك

وفي السنة الثالثة عشرة من حكمه ذهب «رمسيس» ثانية إلى بلاد الشام ليتم إخضاع تلك الجهات. ثم نظّم ممالكه الآسيوية وحصّن حدودها^(١). وبذلك عادت السكينة إلى بلاد الدولة. ثم استراح بعد هذه الحروب الأربع والتفت إلى شؤون بلاده الداخلية

رمسيس الثالث
والكهنة

ولم يكن «رمسيس الثالث» حاكماً داهياً بقدر ما كان قائداً حربياً محنكاً، فقد كان للكهنة نفوذ كبير عليه، فوهب للمعابد كثيراً من الثروة والأراضي فوق الكثير الذي حازوه بالتدريج من قبله، حتى أصبحت ممتلكاتهم في أيامه تقدّر بنحو ١٥٪ من مجموع الأراضي المصرية، ولم تقل مواليتهم عن ٢٪ من عدد سكان مصر، وكان لهم ١٦٩ مدينة في مصر وسورية وبلاد الكوش. وكان أعظم هؤلاء الكهنة ثروة كهنة «أمون» بمدينة «طيبة»، فقد كان لهم ما لا يقل عن ثلثي ما لمجموع الكهنة. وقد ساعدتهم ذلك في عهد الملوك الضعفاء الذين خلفوا «رمسيس الثالث» على ابتزاز كثير من السلطة السياسية، حتى انتهى بهم الأمر إلى تكوين أسرة ملكية منهم. وسنأتي على بيان ذلك فيما بعد^(٢)

أدّى ازدياد قوة الكهنة بالطبع إلى اضمحلال قوة الملوك. فاستعانوا

(١) الراجح أنها لم تمتد شمالاً وراء نهر العاصي

(٢) قارن ذلك بحالة كهنة «رع» في الدولة القديمة

على ذلك بالاكتثار من الجنود المأجورة . وقد كان هؤلاء الجند والكهنة سبباً في كثير من الحروب التي نشبت بعد في مصر

﴿ اشتراك الكهنة وامراء تنيس في الملك ﴾

(١٠٩٠ — ٩٤٥ ق م)

ضعف نفوذ الملك في أيام رمسيس الثاني عشر حتى ان « سمنديس » أحد أمراء « تنيس » تمكن من الاستيلاء على جميع مصر الشمالية ، وجعل نفسه ملكاً عليها فكان بذلك مؤسس الاسرة الحادية والعشرين فلم يسع « رمسيس الثاني عشر » الا أن يتراجع الى « طيبة » . ولازدياد قوة الكهنة هنالك لم يكن له من الأمر سوى صبغة رسمية . ولما انتهت أيامه خلفه رئيس الكهنة « حرحور » ملكاً على الصعيد . وكان ذلك سنة ١٠٩٠ ق م . وفي هذه الأيام كانت مصر قد فقدت نفوذها في مستعمراتها سوى بلاد النوبة ، حتى ان « حرحور » عند ما أرسل مندوباً الى بلاد لبنان ليحضر شيئاً من خشب الأرز لم يعامل المندوب معاملة حسنة في الطريق ، ولما قابل أمير الجهة التي أرسل اليها امتنع عن اعطائه الخشب ، ثم قبل اعطاءه اياه على شرط أن يأتيه ببعض الهدايا النفيسة من مصر

المحافظة على
جثث الملوك

وكان ملوك « تنيس » في هذه الأيام يعترفون بزعامة رئيس الكهنة بطيبة . وقد تزوج منهم من خلفوا « حرحور » ، فتمكنوا من الحصول على الالقاب الملكية ، وبعضهم تمكن من الاستيلاء على جميع مصر . وكان من أهم شواغل هذه الاسرة المحافظة على جثث ملوك مصر الاقدمين

لما رأوه من عبث نباشى القبور بها . ولما ان أعيتهم الحيلة فى نقاتهم من مقبرة الى اخرى وضعوها فى مكان خفى بالقرب من معبد « الدير البحرى » وهناك بقيت نحو ثلاثة آلاف من السنين بدون أن تصل اليها يد السرقة ، حتى جاءت نهضة البحث عن الآثار القديمة فى عصرنا ، فكشفت مكانها وانتهى الأمر بنقلها الى دار العاديات المصرية بالقاهرة حيث هى الآن

✽ حكم اللوبيين فى مصر ✽

(٩٤٥ — ٧١٢ ق . م)

قضى المصريون فى عصر اضمحلالهم زمناً طويلاً وهم يستخدمون فى جيشهم جنود اللوبيين . وكان قادة هؤلاء الجنود من بنى جنسهم فاستوطنوا المدن الكبيرة ، وصيروا لهم مالأً وعتاداً ، فى حين كان الحكام الوطنيون يضعف شأنهم يوماً فيوماً . وما زال اللوبيون يزدادون قوة وهؤلاء ضعفاً حتى قام « شِشْنُق الأول » (شيشاق) أحد قواد الجند اللوبيين المأجورين ، وقبض على زمام الملك فأسس بذلك الأسرة الثانية والعشرين سنة ٩٤٥ ق م . وكان مقر حكومته « بُوْبَسْطَة » (تل بَسْطَة) بشرقى مصر السفلى . وفى أيامه انتعشت مصر بعض الشيء . وعاد لها بعض نفوذها فى فلسطين . ولكن ملوك هذه الأسرة لم يستطيعوا ادخال القواد الآخرين فى طاعتهم ، فإنَّ هؤلاء كَوْنُوا لهم عصبية فى أكبر بلاد الشمال . وآل الأمر بالتدريج الى وجود ولايات عديدة بمصر يحارب بعضها بعضاً على الدوام . وما زالت الامة على هذه الحالة ، تئن تحت عبء

الخلل والفوضى وغلبة المغيرين من النوبة وغيرهم حتى انتهى العهد اللوبى ،
وانقضت أيام الأسرة الثانية والعشرين والثالثة والعشرين والرابعة والعشرين

﴿ إغارة الإتيوبيين والأشوريين ﴾

(٧٢٢ — ٦٦١ ق.م)

تمّ للمصريين فى أيام الدولة الحديثة غزو بلاد النوبة الشمالية غزواً
كاملاً حتى ان سكّان تلك الجهات تمصّروا ، بل وُجد بينهم كثير من
السلال المصرية . وما زالوا يرتقون ويتنورون حتى شعروا بحقوقهم ،
وأحسوا بأنهم مساوون خيرات بلادهم العظيمة وذهبها الكثير . فبقوا
يتدرّجون فى مراقي الرقى الى ان استقلوا بالملك ، وكوّنوا لأنفسهم مملكة
قائمة بذاتها ، مقرّها « نباتا » بالقرب من الجنادل الرابعة . وعند ذلك ظهر
ملكهم بجميع مظاهر الفراعنة المصريين ، وشيد المباني ونقش النقوش
على الطراز المصرى . ثم استفحل أمرهم واستطار فجرهم ، فتمكن فى
سنة ٧٢١ ق.م . « بعنخي » أحد ملوكهم من الاستيلاء على الصعيد
الى هرقلؤ بوايس بجنوبى الفيوم . وفى أثناء ذلك كان ملوك الأسرة الثالثة
والعشرين يزدادون فى الضعف فلم يبق للملك (أسركون الثالث)
سوى منطقة « بسطة » . وكان فى كل مدينة كبيرة من مدن الوجه البحرى
أمير ينازعه فى السلطة . فظهر من بين هؤلاء الأمراء رجل قوى يدعى
(تونخت) ، وهو أمير « سايس » (صا الحجر) * . فأخضع جميع الأمراء
المجاورين له فى الجزء الغربى من مصر السفلى ، ثم أغار على الصعيد حتى

☆ بين طنطا وكفر الزيات

استولى على مدينة «هَرْمُوبُوليس»^(١). وعند ذلك أرسل إليه «بَعْنَحِي» جيشاً أرجعه الى أرضه. ثم شرع بعنحى فى الزحف على الشمال فنزل على منف واستولى عليها بعد عناء كبير فى البر والبحر. وعند ذلك جاء إليه ملوك المقاطعات المختلفة، وأظهروا له الطاعة، ومن بينهم «أُسْرُكون الثالث» المنتهى الى الأسرة الثالثة والعشرين والذى لم تزد مكانته إذ ذلك عن مكانة غيره من الأمراء. أما «تونخت» فامتنع أولاً عن تقديم الطاعة، ولكنه قبل ذلك أخيراً وأصبح الحاكم على جميع مصر فرعوناً نوياً. وبعد أن جلا «بعنحى» يحيوشه عن مصر وعاد الى نباتا عاصمة دولته ثار «بُخُوريس» بن تونخت أمير صا الحجر، فجمع السلطة فى يده نازعاً ما بقى من الرمق فى الأسرة الثالثة والعشرين. واستولى على سرير ملك مصر السفلى حوالى سنة ٧١٨ ق. م. وقد اعتُبر «بُخُوريس» مؤسساً للأسرة الرابعة والعشرين، وان لم يعلم لها ملك غيره. وبعد جلاء بعنحى من مصر بنحو عشر سنين ظهرت سلطة النوبة فى الشمال مرة ثانية، إذ قام «سَبَاكُون» أخو بعنحى وخليفته، وثبت قدم النوبيين فى مصر، فبدأ بذلك عصرًا حكم فيه الملوك النوبيون بدون انقطاع، وبهذا اعتُبر مؤسساً للأسرة الإثيوبية أو الأسرة الخامسة والعشرين

استيلاء النوبيين
على مصر

✽ إغارة الآشوريين^(٢) ✽

كان الآشوريون فى هذه المدة قد قوى شوكتهم، وامتدت فتوحهم فاستولوا على الشام وفلسطين، وأصبحت حدود مصر مهددة

دولة الاشوريين

(١) بالقرب من مدينة المنية الحالية (٢) ويقال لهم «الأنثوريون» أيضاً

باغارتهم . فلما أدرك « سَبَاكُون » هذا الخطر أوعز الى ملوك الشام بالخروج عن طاعة الآشوريين ، فتمكن « سَرْجُون » ملك « آشور » في ذلك الوقت من اخماد الثورة في الشام وبابل والجزء الشمالى من دولته . وتوفى بعد أن ترك لابنه « سَنَحَارِب » في سنة ٧٠٥ ق . م دولةً من اكبر الدول السامية التى ظهرت فى التاريخ

استيلاء
الاشوريين
على مصر

ومن ذلك الوقت حدثت عدة معارك بين المصريين والآشوريين بسبب مساعدة مصر لثوار الشام الى ان كانت سنة ٦٧٠ ق . م . فدخل مصر « آشور آخى الدين » ملك آشور بجيش قوى منظم ساقه حتى أناخ به على منف واستولى عليها . ففرّ « طَهْرَاقَة » الملك الاثيوبى فى ذلك الوقت وتمّ استيلاء الآشوريين على مصر . ونصب « آشور آخى الدين » ولايةً وطنيين على أقاليم مصر المختلفة ، أعظمهم « نَحَاو » وهو من نسل تونخت ، وجعل فوقهم والياً آشورياً وعاد الى بلاده

فلم يلبث « طهراقَة » ان رجع من الجنوب وجمع حوله جيشاً عظيماً أباد به الحامية الآشورية . فأعدّ الآشوريون حملة أخرى دخلت مصر فى أيام ملكهم « آشور بانيبال » ففرّ « طهراقَة » الى طيبة ، واكتفى بتولى حكم الصعيد . ثم خلفه بعد وفاته ابن أخيه (تَنْدَمَان) ، فقبول بترحاب فى أعلى الصعيد ، ثم استولى كذلك على « منف » الى ان أخرجه حوالى سنة ٦٦٠ ق . م آشور بانيبال من مصر السفلى وتبعه الى الصعيد حتى مدينة طيبة فدمرها . فكانت هذه آخر قوة كبيرة أرسلها الآشوريون الى مصر

الفصل الثامن

النهضة المصرية

(٦٦٠ - ٥٢٥ ق . م)

الاسرة السادسة
والمشرون

لما توفي «نخاو» أمير صا الحجر ومنف خلفه ابنه «إِسْمَتِيك الأول» (٦٦٣ - ٦٠٩ ق . م) والياً على أملاك والده تحت إشراف الآشوريين . فلما رأى أن دولة آشور مشغولة بإخماد الثورات وتذليل البلاد المجاورة الخارجة عليها ، مثل « بابل » و « عيلام » ، وبلاد العرب ، وأنها آخذة في الاضمحلال ، شرع في تقوية سلطانه ، واستعان بملك « ليديا » (بآسيا الصغرى) على التخلص من حكم الآشوريين . ثم تغلب على باقي الأمراء المصريين فكان بذلك مؤسس الأسرة السادسة والعشرين

ابستيك الاول

ويعتبر « إسمتيك » من أقوى فراعنة مصر وأعظمهم . ففي أيامه نهضت مصر من سباتها ، وتخلصت من الضعف الذى لحقها من الفتن الداخلية والغارات الآشورية . إلا أنها لم تكن في أيام هذه النهضة كما كانت في النهضات السالفة . إذ أصبحت الأمة في ذلك الوقت عديمة الميل للاشتغال بالأمور الحربية . ولم تولد فيها الغزوات الأخيرة حباً للحرب كما ولدت ذلك فيها غزوة الرعاة . ولذلك أدرك إسمتيك أن لا حيلة له في تحقيق أمنيته وإرجاع مجد آبائه العظام الى بلاده إلا بالاستعانة بالجند المرتزقة فكون جيوشاً من الأشداء معظمهم من بلاد الإغريق القديمة وجزر

الضرورة التى
دعت الى
استخدام الجند
المأجورة في عهد
ابستيك

البحر الأبيض . وما فتئ يستعين بهم حتى أمن إغارة الأشوريين واستولى على بعض جهات فلسطين

أراد إيسميتك أن يعيد للبلاد مجدها ، غير أنه لم يقتصر على إحياء الحضارة القديمة بأنواعها ، بل عمل على الانتفاع بحضارة الأمم التي أخذت في الظهور ، وأربت على المصريين في الابتكار والابتداع . فظهرت في الفنون والصنائع دقة لم تعرف من قبل ، وزال من الرسم والتصوير تلك الرموز والقيود الرسمية التي كانت تذهب في الأزمنة الأولى بكثير من رونق الصور وروعها

﴿ استيطان الأغريق الأوائل في مصر ﴾

رأى إيسميتك ضرورة الاختلاط بالأمم البحرية النازلة على شواطئ البحر الأبيض ممن ارتقت حضارتهم ، واتسعت تجارتهم ، وراجت صناعاتهم ، ولذلك جعل مقره مدينة « سايس » (صا الحجر) بشمال مصر وسهل لهم التجارة في بلاده ، فأصبح الوجه البحري مورداً ترد إليه التجار من البلاد الفينيقية والسورية وخاصة الإغريقية

وقد ذكرنا فيما تقدم أن « سكان البحر » الذين منهم الإغريق كانوا يردون إلى مصر منذ القرن الثامن ق . م ولكن مجيئهم إذ ذاك لم يكن بهذه الكثرة ولم يقابل بذلك الترحاب الذي قوبل به في عصر إيسميتك وفي هذا الوقت كان الإغريق آخذين في الانتشار والاستعمار . فبعد أن ملكوا شبه الجزيرة الإغريقية وجزر الأرخبيل نزلوا في عدة أماكن على شواطئ البحر الأبيض . وكانوا كلما حلوا يجهة أوجدوا بها حركة تجارية

ورود الإغريق
إلى مصر في زمن
إيسميتك

وشيدوا المعامل الصناعية . فرأى إيسميتيك أن مجيئهم الى بلاده واستيطانهم بها مما يفيد البلاد ، فرحب بهم ومنحهم أراضى يقيمون بها بالقرب من « بسطة » ، وكان لهم أيضاً بمنف حتى خاص بهم ، فاستوطنوا بمصر ونشروا فيها تجارتهم وشيدوا مصانعهم . فهذا العدد العظيم ، مضافاً اليه جند الإغريق المأجورون بالجيش ، لم يخلُ أمرهم من التأثير فى حالة البلاد . غير أن تأثيرهم الأكبر كان فى الملوك لا فى الأمة ذاتها ، وذلك لشدة تعصبها وتمسكها بمجد أجدادها السالفين . وقد بلغت شوكة الإغريق فى مصر درجة كادت تضعف سلطان الملك . على أن المصريين أنفسهم كان لهم تأثير محسوس فى الإغريق ، فقد نقل هؤلاء عنهم شيئاً كبيراً من أصول التصوير وعمل التماثيل ، كما نقلوا كثيراً من علمهم وفلسفتهم ولا سيما ما يختص بالإلهيات

تأثير الإغريق
فى مصر

ازدياد شوكة
الإغريق فى مصر

تأثير مصر فى
الحضارة
الأغريقية

بعد أن توفى إيسميتيك خلفه ابنه « نِخاو » (٦٠٩ - ٥٩٣ ق م) فتبع خطة أبيه فى السعى وراء استرجاع مجد مصر لاسترداد الممالك التى كانت لها فى أيام تحتمس الثالث ورمسيس الثانى ، فاستمر فى ادخال الإغريق فى مصر وترقية الفنون والصنائع ، وزاد كثيراً فى عدد الجيش ، وبنى اسطولاً حربياً للبحر الأبيض ، وآخر للبحر الأحمر . وفى أول سنة من توليته شرع فى استرداد ممتلكات مصر فى سورية . ولما كانت دولة الأشوريين اذ ذاك فى أقصى درجات الضعف والاضمحلال تمكن من غزو جميع سورية واسترداد جميع الأملاك الآسيوية التى امتلكها اجداده من قبل . ولكن من سوء الحظ لم تبق هذه البلاد فى يده طويلاً ،

النهضة المصرية فى
عهد الأسرة
السادسة
والعشرين

وفي أقل من سنتين تمكن البابليون والميديون* من التغلب على دولة
اشور واقتسام أملاكها فكانت سورية من نصيب « نَبُو بُلَّصَّار »
ملك البابليين ووالد « نَبُوخَذْنَصَّر » (بختنصر) المشهور ، فأرسل ابنه
يحيش لمحاربة نخاو فهزم المصريين بجهة « قرقيش » (٦٠٥ ق م) ، ولولا
رجوع « بختنصر » قائد الجيوش البابلية الى بلادده بسبب وفاة والده لدخل
البابليون الديار المصرية . ومن بعد هذه الواقعة لم يحاول « نخاو »
استرداد الأراضي الآسيوية وتفرغ للإصلاحات الداخلية

ومن أعماله انه شرع في كرى الخليج الموصل بين البحرين الأبيض
والأحمر عن طريق فرع النيل الشرقى الذى انشأه سیتی الأول ورمسيس
الثانى ولكنه لم يتمكن من اتمام عمله

ومن أعماله أيضاً أنه أرسل عدداً من الملاحين الفينيقيين للطواف
حول إفريقيا ، فأتوا السياحة في ثلاث سنوات

وبعد وفاته خلفه « إسمتيك الثانى » ، ولا يعلم عن أيامه شئ هام
سوى انه غزا بلاد النوبة حتى بلغ الجنادل الثانية ، ولم يكن لذلك
نتيجة باقية

ثم خلفه « أبريس » (وهو فرعون المعروف على الآثار باسم حفرع) .
وهذا الملك ورث عن أجداده الشجاعة وعلو الهمة وحب الفنون الجميلة ،
وقد شيد بمدينة « سايس » معبداً من أجمل المعابد ونصب أمامه عدداً من
التمائيل الضخمة وأصنام أبى الهول . وفي أول حكمه اشترك في غارة على
البابليين لم يحن من ورائها ثمرة سوى الاستيلاء على بعض المدن الفينيقية ، وفي

أواخر أيامه أرسل قوّة لمساعدة اللويين على الإغريق المستعمرين لمقاطعة «فيرينقيا» بشمال إفريقية (برقة)، ولم يرسل طبعاً في هذه الحملة أحداً من الإغريق المأجورين، فانهزمت الجنود الوطنية شرهزيمة واختاروا «أحمس الثاني» ملكاً للبلاد بالرغم من مقاومة جند «ابريس» اليونانيين ولما تولى «أحمس الثاني» سنة ٥٦٩ ق. م لم يحنق على الجند اليونانية بل تقاهم الى منف وجعلهم حرساً له. ثم عضد الحركة التجارية وأباح لتجار الإغريق الاستيطان بمدينة «تُقراطيس» (نُقراش)، فكانت بمثابة مستعمرة لهم، ومنها انتشروا في جميع أنحاء مصر واتجروا مع المدن التي على شواطئ البحر الأبيض

استيطان
الإغريق بمدينة
تُقراطيس

وكان في أول أيامه على خلاف مع البابليين، فأصلح ما بينه وبينهم، واتفق معهم ومع الليديين وغيرهم من الأمم الغربية (٥٤٧ ق. م) على مقاومة دولة «فارس» التي ابتدأت فتوحها إذ ذاك تمتد شرقاً وغرباً، ولكن اتفاقهم لم يفلح فأسقط «كورش» ملك الفرس دولة بابل، وغلب الميديون على أمرهم. ولولا أن أحمس لحقته المنية في سنة ٥٢٥ ق. م. لرأى بعينه الجيوش الفارسية تفرع أبواب بلاده

وكان أحمس من أحزم ملوك مصر وأكثرهم نشاطاً، وفي أيامه استولى المصريون على جزيرة قبرس فدفعت لهم الجزية، وكانت البلاد في عهده في رقيّ ونعيم حتى قال هيرودوت انه كان بمصر وقتئذ ٢٠,٠٠٠ مدينة ومن أعماله أنه نقّح القوانين المصرية، ولما حضر «صُولون» المشرّع الإغريق الى مصر في تلك الأيام اختار بعض تلك القوانين وعمل بمقتضاها في «أثينا»

عصر
أحمس الثاني

الفصل التاسع

الفرس وفتحهم لمصر

﴿ تمهيد ﴾

الفرس أمة شرقية ذات حضارة قديمة استوطنت «إيران» وأنشأت
بها دولاً في زمن غير معروف ، وأول ما عرف من أمرهم يقيناً أنهم كانوا
خاضعين لسلطان «الميديين» ، وهم أمة قريبة منهم جداً في الجنسية كانت
تمتد بلادهم شمالي بلاد الفرس وغربيها ويحدها من الشمال الشاطئ الجنوبي
لبحر «قزوين» . غير أنه في أواسط القرن السادس قبل الميلاد (٥٥٠ ق. م)
قام من بين الفرس رجل يدعى «كورش» تغلب على ملك الميديين وأسس
دولة الفرس المعلومة التاريخ . ومن يوم انتصاره انتقلت العظمة والسلطان
من الميديين الى الفرس

وبعد ان استولى «كورش» على «ميديا» أخذ في بسط سلطانه
على ما جاوره من البلاد ، وما زال كذلك حتى وصلت فتوحه الى أبواب
بلاد «الليديين» . والليديون هم أمة كانت تشغل جزءاً كبيراً من آسيا
الصغرى ، وكانوا على جانب عظيم من الحضارة والتقدم ولهم شهرة فائقة
في الصنائع والموسيقى والتنعم والبذخ ، وملكهم «كريسوس» (قارون)
صيت هائل في الغنى ، حتى ليضرب به المثل في ذلك . فلاقى كورش صعوبة
كبيرة في التغلب عليهم ولكنه تمكن بعد من ذلك بفضل قوته ومهارته

منشأ الفرس

الميديون

الليديون

استيلاء الفرس
على ليديا

الحرية، فانضمت ليدياً أيضاً الى بلاد الدولة الفارسية سنة ٥٤٦ ق. م
وفي سنة ٥٣٨ ق. م تغلب على البابليين وضم بلادهم الى دولته، وما
زال يوسع نطاق هذه الدولة العظيمة حتى صارت تمتد من شواطئ
« البسفور » غرباً الى نهر « السند » شرقاً. وقد لُقِبَ كورش « بالأكبر »
و « بمؤسس الدولة الفارسية العظيمة » لهذه الأعمال العظيمة التي قام بها
وتولى الملك بعده ابنه « قمبيز ». ومن بعده « دارا الأول » وكان
أيضاً ملكاً عظيماً، فقام بتتيميم ما بدأه « كورش » فوطد السكينة في البلاد
واستولى على « البنجاب » في الهند وعلى بعض البلاد التي شمالي بلاد
الإغريق

ثم تولى بعده « إيجزيسيس » (أَرْتَحْشِشَا) ومن بعده بفترة قصيرة
« أَرْتَحْزِيسِيس الأول » (أَرْتَحْشِيَارِش)، ثم « دارا الثاني » ثم « أَرْتَحْزِيسِيس
الثاني » ثم « أَرْتَحْزِيسِيس الثالث » ثم « دارا الثالث » وهو آخر ملوك
الدولة الفارسية القديمة. وفي أيامه استولى الاسكندر على فارس سنة ٣٣٠
ق. م كما سيأتي بعد*

استيلاء
الاسكندر على
فارس

ولنرجع الآن الى علاقة مصر بفارس فنقول :

* وبعد ذلك بقيت فارس مدة من الزمن تابعة لغيرها أو مجزأة تحت حكم ملوك
الطوائف حتى سنة ٢٢٧ بعد الميلاد حيث عاد لها استقلالها أيام الدولة السَّاسَانِيَّة
وأخذت في توسيع نطاق ملكها فصارت دولة عظيمة. ثم أخذت في أسباب الضعف
بعد أيام « كِزْرِي أَنْوَشَرْوَان »، أي من أواخر القرن السادس بعد الميلاد. وما
زالت كذلك حتى استولى عليها العرب في القرن السابع

﴿ اغارة الفرس على مصر ﴾

عند وفاة احسن خلفه ابنه «إسمتيك الثالث» ، وفي أيام هذا الملك شرع الفرس في غزو مصر بعد أن أعدوا لذلك المعدات الكبيرة ، فجاء ملكهم «قبيز» بجيش جرّار لفتح البلاد التي طالما تآقت نفس سلفه الى اخضاعها . وكانت مصر اذ ذاك منيعة التحصين ، ويقول مؤرخوا الإغريق أنفسهم ان أحد الجنود اليونانية خان المصريين ودلّ الفرس على أسهل الطرق التي يمكنهم منها أن يدخلوا البلاد ، فهاجمت مدينة «بلوز» (الفرما) بجرأ ، وزحفت الجيوش الفارسية على مصر برأ ، وبعد مقاومة شديدة بجهت بلوز ومنف سقطت البلاد ، وأخذ «قبيز» إسمتيك أسيراً ، فاتته بذلك أيام الأسرة السادسة والعشرين

وبعد أن استولى قبيز على مصر في سنة ٥٢٥ ق . م أعد ثلاث جيوش تقصد ثلاث جهات مختلفة : الأولى «قرطاجنة» والثانية واحدة أمون (سيوة) والثالثة بلاد النوبة . فلم تفلح الأولى بسبب امتناع الفينيقيين عن العمل مع أنهم كانوا أهم رجال سفن الجيش الفارسي . وكانت الثانية طامة كبرى على قبيز ، اذ أن الجيش الذي ارسله فيها وقدره ٥٠.٠٠٠ مقاتل هلك في الصحراء ولم يسمع عنه شيء . أما الثالثة فتمكنت من غزو بلاد النوبة ، إلا أنها عند عودتها صادقتها عاصفة رملية بالقرب من الجنادل الأولى كادت تقضي على جميع رجالها وكان «قبيز» في أول أمره سالكاً ملكاً حسناً في معاملة المصريين يحترم دينهم وعاداتهم ، ولكنه لما لحقته كل هذه الخسائر ، ورأى شماتة

استيلاء قبيز
على مصر

المصريين به أخذ منه الغضب كل مأخذ ، فحنق على البلاد ومن فيها ، وغير معاملته لهم بالمرّة ، فبدت منه القسوة بجميع ضروبها وكرّ على المعابد والهياكل فهتّمها ، وقتل بيده العجل أيبس أثناء أحد الاحتفالات الكبيرة . وعند عودته الى فارس مات في الطريق سنة ٥٢١ ق . م

دارا الأول

ولما تولى ملك فارس « دارا الأول » زار مصر وأراد أن يصلح ما أفسده قبيز ، فأبدى احتراماً كبيراً لديانة المصريين ومعبوداتهم وشيّد هيكلًا عظيمًا للمعبود أمون بواحة سيوة الكبرى . وعضد التجارة وشيّد كثيرًا من المدارس وفتح الخليج السالف الذكر الموصل بين النيل والبحر الأحمر ، وأصلح الطريق بين « قفط » وشاطئ البحر الأحمر المار بوادي الحمامات . وكانت الضرائب التي ضربها على المصريين ثقيلة إلا أنها كانت تجبي بسهولة لتوافر الخيرات بالبلاد

طرد الفرس
من مصر

ورأى المصريون في آخر أيامه ما لحقه من الخسائر في واقعة « مَرْتُون » في حربه مع الإغريق* فخرجوا عن طاعته ، وطردوا الفرس من البلاد بقيادة أحد الأمراء الوطنيين سنة ٤٨٦ ق . م

غزو الفرس لمصر
من جديد

ولما تولى « إجزرسييس » ملك فارس غزا مصر من جديد ، فأصرّ المصريون على الثورة مرة أخرى ، وفي أيام خلفه « ارتجزرسييس » ثاروا على الفرس بمساعدة ملك « لوييا » واسطول إغريق ، فأخذوا ثورتهم بعد قتال طويل

الأسرة السابعة
والعشرون
(فارسية)

وبعد ذلك بقيت البلاد هادئة في زمن « اجزرسيس الثاني » ومعظم أيام « دارا الثاني » الى أن هلك فتمكن المصريون بمساعدة الإغريق من

* راجع حروب الفرس مع الإغريق

التخلص من حكم الفرس ، وكان ذلك سنة ٤٠٥ ق.م. وتعرف ولاية الفرس
هؤلاء بالأسرة السابعة والعشرين

﴿ الأسرة الثامنة والعشرون الى الأسرة الحادية والثلاثين ﴾

طرد « أمِرتوس » (أمنروت) الفرس من مصر واستولى على سرير
الملك ست سنين ولم يخلفه أحد من نسله ، بل آل الملك بعده إلى
ملوك الأسرة التاسعة والعشرين ومن بعدهم الى الأسرة الثلاثين التي
أسسها « نَحْتَنْبُو الأول » (نَقْطَانِب) . ولم تكن مصر على جانب عظيم
من القوة في الفترة التي بين خروج الفرس وبين أيام هذا الملك ، ولكنها
نهضت في عصره من رقادها نهضة لم تكن إلا بمثابة صحوة الموت ، إذ أنه
في أيام آخر ملوك هذه الأسرة المدعو « نَحْتَنْبُو الثاني » تمكن الفرس
سنة ٣٤٠ ق م من دخول مصر مرة أخرى بعد أن غابوا عنها ٦٥ عاماً .
وبذلك انتهت أيام الفراعنة بعد أن حكموا في وادي النيل نحو ٤٠٠ سنة ،
ولم تقم لهم بعد ذلك قائمة

فكان مصر قد علّمت العالم سياسة الملك ونشر الحضارة فأظهرت
فيه أمماً قوية عديدة ، لكنها هزمت بعد ، وأصبحت غير قادرة على الجولان
في ذلك المضمار الذي يتسابق فيه أبناءها بما لهم من قوة الشباب وجديد
الهمة . وهكذا حال الأمم تصعد ثم تنخفض : « فما طار طير وارتفع ، الا
كما طار وقع »

خروج الفرس
مرة ثانية

غزو الفرس
لمصر مرة ثالثة

انتهاء دولة
الفراعنة

الفصل العاشر

كلمة في الحضارة المصرية القديمة

ان الآثار الكثيرة المنبثة في جميع أنحاء الدنيا تفصح بأجلى بيان أن قدماء المصريين بلغوا في الحضارة درجة لم تسبقهم إليها أمة من الأمم القديمة . وهي وان كانت لا توازي حضارة العصور الحاضرة المشيدة على دعائم العلم وتذليل قوى الطبيعة تعتبر بلا شك عظيمة جداً بالنظر لوجودها في تلك الأزمنة الغابرة . ولم تكن قاصرة على ما يكون الغلب فيه للقوة والسلطة والصبر والمثابرة ، كتشييد الصروح الشاهقة ، وشق الأنهار وإقامة السدود (الخزانات) بل أضافوا الى ذلك أنواع الحضارة الأخرى ، من مظاهر التنعم والرفاهية والتأنق وإيثار السرور ، وحب العلم ، والميل الى الفنون والأشياء الجميلة . ونفصل هذه الأمور بعض التفصيل فنقول :

✽ الزراعة وتربية الحيوان ✽

عند قدماء المصريين

كانت الزراعة ، ولا تزال ، هي الوسيلة الطبيعية لمعيشة المصريين وسعادتهم . ولذلك كان أشرافهم يشرفون بأنفسهم على الزرع ويعملون بأيديهم كل ما يؤدي الى طيب الزرع وخصب التربة

موافقة البلاد
للزراعة

ولم تكن طرق الزراعة تختلف كثيراً عما هي عليه الآن ، وكان أهم ما يزرعون القمح ثم الكتان والذرة وحبوب أخرى . وكانوا يُعَنُون بالحدائق والبساتين ، وكان لها عندهم نظام دقيق تكثر به الفواكه وتفره ، وكان العنب

حاصلات مصر
القديمة

والبليح اكرم الثمار التي اشتهرت بها مصر في تلك الأزمان الخالية
أما رأى الأرض فكانوا يستعملون فيه طريقة الأحواض في الأرض
التي يعلوها النيل ، وطريقة الدلو والدالية (الشادوف) في غيرها
وكان لهم عناية عظيمة بتربية الحيوان ، ويقتنون من قطعان البقر أشهر حيوانها
والغنم والمعز ما لا يزيد عليه الا الإوز والدجاج ، وكانت الحمر من دوابهم
المشهورة ، يسخرونها في كثير من الأعمال . أما الخيل فلم يُعرف أنهم
استعملوها قبل عهد الرعاة . وقد ظهر الآن لعلماء أوروبا أن مهارة المصريين
في التفريخ الصناعي لبيض الدجاج ليست قاصرة على اختراعه فقط ، بل
ان طريقتهم لا تزال أفضل الطرق مع ما بلغتْه الأُمم الحديثة من التقدم
في العلوم الطبيعية

﴿ الصنائع ﴾

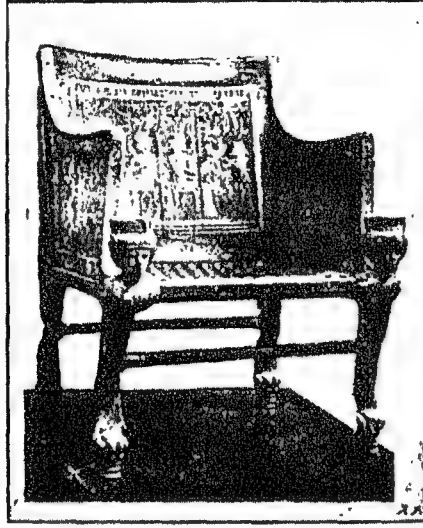
كان قدماء المصريين يُحسنون كثيراً من الصنائع مثل صناعة نسيج
الكتّان الرقيق والصفيق وصباغة الأنسجة وصناعة الخزف والزجاج
وسبك المعادن من النحاس والشبّة (البرنز) والفضة والذهب . ولم يرد للحديد
ذكر في آثارهم

وكان لهم مهارة غريبة في صناعة الحلي . وفي دار العاديات بالقاهرة
بعض حلى أمراء الأسرة الثانية عشرة في حالة من الاتقان لا تمتاز عنها
الحلى التي تصنع في العصر الحاضر

وكذلك كانت صناعة النجارة ، فلم يكذبهم شيء من الآلات
المستعملة فيها الآن ، فيتخذون المصنوعات الكبيرة الحجم من خشب

النجارة

الجميز ونحوه ، والأثاث النفيس من الأخشاب الفاخرة المجلوبة من الممالك
المجاورة ، كآبنوس السودان وأرز لبنان وغيرها *



(كرسى مصرى قديم)

بدار الآثار المصرية رسم ف . د . د . بيرز
(مثال من دة فن النجارة عند قدماء المصريين)

وكانوا يحسنون صناعة دبغ الجلود ويدخلونها في كثير من أثاث
المنازل ، فيتخذون منها المساور والمخدات ومقاعد الكراسى والأرائك ،
ويصنعون منها سيوراً لربط الجثث المخططة منقوشة نقشاً جميلاً ، ويزينون
بالجلد الملون كثيراً من الآلات كالقيثار وغير ذلك مما لا ينقص عما
تُستعمل فيه الجلود الآن . ومن أهم الصناعات التي أجادها المصريون

صناعة الجلود

* وقد عُثر بين آثارهم على صورة جميلة بها طائفة من النجارين يشتغل كل
منهم في العمل المختص به ، ويرى الناظر فيهم شخصاً مشغلاً بقدر على نار يظهر
أنها قدر اذابة الغراء

صناعة الورق المتخذ من نبات البردى ، فكانوا يشقّون سوقه شرائح يوضع بعضها بجانب بعض ، ثم يوضع كذلك فوقها طبقة أخرى شرائحها صناعة الورق مقاطعة للأولى ، وتُصقّ الطبقتان بالغراء وتُكبّسان وتُصقلان . وبقيت هذه الطريقة مستعملة الى أوائل القرن الثالث من الهجرة ، وكان ورقها يسمى « القرطاس المصرى »

وقد برع المصريون فوق ذلك فى صناعات كثيرة ، مثل بناء السفن والقوارب ، لقلة طرق المواصلة عندهم غير النيل ، ومثل عمل التماثيل والأصنام من الخشب والحجر والطين والجص ، وصناعة الآلات الموسيقية والآنية المتخذة من المعادن وحجر المرمر والرخام ، وصنع الآلات الحربية وغير ذلك مما أثبت بلا شك عظم تأثير مصنوعاتهم فى تقدم الفنون الجميلة الإغريقية

﴿ التجارة ﴾

تعود المصريون التجارة من أقدم أزمانهم ، فكان النيل والترع غاصة استعمال النقود بالقوارب التى تحمل الحاصلات المختلفة ، ويجمعون فى أسواق لا يقل ازدحامها عن ازدحام أسواق الوقت الحاضر ، غير أنهم لم يعرفوا استعمال النقود فى بادئ الأمر بل كانوا يستبدلون بعض السلع ببعض . ثم اتخذوا من الذهب والفضة حلّقاً وسبائك وقضباناً يتعاملون بها فى تبادل الأشياء الكبيرة ، فكانت على ما نعلم أول نوع استعمله الانسان من النقود وما زالت تجارتهم فى نموّ حتى سلّكوا البحار ، ونظّموا سير القوافل ، جول البحار ووصلوا النيل بالبحر الأحمر ، وبعثوا بالبعوث البحرية للاستكشاف عن

البلاد المجهولة ، حتى صارت سفنهم تسلك البحار من المحيط الهندى الى
بحر ايجة

وكانوا يجلبون من الثوبة والسودان الذهب وريش النعام والآبنوس
والعاج والجلود ، ومن بلاد « بأت » وما وراءها المر وأنواع الصمغ
العطرية والأخشاب ذات الرائحة الذكية ، ومن الشام خشب الأرز ، ومن
طورسينا المعادن وبعض الأحجار الكريمة

المواد التى
اتجروا فيها

ويحملون الى الممالك المجاورة لهم مصنوعاتهم من خزف وزجاج وكتان
وورق ، وقد وجدت آثارها فى جزيرتى قبرس ورودىس . وارتقوا فى التجارة
الى استنباط طرق مسك الدفاتر ، وضبط المحاسبات ، وكتابة العقود
والمشارطات والوصول والصكوك ، والنظرة بها الى آجال مختلفة ، وغير
ذلك من ضروريات التجارة الراقية

﴿ العلوم والمعارف ﴾

لا يزال الباحثون يزيدوننا كل يوم عاماً جديداً بعظم مبلغ المصريين
من العلوم والمعارف ، وسيدوم الحال على ذلك دهوراً طويلاً . فتلک آثارهم
ومبانيهم الضخمة ، ونقوشهم البديعة ، وكتابتهم العجيبة فى الصوان من
غير أن يستعملوا الحديد والفولاذ أو يعرفوا الآلات الرافعة التى تستعمل
الآن ، تدلنا على درجة نبوغهم فى كثير من العلوم والفنون

والمصريون من أقدم الأمم التى اشتغلت بعلم الفلك لصفاء جوهم ، وان
لم يتفق كثير من آرائهم فيه مع العلم الحديث . وقد أجمع مؤرخو اليونان
ان أمتهم لم تأخذ هذا العلم الا عن المصريين ، وانهم كانوا يشتغلون به فى

الفلك

وقت لم ينافسهم فيه إلا الكلدانيون . وقد عُثِرَ في بعض المقابر على آلات للرصد ومصوِّرات عجيبة لشكل السماء ومواقع نجومها ، كما عُثِرَ لهم على بعض حسابات دقيقة تدل على نبغهم في علم الميقات والتقويمات . فهم أول من حسب طول السنة بالتقريب ، وكان ذلك سنة ٤٢٤١ ق . م وهو أول تاريخ مُدوّن معروف . ويقال إن الهرم الأكبر كان له عندهم فائدة كبرى في حساب حركات الكواكب

أما العلوم الرياضية فالظاهر أنهم لم يبالغوا مبالغاً عظيماً في النظرى منها ، سواء أكان في علم الحساب أم الهندسة النظرية ، ولكنهم ضربوا بسهم وافر في الفنون العملية المتعلقة بها كفن الهندسة والعمارة . وحسبنا دليلاً على ذلك أن « مينا » تمكَّن في ذلك العهد البعيد (٣٤٠٠ ق . م) من بناء سدّ عظيم حوّل به مجرى النيل ، وأن « مرنرع » و « أسرتسن الثالث » حفر كل منهما قناة في صخر الصوّان ، الأول سنة ٢٥٧٠ ق . م . والثاني سنة ١٨٨٧ ق . م . وأن « امنمحت الثالث » شيّد ذلك الخزان العظيم الذي ادّخر به جزءاً كبيراً من مياه الفيضان وأحيا بلاداً شاسعة في إقليم الفيوم

وأما علم الكيمياء وخلط المعادن فقد كانت لهم فيه قدم راسخة : يدل على ذلك اتّخاذهم من الشبّه (البرنز) آلات صلبة يتيسر لهم بها قطع أحجار الصوّان ، وكذلك تخنيط الموقى تخنيطاً أبقي أجسادهم ألوفاً من الأحقاب ، ثم تركيب الأصباغ الثابتة التي لا تتألف إلا بعد دراية عظيمة بخواص الحَمْوض والأملاح والأصداء والمضويات

وساعدتهم عليهم بالكيمياء في صناعة الطب والجراحة ، فلم يفضلهم

العلوم الرياضية
وفن الهندسة

الكيمياء

الطب

فيهما من الأئمة القديمة الآليونان بعد عصور طويلة، وإن كانت ديانتهم قد عاقتهم عن فهم تركيب الإنسان فهماً صحيحاً بتجريبها التشريح وهم كانوا مصدر العلوم الفلسفية والقوانين الإدارية، وعندهم أخذتها الأئمة المجاورة لهم. وقد وفد اليهم من واضعي القوانين «ليكرغ» و«صولون»، ومن الفلاسفة «فيثاغورس» و«أفلاطون» و«إقليدس» ومما يؤسف له أن معظم علم المصريين لم يُحفظ حتى يصل إلينا، لأن أكثر علمهم كان عملياً يتوارثه الولد عن والده بدون تدوين إلا ما ندر، لقلة الجامعات والمدارس المفتحة الأبواب للخاصة والعامة بالنظام المعروف الآن. نعم إن «منف» و«طيبة» و«عين شمس» كانت مهداً للعلوم والمعارف، ولكنها كانت قاصرة على أولاد الملوك والأمراء وأبناء بطانتهم، أو على الكهنة وتلاميذهم

الفلسفة
والقوانين

﴿ المباني ﴾

من أهم ما اشتهر به المصريون مبانيهم العظيمة الدالة على عظيم سلطانهم، وسعة حضارتهم، ورفيع رتبهم في العلوم عامة، وفن العمارة خاصة ولم تكن مبانيهم بالطبع في مبدأ عصورهم بهذه الفخامة والعظمة، بل كانت تُبنى بالطين والآجر. ثم اقتلعوا الأحجار العظيمة نَحَصُوا بها بناء أهرامهم ومعابدهم ونحتوا منها مسلاتهم، وضنوا بها على بناء مساكنهم، فلم يبقَ منها إلا بقايا متخربة. ومما تمتاز به مبانيهم أن قواعدها غالباً مستطيلة أو مربعة وأعلىها أضيق من أسفلها، ولم يحاولوا زخرفها بتدوير زواياها أو إقامة القباب والمنائر والأبراج عليها. وبالرغم من كل ذلك تمتاز

مميزات المباني
المصرية



(۱) شیخ الله و (۲) الکاتب: (۳) ریح نف و (۴) الاميرة نفرت وزوجها: (رسم ف. د. بیریزا محمد افندی بنی سوادری)

نماذج من تماثيل المصرية

مبانيهم بأن منظورها مشعر بعظم القوة، وضخامة السلطان، وسعة العلم،
ودقة الصنع

﴿ التصوير وصناعة التماثيل ﴾

كان للمصريين ولع عظيم بالرسم والتصوير، وميل الى استعمال
الأصباغ الزاهية التي يتألف من اجتماعها منظر أنيق لا يُكل البصر
ولا يُفرّقه. وكان لهم ذوق سليم في رسم النبات والحيوان، وكانت صور
الأناسي وتماثيلهم غاية في الاتقان وملاءمة الطبيعة، غير انه طراً عليها بعد
عهد الأسرة الخامسة شيء من الاصطلاح والرمز أضاع بعض روعتها
وتناسبها وان لم يذهب باتقانها. ومن أبدع التماثيل التي وصلت الينا من
تلك العصور البعيدة علاوة على تماثيل الملوك الذين تكلمنا عليهم:
(١) التمثال الخشبي المعروف بشيخ البلد. (٢) تمثال «رع نقر» أحد كهنة
منف. (٣) الأميرة المصرية القديمة «نفرت» وزوجها. (٤) تمثال
الكاتب. وجميعها من عهد الدولة القديمة ومحفوظ الآن بدار الآثار المصرية

﴿ الكتابة واللغة ﴾

لا يكاد يوجد شك في ان الكتابة المصرية أقدم كتابة في العالم.
والأرجح ان الفينيقيين أخذوها عن المصريين ببعض تغيير، وعن
الفينيقيين أخذت الأمم. فكانت أساساً لكتابة جميع الأمم المتمدينة في
العصر الحاضر

وتشتهر الكتابة المصرية باسم «الكتابة الهيروغليفية»، وكانت في
أول أمرها مكوّنة من صور الحيوان والنبات والأشياء المتداولة: كل

تدرج الكتابة
الهيروغليفية

صورة منها رمز لمعنى أو معنيين أو أكثر. ثم دخل عليها بعض تنقيح واختصار، فنشأت منها الكتابة «الهيراطيقية»، ثم هُذِّبَت هذه أيضاً ونشأت الكتابة «الديموتيقية»، غير انهما لم تنسخا الأولى، وبقيت تستعمل في النقش على المباني والآثار الدينية. وقُصِّرت الحديثتان على المكاتبات التجارية والتأليف وكل ما ينبغى فيه السرعة

أما اللغة المصرية فقد تقلبت في أطوار عديدة انتهت باللغة القبطية الأخيرة التي بقيت الى حوالى القرن الرابع عشر بعد الميلاد. وبالرغم من اختلاف تلك اللغات كان لهم لغة رسمية تحاكي في كل عصر من عصورهم في معظم كتاباتهم الأثرية. ويظهر من ألوف أوراق البردى التي عُثِرَ عليها ومن نقوش هياكلهم انه كان لهم لغة ذات آداب راقية وشعر رقيق نظموا به كثيراً من القصص والأغاني، وكتبوا كتباً شتى، غير أن معظم ما وصل منها إلينا ليس إلا قطعاً مشتتة لا يتأتى تأليف كتاب واحد منها. وأهم مجموعة وصلت إلينا هو «كتاب الموتى» المشتمل على معتقداتهم وأخبار آلهتهم ومواعظهم وزواجرهم

اللغة المصرية
وآدابها

﴿ العادات والأخلاق ﴾

وصل إلينا كثير من عادات قدماء المصريين من أشهرها: انهم كانوا يتوارثون الحرف والصنائع، ويتناولون ما ينقى المعدة كل شهر، ويتزوجون بالأخت، ويرمون فتاة مزينة في النيل قرب مدة فيضانه قرباناً له، فأبطل عمرو بن العاص هذه العادة، ويجمعون بين التمتع بطيب العيش والتخشن فيه، وينهون عن الانهماك في الترف

ومن عاداتهم صنيع الولائم في المواسم والأعياد ونحوها في وقت
الظهر، فيحضرها الرجال والنساء، فيأكلون ويشربون على سماع الموسيقى
وغناء الرجال والنساء، ثم يدخل الراقصون والراقصات فتعزف الموسيقى
ويصحبها تصفيق الأيدي حتى ينتهي الرقص

وكان المصريون في حياتهم المنزلية يميلون الى التمتع بالطعام الجيد،
والى فرش منازلهم بالأمتعة الثمينة وترتيبها على أحسن نظام. وكان أكثر
المصريين يُحلقون لحاهم وشواربهم، وربما أبقى الملك أو العظيم عُشُونًا في
ذَقَنه. وكانت الملوك والأشراف يتزينون بالشعور المستعارة ويُعنون
بترجيلها وتجعيدها. ومن العامة من يحلق رأسه ويلبس قلنسوة، ومن
يرسل شعره على كتفيه

أما أخلاقهم فيستدل من كلماتهم المأثورة « ان أحسن الرجال في
نظرهم من كان قوى الجأش والإرادة، مستقيماً، محترماً لنفسه، مجتنباً
أخلاء السوء، نشيطاً، صادقاً، لا يعرف الغش ولا التزويج، حازماً،
متبصراً، حافظاً لكرامة نفسه بلا تكبر ولا تعاضم ». وكانوا يميلون الى
الثقة بأنفسهم، وحب أعاضم الرجال وتقليدهم، ويمقتون الحسد بوجه خاص

﴿ التربية والتعليم ﴾

كانت الأمهات يقمن بأمر تربية الأطفال، فاذا شبوا أرسلوا الى
الأساتذة ليتعلموا ما اختير لهم من صناعة أو علم. ومما أثر عنهم قولهم
للصبي: « انصرف الى العلم وأحبه كما تحب أمك، إذ لا شيء أثمن من
العلم. ولا تصرف يوماً في اللهو والكسل وإلا ضُربت بالسوط ». وقولهم:

بعض نصاب
للأطفال

« لا تنسَ احترام من هم أسنُّ منك أو أكبر منزلة ، ولا تجلس وهم واقفون »
 وكان أبناء الملوك والأمراء والأشراف يُعلِّمون في مدارس تُنشأ في
 منازلهم ، ويضم إليهم من في سنهم من أبناء خواصهم

وكان للمرأة من العناية والتعليم والحقوق ما للرجل تقريباً : بدليل
 ان منهم من شغلن المناصب العامة وتولين الملك*
 نيسة المرأة عند
 المصريين

وكان المصريون لا يهملون أمر الرياضة البدنية . فكانت الكرة
 يلعبها الصغار والكبار ، وكان للصغار ألعاب أخرى منتظمة ، كما كان
 الكبار يحبون الصيد والقنص والمصارعة ، التي نرى منها نموذجاً بديعاً على
 مقابر بنى حسن
 الألعاب الرياضية

﴿ الحكومة وحالة السكان ﴾

كانت الحكومة المصرية القديمة في جميع أطوارها مملكية غير
 دستورية . وكان الملك فيها ممجداً محبوباً ، تعتقد الأمة انه الواسطة بينها
 وبين الآلهة . وهو القابض على كل شيء : فهو الذى يبيده التشريع
 والقضاء ، وهو الذى يضرب الضرائب فيفرض منها ما شاء (وذلك مخالف
 بالمرّة لشكل الحكومة عند الإغريق والرومان) . وكان يتخير له من بين
 رجاله وزيراً يكل إليه الإشراف على جميع مصالحه ودواوينه

وقد تخللت تلك الآلاف من السنين فترات كاد الأمراء والأشراف
 فيها يسلبون الملك بعض سلطته ، كما رأينا عند الكلام على العهد

* من ذلك ان « نيتوكرس » و « حتشبسوت » جلستا على سرير الملك
 وان امرأة أخرى تقلدت منصب رئاسة كهنة « آمون » في أيام النهضة المصرية

الإقطاعي ، ولكن انتهى الأمر باسترداد الملك لسلطته فصار كما كان :
المليك المُمَلَّك

أما سكان البلاد فكانوا على عدة طبقات : الأولى طبقة الأشراف ، طبقات السكان وهم الذين كان يقدمهم الملك مناصب الحكومة ، وكانوا يعيشون في سعة وبذخ ، ولبعضهم من القصور والخدم والحاشية ما يضارع به الملك . وأما الطبقة الوسطى فكانت في العصور الأولى مكوّنة من الصناع ، كالصاغة والزجاجين وغيرهم . وفي عهد الدولتين الوسطى والحديثة زاد عدد هذه الطبقة وكثرت ثروتها ودخلت فيها طائفة الكتبة . وأما الطبقة الدنيا فكانت أشبه بالموالي في البلاد مع انهم هم المولّدون فعلا لثروة الأمة والبناء الحقيقيون لأهرامها . على انه لم يكن هناك فاصل مانع بين هذه الطبقات ، فكثيرا ما كانت تتدرّج الأفراد من طبقة الى أخرى ، وقد حدث ان رجلا من غير حملة الألقاب تدرّج حتى تولى عرش الملك . وفي عهد الدولة الحديثة دخل عدد كبير من الطبقة الوسطى في الجيش ، فاكسبوا لأنفسهم مالا وجاهاً عظيمين ، وكونوا منهم أسرات شريفة

﴿ الديانة ﴾

تنوعت ديانة قدماء المصريين على طول السنين ، فكانوا في أول أمرهم يعتقدون بوجود إله واحد عظيم حيّ باق ، ورمزت له كل قبيلة بـرمز خاص ، ثم رمزوا لصفات هذا الإله الواحد بـرموز صارت بعدئذ معبودات ثم عبدوا الكائنات الطبيعية التي لها تأثير في حياتهم ، كالشمس والقمر والأرض والنيل ، ورمزوا لصفات كل منها بأشكال خاصة صار معبودات

أيضاً ، حتى نسوا التوحيد وصار قاصراً على الكهنة . ثم اعتقدوا بحلول الآلهة في أجساد الحيوان . فعبد كل قوم ما رأوا أن روح الإله حلت فيه كالقط والكب والتمساح ونوع من العجول يسمى « أئيس » وهو أهم معبوداتهم الحيوانية *

وكان لكل من هذه المعبودات منزلة أكبر في بعض الجهات منها في غيرها . وكثيراً ما حدثت فتن ومشاحنات بين سكان الجهات بسبب تفضيل بعض هذه المعبودات على بعض . وأكبر المعبودات في الجملة ما كان مقره حاضرة الملك

وكانوا يصورون هذه الآلهة بصور مختلفة : منها ذات الرؤوس البشرية ومنها ما رأسه رأس بهيمة ، وما رأسه رأس طير . ويلقبونها بأسماء مختلفة منها « فتاح » للإله الأعظم ، و« رَع » و« أمُون » للإله الشمس و« أوزيريس » للشمس عند الظلام . وجعلوا لكل منها معابد وأوثاناً خاصة . وكان أهم معبد لرَع بمدينة « أون » (عين شمس) ، كما كانت « طيبة » مقر عبادة « أمون » ، و« منف » مقر عبادة « فتاح » . وكان تشييد هذه المعابد وتدوين الحوادث عليها من أكبر مطاعم الفراعنة ومفاخرهم

* العجل أئيس هو في اعتقادهم الحيوان الذي تمثل فيه المعبود « فتاح » وكانوا يختارونه من بين ولودات البقر باجتماع عدة أوصاف فيه كسواد جلده ووجود شامة بيضاء مثلثة الشكل على جبهته . وكان يوم الاهتداء اليه يوم سرور عام ، كما كان يوم موته ابتداء حزن عام يستمر الى العشر على عجل آخر فيه جميع الصفات المطلوبة . وكانوا يحتفلون بدفنه احتفالاً عظيماً ، ولهذا العجل مقبرة هائلة ما زالت تشهد بسقارة الى الآن

وكان قدماء المصريين شديدي التمسك بدينهم يعتقدون بيعث
الأجسام بعينها ، ولذلك بالغوا في تحنيط أجساد موتاهم وحفظها في مقابر
منيفة . ويرجون الثواب ، ويخشون العقاب في اليوم الآخر ، فكان للدين
تأثير شديد في عاداتهم وأخلاقهم وعلمهم وعبادتهم وصناعاتهم . ومن اهتمامهم
العظيم بالدين وأمر الآخرة أن صار اكبر رغبة لأى شخص منهم أن يحتفل
بدفنه احتفالا عظيما

الفصل الحادى عشر

كلمة في الفينيقيين

الفينيقيون أمة سامية قديمة كانت تنزل ساحل الشام من سفح
لبنان الى البحر الأبيض المتوسط . وقد ابتدأ ظهور مدينتهم في عهد
الدولة الوسطى من قدماء المصريين

ولما كانت بلادهم وسطا بين الشرق والغرب وشواطئها كثيرة
الفرص والمرافئ الصالحة لرؤس السفن وانشاء الموانئ التجارية ، انتفع
الفينيقيون بهذه المزايا ، فتقدموا في التجارة والملاحة حتى فاقوا غيرهم
فيهما . ولما ضاقت بلادهم بهم اضطروا الى الهجرة الى غيرها ، فانشؤا لهم
مستعمرات عديدة في الممالك التى يعاملونها ، غير ناظرين إلى امتلاكها
السياسى والحربى ، بل ينزلونها بالاتفاق مع أهلها مسالمة ، فكانت
أشبه بأسواق ومحطات تجارية منها بامتلاكات خارجية . ولشدة عنايتهم
بالتجارة لم يهتموا بجالتهم الحربية أو السياسية ، فضعفوا لحكم المصريين ،

موافقة البلاد
الفينيقية للتجارة

ثم الآشوريين والبابليين ، ثم الفرس ، ومن بعدهم اليونان ، ثم الرومان
ولم تكن « فينيقية » مع صغر حجمها خاضعة لحكومة واحدة بل
كانت كل مدينة بضواحيها وقراها حكومة صغيرة قائمة بذاتها . وكثيراً
ما كانت تلك المدن تعترف بالزعامة لأقواها . وقد تولى هذه الزعامة
بالتناوب مدينتان عظيمتان : « صيدا » ، ثم « صور » . وبذلك كان
تاريخ عظمتهم يرجع الى عهدين : العهد الصيداوي (٢٢٠٠ — ١٢٠٠)
وفيه احتكروا تجارة المشرق براً وبحراً الى سنة ١٥٠٠ ق . م ، فنافسهم
اليونان في بحر الأرخبيل وأجلوهم عن جزائره وكثير من مستعمراتهم
الشرقية ، فاتهن الفلسطينيون فرصة ضعفهم فاستولوا على مدينتهم « صيدا »
وخرّبوها ، والعهد الصوري (١٢٠٠ — ٥٧٤ ق . م) وفيه خلّفت « صور »
صيда ، إلا أنهم حولوا وجهتهم التجارية إلى الغرب حتى جزائر برطانية
إلى أن أخضعهم الآشوريون ثم البابليون تحت قيادة بُخشنصر ، ثم الفرس
ثم الاسكندر ، ثم البطالسة ، وعلى أيدي هؤلاء انتهى تاريخهم من سورية
وتجدد في أفريقية

وجود عدة
حكومات صغيرة
بفنيقية

اهم المدن
الفينيقية

﴿ الفينيقيون والتجارة ﴾

كان الفينيقيون يسلكون مشارق الأرض ومغاربها براً وبحراً
إلى جميع الأمكنة التي يمكنهم أن يتجروا فيها . فكانت قوافلهم تصل الى
أشور وإلى بلاد العرب ومصر ، وسفنهم لا ينافسها في التجول في البحار
سوى سفن « قرطاجنة » التي هي احدى مستعمراتهم المستقلة بذاتها .
فكانوا يتاجرون شرقاً مع الهند ، وغرباً مع اسبانيا وبرطانيه ، بل مع

بعض الجهات التي على شواطئ البحر البلطقي . وقد سبق في الكلام على مصر ذكر طوافهم باسطولهم حول سواحل أفريقية ، فهم بذلك أقدم أُمم الأرض البحرية التجارية . وكانوا يتجرون بحاصلات بلادهم وحاصلات جميع البلاد التي يذهبون إليها . فكانوا يجلبون إلى فينيقية التوابل والأفاويه والصمغ من بلاد العرب ، والعاج والآنوس والمنسوجات من الهند ، وخيوط الكتان والغلال من مصر ، والصوف والخمر من دمشق ، والأقمشة المطرزة من بابل ونيينوى ، والفخار من بلاد اليونان ، والخليل والمعجلات من أرمينية ، والنحاس من شواطئ البحر الاسود ، والرصاص من اسبانيا والقصدير من جنوب بريطانيا ، ثم يرسلونها إلى البلاد التي تطلبها مع ما اشتهرت به فينيقية ذاتها من الحاصلات ، وخصوصاً الأصباغ وخشب الأرز والزجاج

اتجار الفينيقين
في حاصلاتهم
وحاصلات غيرهم

وهذه التجارة الواسعة دعت الفينيقين كما قدمنا الى اتخاذ أنزال عديدة لهم في جهات مختلفة ، كقبرس ورودس وجزائر بحر الأرخييل وصقلية وجزائر البليار وكيليكيا (في الجنوب الشرقى من آسيا الصغرى) وبعض جهات اسبانيا ، وأهم ذلك جميعاً « قَرطاجنة » التي أسسوها في شمالي أفريقيا على مقربة من تونس الحالية في القرن التاسع ق . م ولقد تقدمت هذه المدينة تقدماً عظيماً فيما بعد وصارت حاضرة لمملكة عظيمة ، نافست الرومان زمناً طويلاً . وسأتى ذكرها عند الكلام على الرومان

المستعمرات
الفينيقية

﴿ الفينيقيون والمدنية ﴾

كان الفينيقيون على جانب عظيم من الإقدام والنشاط ، فضربوا
بسمهم وافر في التجارة والملاحة ، وقد سبق الكلام عليهما . وكانت لهم أيضاً
شهرة ذائعة في بعض الصناعات كالتعدين والصياغة والحياكة والتطريز
وتركيب الأصباغ وعمل الزجاج وبناء السفن . غير أنهم لم يكن لهم باع
طويل في استنباط قواعد العلوم والمعارف ، وإن كانوا قد خدموا الحضارة
بنقلهم آراء بعض الأمم وعلومها الى بعض

وأعظم خدمة خدمها الفينيقيون للعلم والمدنية نشرهم الحروف الهجائية
بين الأمم . ولم يُعرف بعد بالجزم عن نقلوا تلك الحروف ، ورأى بعض
المؤرخين أنهم نقلوها عن المصريين . على أنهم استخدموا في حُساباتهم
حروفاً عاموها للإغريق ، ومن هؤلاء انتشرت في الأمم الأوربية الاخرى
مع تعديل قليل

نشر الفينيقيين
للحروف
الهجائية



ملخص

أهم الحوادث التاريخية في عهد الفراعنة

مصر	التاريخ ق م	البلاد الأجنبية
ابتداء استعمال التقويم (أول تاريخ معروف في تاريخ العالم)	٤٢٤١	
العهد الذي لا شك في وجود حضارة فيه بمصر السفلى والعليا	٤٠٠٠	
ابتداء حكم « مينا » وتوحيد مملكتي الشمال والجنوب	٣٤٠٠	
الأسرتان الأولى والثانية — مدة حكمهما ٤٢٠ سنة ومقر ملكهما « طينة » — مقابرهما بجهة ابيدوس — استخراج المادن من شبه جزيرة سيناء	٣٤٠٠ — ٢٩٨٠	
الأسرة الثالثة — مدة حكمها ٨٠ سنة ومقر ملكها « منف » — بني « زوسر » هرم سقارة المدرج — أرسل « اسنفرو » أسطولاً الى لبنان	٢٩٨٠ — ٢٩٠٠	
الأسرة الرابعة — مدة حكمها ١٥٠ سنة ومقر ملكها « منف » على الأرجح — آثارها : أهرام الجيزة وأبي رواش	٢٩٠٠ — ٢٧٥٠	
أهم ملوكها : خوفو باني الهرم الأكبر بالجيزة	٢٩٠٠ — ٢٨٧٧	
خفرع « الثاني » منقرع « الصغير »	٢٨٧٧ — ٢٧٧٤	
ازدياد نفوذ كهنة « رع » بعين شمس		
الأسرة الخامسة — مدة حكمها ١٢٥ سنة ومقر ملكها « منف » — آثارها : أهرام بوسير وسقارة	٢٧٥٠ — ٢٦٢٥	
أهم ملوكها : أوسركاف — وصوله الى الجنادل الأولى	٢٦٢٥ — ٢٥٧٠	
سحورع — أول حملة الى بلاد « بنت » أوناس	٢٥٧٠ — ٢٥٦٦	
الأسرة السادسة — مدة حكمها ١٥٠ سنة ومقرها « منف » — آثارها أهرام بسقارة	٢٥٦٦ — ٢٤٧٦	
أهم ملوكها : بيبي الأول (خمس بعثات الى سيناء وبعثة الى فلسطين — نفوذه في شمال النوبة)	٢٤٧٦ — ٢٤٧٦	
مرنرع الأول (فتنة في الجنادل الأولى — خضوع أمراء النوبة)	٢٤٧٦ — ٢٤٧٦	
بيبي الثاني (أطول حكم في التاريخ — غزوة في شمال النوبة — علاقات تجارية مع السودان وبلاد بنت ولبنان وجزائر بحر ايجة)	٢٤٧٦ — ٢٤٧٦	

مصر — ر	التاريخ ق م	البلاد الأجنبية
الأسرات السابعة والثامنة والتاسعة والعاشر — اضطراب واضمحلال في عهد ملوك ضعفاء — ابتداء نمو « طيبة » الأسرة الحادية عشرة — مدة حكمها ١٦٠ سنة ومقرها « طيبة » — استولت على القوة شيئاً فشيئاً خصوصاً في عهد « سنخرع منتوحتب » وهو آخر ملوكها	٢٤٧٥ — ٢١٦٠	قيام دولة آشور
الأسرة الثانية عشرة — مدة حكمها ٢١٣ سنة ومقرها « لشت » ومدينة بالقيوم	٢٠٠٠ — ١٧٨٨	ظهور أول أسرة من ملوك بابل ارتقاء دولة بابل وجود ميناء فينيقي عظيم
أهم ملوكها: (١) امنمحات الأول (بلوغ نظام الاقطاع أكل الدرجات — هرم بجهة لشت)	٢٠٠٠ — ١٩٧٠	
(٢) أسرتسن الأول (غزو بلاد الكوش — هرم بجهة لشت)	١٩٨٠ — ١٩٣٥	« حور اني » ملك بابل (١٩٠٠)
(٣) امنمحات الثاني (هرم بجهة دهشور)	١٩٣٨ — ١٩٠٣	
(٤) أسرتسن الثاني (هرم بجهة اللاهون)	١٩٠٦ — ١٨١٧	
(٥) أسرتسن الثالث (قناة جديدة في الجنادل الأولى — اخضاع بلاد النوبة الى الجنادل الثانية — غزوة في الشام — اضمحلال قوة أمراء الأقاليم — أقدم شيء وصل إلينا من الأدبيات المصرية . كتاب الموتى — هرم بجهة دهشور)	١٨٨٧ — ١٨٤٩	
(٦) امنمحات الثالث (نمو كبير في موارد الثروة — تنظيم النيل — قصر لابرنت — انشاء أراض بالقيوم — هرم بجهة دهشور)	١٨٤٩ — ١٨٠١	
(٧) امنمحات الرابع { اضمحلال الدولة الملكة سبكتنفرورع { الوسطى وسقوطها	١٨٠١ — ١٧٩٢	محاربة الحثيين لملك بابل وغزوهم بلادهم
من الأسرة الثالثة عشرة الى السابعة عشرة — مدتها ٢٠٨ سنوات — اضطراب كبير وحروب داخلية — مدة حكم الملكسوس (١٦٧٥ — ١٥٨٠ ق م) تقريباً	١٧٨٨ — ١٥٨٠	
الأسرة الثامنة عشرة — مدة حكمها ٢٣٠ سنة ومقرها « طيبة »	١٥٨٠ — ١٣٥٠	اضمحلال دولتي آشور وبابل

☆ وضع هذه العلامة قبل إسم الملك يدل على أن جثته الآن بدار الآثار المصرية

مصر	التاريخ ق . م	البلاد الأجنبية
أهم ملوكها: ☆ أحس الأول (طرد الهكسوس حوالي ١٥٨٠ واستئصال شأفة الملوك من الأمراء وارجاع الأراضي الى الملك ... أول جيش قائم ... غزوة بالشام)	١٥٨٠ - ١٥٥٧	خضوع غربي سورية لمصر
☆ أمنحيب الأول (غزوة بالشام)	١٥٠٧ - ١٥٠١	تحالف الحثيين
تحتس الأول (غزو بلاد السكوش والشام الى وادي الفرات)		
تحتس الثالث وحشيبوت (تشييد مبان عظيمة - أرسلت الملكة بمئة الى بلاد بابل)	١٥٠١ - ١٤٤٧	الحثيون والاشوريون والبابليون يعاونون ولاهم لتحتس الثالث - زهاء الموائى الفينيقية
☆ تحتس الثالث وحده (١٧ غزوة بآسيا من ١٤٧٩ الى ١٤٥٩ ق . م قهر ملك قادش ومد أملاك الدولة من وادي الفرات الى الجنادل الرابعة نمو الاسطول المصري - انشاء مبان عظيمة بالكركك - ازدياد عظيم في ثروة البلاد)	١٤٧٩ - ١٤٤٧	
أمنحيب الثاني (حفظ كيان الدولة)	١٤٤٨ - ١٤٢٠	
☆ تحتس الرابع (« « « »)	١٤٢٠ - ١٤١١	
☆ أمنحيب الثالث (أزهى عصور الدولة الحديثة - بلوغ « طيبة » أعظم مبلغ من الفخامة انشاء معابد هائلة - خطابات تل العمارنة - ابتداء هجرة الأجناس السامية الى الشام وفلسطين - اغارة الحثيين على شمال الشام)	١٤١١ - ١٣٧٥	
اختاتون (انقلاب ديني ونشر مذهب التوحيد - هجر « طيبة » وانشاء « اختاتون » (تل العمارنة) - خطابات تل العمارنة غزو الأجناس السامية لمعظم الشام وفلسطين - انحلال أملاك الدولة في آسيا - خال عام وسقوط الأسرة الثامنة عشرة)	١٣٧٥ - ١٣٥٨	
الأسرة التاسعة عشرة - مدة حكمها ١٤٥ سنة ومقرها « مدينة رمسيس »	١٣٥٨ - ١٢٥٠	
أهم ملوكها: حرمح (الرجوع الى الديانة القديمة وعبادة	١٢٥٠ - ١٢١٥	

مصر	التاريخ ق م	البلاد الأجنبية
« أمون » — إعادة تنظيم الحكومة) رمسيس الأول (بدء الهو العظيم بالكرنك) * سبتي الأول (استرجاع فلسطين — استمرار في تشييد الهو العظيم — استخراج الذهب من مناجم النوبة) * رمسيس الثاني (حروب في آسيا خصوصاً مع الحثيين من ١٢٨٨ الى ١٢٧١ — أعام الهو العظيم بالكرنك — مبان هائلة في جميع أنحاء البلاد)	١٣١٥ — ١٣١٤ ١٣١٣ — ١٢٩٢	ازدياد نفوذ الحثيين في الشام
* منفتاح (غزوة في الشام — قهر اللويين) * سبتي الثاني (اخراج بني اسرائيل من مصر) الأسرة العشرون — مدة حكمها ١١٠ سنة ومقرها « مدينة رمسيس » أهم ملوكها: * رمسيس الثالث (٤ حروب مع اللويين وسكان البحر في سنة ٥ و ٨ و ١١ و ١٣ من حكمه — ازدياد نفوذ الكهنة)	١٢٢٥ — ١٢١٥ ١٢١٥ — ١٢٠٩ ١٢٠٠ — ١٠٩٠	تأهب اللويين للزحف على شمال مصر زحف « سكان البحر » على الشام وقهرهم الحثيين
الأسرة الحادية والعشرون — مدة حكمها ١٤٥ سنة ومقرها « تبتيس » — اشتراك الكهنة وأمرأ تبتيس في الحكم	١٠٩٠ — ٩٤٥	استمرار زحف اللويين شرقاً
عهد اللويين	٩٤٥ — ٧١٢	
الأسرة الثانية والعشرون — مدة حكمها ٢٠٠ سنة ومقرها « بوسطة » — قيام دولة مستقلة بالنوبة في آخر هذا العهد الأسرة الثالثة والعشرون — مدة حكمها ٢٧ سنة ومقرها « بوسطة »	٩٤٥ — ٧٤٥ ٧٤٥ — ٧١٨	اتساع نطاق مملكة آشور غرباً حتى وصلت الى البحر الأبيض المتوسط
عهد الاتيويين والآشوريين	٧٢٢ — ٦٦١	حكم آشور أخى الدين (٦٨١ — ٦٦٨) واتساع دولة آشور اتساعاً سريعاً
استيلاء « بمنخي » الاتيوي على الوجه القبلي — اضمحلال أمير بوسطة وظهور أمير « سايس » (صا الحجر) — خضوع الجميع للاتيويين الأسرة الرابعة والعشرون — أسسها أمير « صا الحجر » بعد انجلاء الاتيويين — تولى ملكها ملك واحد ٦ سنوات بمدينة صا الحجر ثم عاد الاتيويون وأبادوها الأسرة الخامسة والعشرون (اتويية) — مدة حكمها ٥٠ سنة	٦٦١ — ٧٢٢ ٧٢١ — ٧١٨ ٧١٨ — ٦٦٣	

مصر	التاريخ ق. م	البلاد الأجنبية
ومقرها « نانا » - دخول « آشور أخى الدين » (ملك آشور) مصر (٦٧٠) - رجوع الآشوريين وابتدئ لهم للعامة الآشورية (٦٦٣) استيلاء الآشوريين على البلاد ثانية وطردهم الآشوريين نهائيا (٦٥٤ - ٦٦١)		حكم آشور بانيال ملك آشور (٦٦٨ - ٦٢٦)
النهضة المصرية	٥٢٥ - ٦٦٠	حكم « نبوخذ نصر » ملك بابل (٦٢٦ - ٦٠٥)
الأسرة السادسة والعشرون - مدة حكمها ١٣٨ سنة ومقرها « سايس »	٥٢٥ - ٦٦٠	سقوط دولة آشور ٦٠٨ - - - (٦٠٦)
أهم ملوكها : (١) إسمتاك الأول (أقام مدة تحت حماية الآشوريين عهد نهضة عظيمة ورق استيطان الآشوريين بمصر)	٦٦٣ - ٦٠٩	استقلال دولة بابل ٦٠٦
(٢) نكاو (محاولة البابليين الاستيلاء على مصر وقهر « بختنصر » لنكاو بجبهة قرقيس (٦٠٥) شيباع الشام من يد المصريين الطواف حول افريقية)	٦٠٩ - ٥٩٤	حكم بختنصر ملك بابل (٦٠٥ - ٥٦٢) تأسيس كورش لدولة الفرس (٥٥٠ ق. م)
(٣) أحمس (عصر زهاء ورق ازدياد استيطان الآشوريين بمصر تنقيح القوانين المصرية)	٥٦٩ - ٥٢٥	حضور صولون المشرع الآشوري الى مصر
(٤) إسمتاك الثالث حكم بضعة أشهر ثم دخل الفرس مصر	٥٢٥	

الباب الثاني

عهد الاغريق والرومان

الفصل الاول

كلمة في الاغريق

وحروبهم مع الفرس

أمة الإغريق أقدم أمم أوروبا حضارة، ومن حضارتهم أخذت أوروبا كثيراً من أصول مدنيّتها الحاضرة. وأقدم ما يُعرف من تاريخها مقتبس من أشعار «هوميروس» الشاعر الإغريق القديم. ولا نعرف يقيناً العصر الذي وجد فيه ذلك الشاعر الكبير، وإنما الأرجح أن العصر الذي وصفه في أشعاره والذي عاش لا محالة زمنًا منه يمتد من سنة ١٠٠٠ الى سنة ٨٠٠ ق. م. ولا ريب أن أكثر الحوادث التي دونها في شعره خرافية، وهي مع ذلك توقفنا على حقائق جمة من أحوال الإغريق في تلك الأيام، فمنها أن البلاد كان يحكمها ملوك يساعدهم مجلس من الأعيان ويعرضون أحكامهم الهامة على هيئة مختارة من جميع الأمة، وأن الرجال كانوا يحترمون النساء (وإن كانوا لم يمنحوهن الحرية التامة)، وأنه كان بالبلاد عدد عظيم من العبيد يُسخّرون في أشق الأعمال، وأنه كان للإغريق معبودات عدّة

هوميروس
الشاعر الإغريق
القديم

التاريخ المستند
من شعر
هوميروس

تمثل القوى الطبيعية . وكان القوم في تلك الأيام يُعجَبون بالحرية والجمال وأصالة الرأي

وبعد أن انقضى عصر «هوميروس» جاء عصر مظلم لا نعرف عنه شيئاً ولا نسمع فيه لبلاد الإغريق ذكراً في التاريخ حتى سنة ٦٠٠ ق م . وفي هذا العهد الجديد تراها مغارة في كثير من الوجوه لما كانت عليه في العهد الهوميروى . فتأخرت حالة المدن العظيمة واصبحت قرى صغيرة ، ودخلت البلاد شعوب جديدة ، وفنى جانب كبير من فروسية تلك الأيام الأولى . ونذكر الآن شيئاً من حالة بلاد الإغريق منذ ابتداء التاريخ الصحيح فنقول :

كانت بلاد الإغريق في أول الأمر عبارة عن ولايات عديدة منفصل بعضها عن بعض بلا علاقة سياسية تربطها . ولما كانت بلاد الإغريق جبلية ، تقسمها الجبال الشاهقة الى وديان كثيرة ، تكونت فيها بالطبع عدة ولايات بقيت بسبب هذه الجبال وصعوبة المواصلات متقاطعة مدة طويلة . ولم يكن ما يسمى ببلاد الإغريق قاصراً على شبه جزيرة اليونان ، بل كانت تشتمل أيضاً على نواح كبيرة من ايطاليا وجزيرة صقلية وآسيا الصغرى . فكلما حل الإغريق بارض جال بفكرهم أنها جزء من بلادهم ، وأينما ذهبوا كونوا لهم ولاية مستقلة حول كل مدينة كبيرة أو صغيرة . وكانت لتلك المدن حكومات وجيوش قائمة بذاتها ، وكثيراً ما كانت تضرب كل ولاية تقوداً لها مغارة لنقود الأخرى

ابتداء التاريخ
الإغريق
الصحيح

وجود عدة
ولايات متقاطعة
في بلاد الإغريق

أما نظام الحكومة في هذا العهد الجديد فقد تغير نوعاً ما عن نظيره في عصر هوميروس ، فاصبحت «إسبرطة» وحدها تقريباً هي الولاية التي

بقيت فيها الحكومة الملكية ، وكان فيها دائماً حاكماً . وأما الولايات الأخرى فبعضها كان يحكمها عدد من الأعيان وبعضها كانت القوة فيها للحالة العمومية للأمة . ولم تتغير الحالة الاجتماعية كثيراً عن عهد « هوميروس » فلم يزل مركز المرأة مستقلاً ، والرق مباحاً ، حتى انه في بعض المدن الكبيرة مثل « أثينا » و « كورنثة » كان عدد الأرقاء اكثر من عدد الأحرار

وبقيت المعبودات كما هي منذ أيام هوميروس . وكان للإغريق عدة أمّا كن يؤمنونها من جميع الولايات لمناجاة الآلهة واستفتائها ، وأهمها معبد « أبولون بجمة » دلفي « على سفح جبل « برناسيس » ، فكان اجتماعهم هذا بمثابة رابطة تربط جميع الإغريق ولذلك سموه بالجامعة الهلانية نسبة الى « الهلانيين » أو « الإغريق »

ومن الروابط الأخرى التي كانت تربطهم « الألعاب الأولمبية » ، الألعاب الاولمبية وهي ألعاب رياضية كانوا يعقدون لها حفلة كل أربع سنوات بأرض « أولمبيا » بمقاطعة « بلوبونيز » تكريماً للمعبود « زيوس » * وهو أشهر معبوداتهم

✽ ولايات بلاد الإغريق ✽

الولايات الشهيرة التي كانت تتألف منها بلاد الإغريق الأصلية هي :

(١) « إسبرطة » و « أرجوس » و « ميسينية » بالجزء الجنوبي ، وكان

يسمى « بلوبونيز » (مورة)

(ب) « كورنثة » على برزخ كورنثة

✽ ويسمى أيضاً « زفس »

(ح) « أثينا » و « طيبة » في الجزء الأوسط من شبه الجزيرة
وكانت « اسبرطة » أهم ولايات بلوبونيز وكانت أهم عنايتها موجهة
الى الأمور الحربية ، ولولا نبوغها في ذلك لما أمكنها المحافظة على بسط
كلماتها على الولايات المجاورة لها التي خضعت لسلطانها . ولم تكن اسبرطة
أقوى ولاية حربية في بلوبونيز فقط ، بل فاقت أيضاً جميع ولايات الإغريق
الأخرى ، والفضل في ذلك لنظامها العسكري الذي لا يفرق بين السلم
والحرب من حيث تعليم الجند وتدريبهم . وأول من خط للإسبرطيين هذه
الخططة « ليكرغ » ، وهو رجل حكيم عاش في القرن الثامن قبل الميلاد
وكان أجلّ عمل في حياة كل رجل سليم البنية منهم اعداد نفسه
للأعمال العسكرية ، فيعيشون عيشة خشنة ، ولا يفكرون عن القيام
بالألعاب الرياضية التي من شأنها اعدادهم لتأدية واجبهم الحربي الذي
يشعرون به
أما « أثينا » فلم تُعَنّ بالأمور الحربية الى هذا الحد ، ولكنها
استعاضت من ذلك الالتمات الى الوسائل الأخرى الداعية الى الحضارة
العالية والرقى الأدبي العظيم
وكانت « أثينا » في أول أمرها يحكمها ملك ، فلم يدم ذلك فيها كما
لم يدم في غيرها ، ووقعت السلطة في أيدي الأعيان ، وما زالوا يجمعون
السلطة في أيديهم حتى وصل إرهابهم الأمة الى حد لا يطاق . فهموا
بأن ينالوا حقوقهم بالقوة ، ولم يلبثوا أن ظهر المشرع العظيم « صولون » ،
فسن في أوائل القرن السادس قبل الميلاد (سنه ٥٩٤ ق . م .) قوانين
جديدة للحكومة قلّل بها من استبداد الأعيان ، وان لم يسلبهم جميع نفوذهم .

اسبرطة

ليكرغ

اهتمام اسبرطة
بالأمور الحربية

اثينا

حكومة الاعيان
في اثينا

صولون

وكان المبدأ الذى جعله نصب عينيه أن يكون معظم السلطة فى أيدي أصحاب المصالح الحقيقية الذين يفقدون شيئاً عند الانقلابات العظيمة . وقد سنّ صولون قوانين أخرى غير الخاصة بنظام الحكومة . فسنّ قوانين خاصة بالحياة والحقوق الشخصية والزواج والزق وغير ذلك . وقد قدم الى مصر فى أيام أحسن الثمانى ، فيقال انه اقتبس شيئاً من قوانينها

ولم يستمر هذا النظام طويلاً بسبب سخط بعض الطبقات ، فالتفوا حول أحد الزعماء المدعو « بزمترات » وجعلوه ملكاً مستبدّاً بالسلطة . فعدل فى حكمه ، وجمع حوله الأدباء والعلماء وعضدهم ، ووسّع مدينة أثينا وزاد فى جمالها ، ولكنه ساء جانباً عظيماً من حرية الشعب فخلعوه . ولما تولى ابنه « هيبياس » ثار به أهل أثينا وطرده منها

﴿ علاقة فارس بالولايات الإغريقية ﴾

(الحرب الفارسية)

عامنا فيما سبق كيف أسس « كورش » مملكة فارسية عظيمة ، وكيف وسّع نطاقها « دارا » الأول الذى تولى الملك فى سنة ٥٢١ ق . م . وقد كان الإغريق اذ ذاك عدة مدن على شواطئ آسيا الصغرى تغلب عليها ملك « ليديا » . ولما خضع هذا لحكم الفرس أصبحت تلك المدن الإغريقية خاضعة أيضاً لفارس ، وما لبثت هذه المدن طويلاً حتى شعرت بظلم الفرس ، فتألبت كلها وشقت عصا الطاعة على فارس فى سنة ٥٠٠ ق . م . فأرسل أهل أثينا السفن والجيوش لمساعدة اخوانهم الإغريق وتمكنت الأحزاب من احراق « سارزدة » عاصمة بلاد ليديا سنة ٤٩٩ ق . م .

استيلاء الفرس
على المدن
الإغريقية
باسيا الصغرى

وبعد أن استمر القتال ست سنوات أخذ « دارا » الفتنة، ثم تمكن من غزو شاطيء (إبونيا) بأكمله. ثم نهض إلى معاقبة أهل أثينا على تدخلهم بين دولته العظيمة وبين من خرج عليها من رعاياها، وعلى ذلك ابتدأت الحروب بين الفرس والإغريق. فأرسل الفرس جيشاً إلى بلاد الإغريق في سنة ٤٩٢ ق. م، ففشلوا وانهمزمت جيوشهم براً وعبثت بسفنهم العواصف في بحر إيجه

اسباب الحروب
الفارسية

وبعد ذلك بسنتين، أي في سنة ٤٩٠ ق. م، أرسل الفرس جيشاً آخر أقوى من الأول وأنزل الأسطول الفارسي جيوشه بالقرب من « مَرَتون » في الجهة الشرقية من مقاطعة « أتيكا » بقصد الزحف على أثينا. ولكن الجيش الأثيني مع عدد قليل من رجال « بلاتي » (أحدى المدن الصغيرة المجاورة لأثينا) وبقيادة « مِلْتِيَادِس » قابل الجيش الفارسي في « مَرَتون » وهزمه شر هزيمة على كبر عدده، فكان لهذه المعركة أكبر تأثير في تاريخ أثينا والإغريق، بل في تاريخ الشرق والغرب، إذ أخذت « أثينا » بعدئذ ترقى معارج السعادة حتى صار لها شأن أي شأن، وبها سلمت بلاد الإغريق من الوقوع في أسر الفرس وكان في عزم « دارا » مهاجمة الإغريق مرة أخرى لولا أن لحقته منيته في سنة ٤٨٥ ق. م فترك ذلك لابنه « إيجزرسيس »

مصر أيام الحروب
الفارسية

وكانت مصر في ذلك الوقت عمالة فارسية، فخرجت على فارس في أواخر أيام « دارا » وبقيت الثورة قائمة حتى تولى « اجزرسيس »، فبدأ باخمادها. وبعد أن تم له ذلك وجه همته إلى غزو بلاد الإغريق وفي سنة ٤٨٠ ق. م خرج « اجزرسيس » بنفسه ومعه جيش جرار

لم تر الدنيا مثله من قبل، اذ كان عدده على أقل تقدير نحو الف مقاتل.
 فر هذا الجيش الكبير من آسيا الى أوربا على قنطرة من السفن عابراً
 « هلسيننت » (الدردنيل)، ثم اخترق ولاية « طراقية » و « مقدونية »
 و « تساليا » بقصد النزول على « آيسكا » من الشمال، حيث يمكنه دخول
 أثينا وتخريبها، وهو غاية أمنية اجزسيس . فعلم الإغريق ان الفرس
 سيمرون من مأزق « ترمويل » لأنه هو الممر الظاهر الذي يمكن الجيوش وقعة ترمويل
 أن تحترق الجبال منه . وترمويل هذا ممر ضيق واقع بين جبل (أوتيا)
 وبين المستنقعات الممتدة على شواطئ خليج « ماليا »، فاجتمع معظم
 الولايات الإغريقية تحت لواء « اسبرطة »، ووضعوا عدداً من رجالهم في
 هذا الممر لحمايته، فارسل اجزسيس أقوى رجاله لسحق هذا العدد
 القليل الذي جرؤ على الوقوف في طريقه . ولكن الإغريق (وفي مقدمتهم
 الإسبرطيون) حاربوهم مستبسلين، ودافعوا دفاعاً ضربت به الأمثال .
 فخار الجيش الفارسي، ووقف بلا حراك . فبينما الفريقان على هذه الحالة
 اذ دلتهم رجل خائن من الإغريق أعشى قلبه ما أعطاه الفرس له من المال
 على طريق آخر من وراء الجبال، فما شعر الإغريق الا والفرس على قمة
 الجبل يزحفون عليهم . وعند ذلك أمر ملك اسبرطة الذي كان يقود الجيش
 الاغريق بان يبقى معه الاسبرطيون، وأن يتراجع رجال الولايات الأخرى
 لحماية « أثينا » . وهنا حارب الاسبرطيون (وعددهم ٣٠٠ رجل) بشجاعة
 أدهشت الفرس، غير أن الشجاعة وحدها لا تظهر على وفرة العدد . نعم
 قاوم الاسبرطيون كل المقاومة وافنوا عدداً عظيماً من الفرس، ولكن ذلك
 لم يؤثر في جيشهم الجرار اذ وقفوا على بعد من الاسبرطيين وجعلوا

شجاعة
 الاسبرطيين

يرمونهم بالسهام وهم واقفون لا يتزعزعون حتى ماتوا عن آخرهم عدا
واحداً أو اثنين

وبالرغم من أن الإغريق هُزموا في هذه المعركة التي تعرف بمعركة
« ترموبيل » أظهروا للفرس أنهم رجال أشداء يموتون في سبيل الدفاع
عن وطنهم ، نخشى الفرس بأسهم ، وكان لذلك تأثير كبير في المواقع التالية
وكانت واقعة « ترموبيل » في أغسطس سنة ٤٨٠ ق . م . وفي أثناء
هذه الواقعة كانت السفن الإغريقية تحارب الأسطول الفارسي على الشاطئ
الشرقي من القسم الأوسط من بلاد الإغريق فلما سمع « تِمِسْتُكليس »
قائد الاسطول الاثيني بان الفرس أخذوا يمر ترموبيل وأنهم يزحفون على
أثينا انحاز بأسطوله الى الجنوب حتى وصل الى خليج « سَلاميس » في
الجنوب الغربي من اتيكيا . ولما لم يجد « تِمِسْتُكليس » سبيلاً إلى مقاومة
الفرس في أثينا نقل جميع سكانها على السفن الى جزيرة سلاميس والى
جهات أخرى ، فلما دخل الفرس في أثينا وجدوها خالية من السكان ،
فسلبوا ما فيها ثم أحرقوها

وعند ذلك التقى الأسطول الفارسي بالأسطول الإغريق بالقرب

واقعة سلاميس

من جزيرة سلاميس ، وهناك تمكن الإغريق بمهارتهم وخفتهم من قهر
الاسطول الفارسي ، فحزن « اجزرسيس » لهذه الكارثة وعاد الى بلاده
تاركاً جزءاً عظيماً من جيشه في تساليا . وكانت واقعة سلاميس في سبتمبر
سنة ٤٨٠ ق . م

وفي سنة ٤٧٩ ق . م . حصلت معركة بين الإغريق وبين الجيش
الفارسي الذي تركه اجزرسيس بقيادة « ماردنيوس » فقهر الإغريق الفرس

واقعة بلاتي

في واقعة « بلاتي » ، وفي اليوم عينه انتصروا عليهم براً وبحراً بجبهة « ميكال » وقعة ميكال على شاطئ آسيا أمام جزيرة « ساموس » (سيسام) فكانت هذه الوقائع الثلاث (سلاميس وبلاتي وميكال) فاصلة بين الفريقين . ولم يقدم الفرس بعدها على غزو بلاد الاغريق ذاتها . وبعد ذلك بسنتين جلاوا عن جميع المواقع التي احتلوها ببحر ايجه

✽ عصر بركليس ✽

أتى بعد واقعة « سلاميس » نصف قرن (٤٨٠ - ٤٣٠ ق . م .) كان أزهى عصر في تاريخ أثينا ، لما امتاز به من تقدم العلوم والفنون والمعارف ، ويمكن اعتباره من أزهى العصور في تاريخ الدنيا عامة . ويسمى هذا العصر « عصر بركليس » نسبةً الى « بركليس » ذلك السياسي العظيم الذي كان في أثنائه هو القائد لحركة الأعمال بأثينا

ولد بركليس من أسرة كريمة ، وتربى تربية حسنة . وكان خطيباً مصقفاً وقائداً عظيماً وسائساً بعيد النظر . وكان شديد الحب لبلاده ، شاعراً بالواجب عليه لها ، أبى النفس لا يأتي الدنيا ، ولا يقصد الى شيء من غير وجوهه الشريفة

عرف أهل أثينا هذه الصفات العالية في بركليس ، فامتلت قلوبهم بحبته . وما زالت مزاياه تزيد من نفوذه حتى صار أشبه بملك على الرجال بدون سلطة أو حقوق وراثية

وكان من أجل رغباته تربية الشعب بأسره اعتقاداً بأن ذلك أهم الأسباب الداعية الى انتظام الحكومة . وكان بأثينا في ذلك الوقت مكان

نشأ بركليس
وصفاته

عنايته بالشعب

يدعى «الإكليزيا» يجتمع به رجال تلك المدينة للمداولة في شؤونهم .
فأباح الدخول والمناقشة فيه لجميع أفراد الشعب ، بل كان يُؤجر العامة على
حضوره ، وعلاوة على ذلك سمح لهم بتذاكر يدخلون بها محال التمثيل
بدون ثمن ، وكانت الأساطير التي تمثل بتلك المحال من أبلغ ما يكتب
معنى وأسلوباً وتتناول البحث في تاريخ الإغريق أو شؤون البلد العادية .

كثرة النوابع
في عصر بركليس

من كتاب ومصوّرين ومؤلفين وغيرهم .
والحق أن التاريخ لم يرَ عصرًا مثل
عصر بركليس : ظهر فيه على قصره ذلك
العدد العظيم من النبغاء في مكان واحد .
ولو كان ذلك معيار الحضارة لقلنا ان
أثينا في ذلك العصر بلغت مبلغاً من
الحضارة لم تبلغه هي ولا غيرها في
عصر آخر .

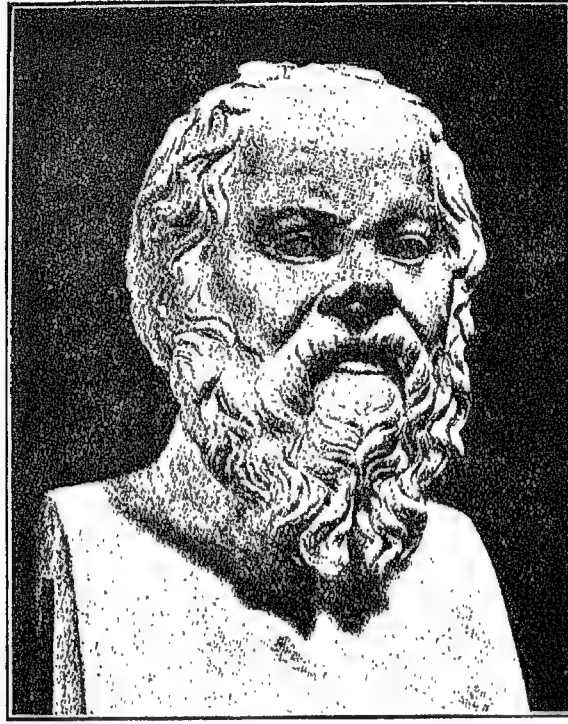


(بركليس)

مشاهير الرجال
في عصر بركليس

ومن أشهر مشاهير ذلك العصر
«فدياس» المصوّر و«أوريبيد» و«سُفُكليس» الكاتبان للروايات
التمثيلية و«هيرودوت» المؤرخ و«سُقراط» الفيلسوف استاذ «أفلاطون»
الفيلسوف اليوناني الشهير

ومعظم هؤلاء الرجال كانوا من أصدقاء بركليس . وقد كان بعض
الفضل في نبغهم لمعاشرتهم له والاستفادة من نصائحه الجميلة



(سقراط)

أراد بركليس أن يظهر عظمة أثينا للعالم فشيّد بها المباني الشاهقة جمال مباني أثينا والمعابد العظيمة ، وزيّن جميعها بالنقوش البديعة والتماثيل الجميلة بأيدي أمهر المصوريين والنقاشين برياسة « فدياس » الآنف الذكر ، وما زالت بقايا هذه النقوش والتماثيل يدرسها كبار المصوريين في الوقت الحاضر وينظرون إليها كأنها غاية في بابها

ومما يؤسف له أن ذلك العصر الزاهر لم يدم طويلاً ، بل انتضى بانقضاء أيام بطّله . ولا شك أن من العوامل التي ساعدت على انتقضائه ما غرسه بركليس بيده من إشراك العامة في إدارة شؤون المدينة وتسهيل

السُّبُل لهم الى حضور التمثيل والحفلات . فدب في نفوسهم ديب الترف والكسل ، وصاروا ينظرون الى الاشغال البدنية نظر الأنفة والازدراء . فأدّى ذلك الى انحطاط الشعب ثم الى اضطراب الحكومة

﴿ الاسكندر الأكبر ﴾

وفتحه لمصر

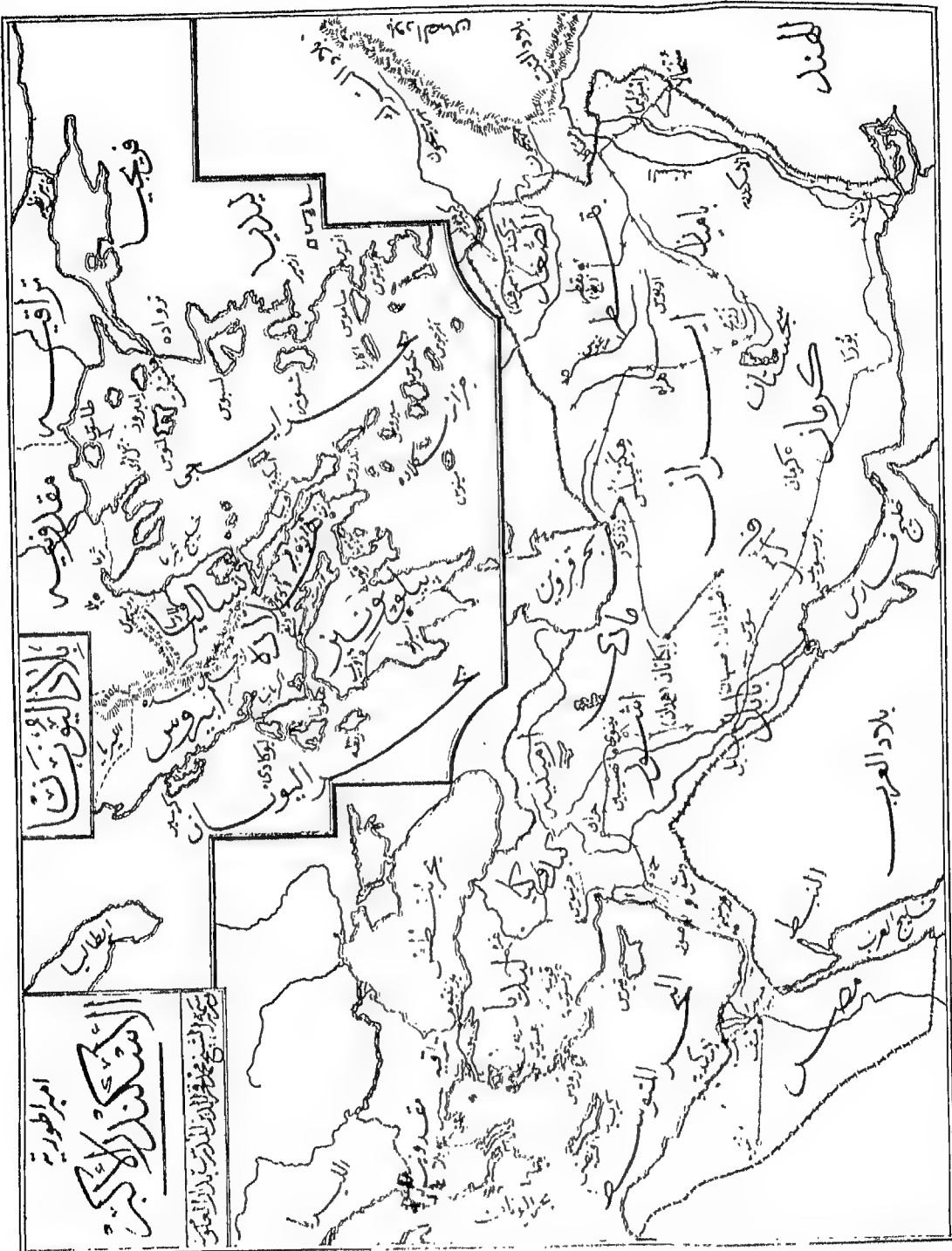
وقعت بلاد الإغريق بعد انتهاء عصر بركليس في حروب أهلية طويلة وفتن عظيمة تعرف بحروب بلوبونيز نسبةً الى شبه جزيرة بلوبونيز ببلاد الإغريق (٤٣١ — ٤٠٤ ق . م) ، فعاقبتها عن التقدم بل هوت بها الى هوة الاضمحلال . ولكن بينا هذه الولايات مشغلة بالحروب والقلاقل كانت بلاد « مقدونية » آخذة في أسباب التقدم والظهور

ومقدونية هذه هي البلاد التي في شمالي بلاد الإغريق ، وأهلها شديداو القاربة للإغريق : أقوياء الجسم عظيمو البأس . وكانوا في أول أمرهم رعاة للأغنام وزُرّاعاً ، ولم يكن لهم ذكر هام في التاريخ قبل أيام « فليب المقدوني » (فلبس) . وكان هذا الملك على جانب عظيم من الذكاء وقوة الجأش ، تعلم الفنون الحربية والسياسية في طيبة ، ثم عاد الى بلاده فأدخل فيها حضارة الإغريق ، واتهمز فرصة غفلة الولايات الإغريقية فهمّ ببناء دولته العظيمة

فليب المقدوني

بدأ فليب بتوسيع ملكه في الشمال ، ثم وجه همته الى الجنوب ، فتغلب على جميع الصعاب التي اعترضته في سبيله . وبانتصاره على الإغريق في واقعة « قيروثنه » سنة ٣٣٨ ق . م . خضعت له جميع ولاياتهم . ومن

واقعة قيروثنه



هند

بلاد العرب

امپراطوریه

امکدالاکبر

امیرالشیخ

امیرالشیخ

امیرالشیخ

ذلك الحين اندمج تاريخ الإغريق في تاريخ مقدونية

ولما استتب الأمر لفليب في بلاد الإغريق أراد أن يغزو بلاد الفرس
انتقاماً لما فعله هؤلاء بأثينا فيما مضى ، غير أن المنية حالت بينه وبين
مآربه فقتل سنة ٣٣٦ ق . م

وتولى الملك بعد فيليب ابنه «الإسكندر» ، وكان عمره إذ ذاك عشرين
سنة فقط . فأصغره الإغريق زعماء منهم أنه لا يمكنه على حداثة سنه إدارة
شؤون المملكة العظيمة التي جلس على أريكته ، وأنه في نظرهم مثل أبيه
بعيد عن الحضارة الإغريقية ، وإن رباه أبوه أحسن تربية واختار لتعليمه
«أرسطو طاليس» الفيلسوف العظيم الذي كان أكبر رجال العلم في ذلك العصر

استخف الإغريق بالإسكندر فثاروا عليه في وقت واحد ، ولكنه
برهن لهم وللعالم أجمع أنه أشد بأساً وأكبر بطشاً مما يظنون ، فأخذ
ثورتهم قبل أن تستفحل ، وكانت «طيبة» زعيمة تلك الحركة فعاقبها أشد
عقاب ، فعادت جميع الولايات الإغريقية إلى السكون ، واعترف أهلها
للإسكندر بالسلطان على جميع بلادهم

ولم ينظر الإسكندر إلى البلاد الإغريقية نظرة الغالب القاهر ، بل
نظرة الرئيس الممثل لهم أمام الأمم الأخرى الآخذ بنصرهم ، فلم يكدهم
يستتب له الأمر في هذه البلاد حتى شرع في الاستعداد لغزو بلاد فارس
للأخذ بثأر الإغريق والانتقام من الفرس على ما فعلوه بها في غارات
دارا واجزرسياس

خرج الإسكندر لغزو بلاد الفرس سنة ٣٣٤ ق . م . ومعه خمس
وثلثون ألف مقاتل . وهذا الجيش وإن كان صغير العدد بالإضافة إلى

تغلب مقدونية
على الإغريق

استخفاف
الإغريق
بالإسكندر

تغلبه عليهم

الإسكندر يأخذ
بثأر الإغريق
من الفرس

المقصد الهائل الذى خرج من أجله فان حسن نظامه ومهارة قائده كفلا له نصراً قل أن يوجد له نظير فى التاريخ

سار الاسكندر فى هذا الجيش إلى آسيا الصغرى فقابله الفرس عند نهر « غرانيق » فقهروهم بعد قتال عنيف . ثم واصل المسير حذاء الشاطئ الغربى لآسيا الصغرى مستولياً على جميع المدن الإغريقية التى فى طريقه . ثم اتجه نحو أواسط آسيا الصغرى ، فلم يقف فى طريقه أحد من الفرس . ثم قصد بلاد الشام فلم يجد أى مقاومة فى طريقه حتى وصل إلى مدينة « إسّوس » على الطرف الشمالى الشرقى من شاطئ البحر الأبيض المتوسط . وهناك قابل جيشاً فارسياً عرمرماً يقوده دارا الثالث ملك الفرس سنة ٣٣٣ ق . م . ولكن كثرة العدد لم تجدي نفعا بجانب مهارة الاسكندر الحربية ونظام جيشه وقوته ، فشنت الاسكندر شمل الجيش الفارسى وفرّ دارا هارباً . وتعرف هذه الواقعة بواقعة « إسّوس »



(الاسكندر الأكبر المقدونى)

عن تمثال بدار آثار الاسكندرية
رسم محمد افندى على سعودى

الاسكندر
بآسيا الصغرى

وقعة اسوس

✽ الاسكندر الأكبر فى مصر ✽

بعد أن هزم الاسكندر الفرس فى واقعة إسّوس زحف على مدينة

الاستيلاء
على صور

«صور» فأخذها بعد عناء كبير، وبذلك تم استيلاؤه على الشام . ثم قدم الى مصر، وكان الفرس قد استدعوا حاميتها منها بسبب حروبهم مع الاسكندر . فلما وصل الاسكندر إلى « بأوز » (الفرما) في سنة ٣٣٢ ق . م رحب به المصريون لما سمعوه عن عدالة حكمه . ولما لاقوه من الذل والهوان في حكم الفرس . ففتحت له مصر أبوابها ودخلها بدون عناء ، بل ان الوالى الفارسى لم يجرؤ على مقاومته وقابله في منف بترحاب . ومن ثم سار الاسكندر الى « واحة أمون » الكبرى (واحة سيوة) ودخل معبد أمون ، حيث لقبه الكهنة بابن أمون . وعند ذلك أبدى احتراماً كبيراً لديانة المصريين وقدم القرابين لمعبوداتهم ، ولكنه مع ذلك لم يهمل العادات والتقاليد الإغريقية ، فأدخل منها في مصر الموسيقى والألعاب النظامية

دخول
الاسكندر مصر

ولما رأى الاسكندر أن قرية « راقوتيس » (راقودة) * ذات موقع بحرى موافق مكوّن لميناء جيد بين شاطئ البحر الأبيض وبين جزيرة مجاورة له تدعى جزيرة « فاروس » انشأ عندها حاضرة جديدة له سماها « الاسكندرية » . ثم أمر بردم الماء بينها وبين الجزيرة المذكورة ، فنشأ من ذلك مرسىان جميلان

انشاء مدينة
الاسكندرية

وما زالت مدينة الاسكندرية من أهم بلاد الدنيا الى وقتنا هذا . وكان السياح الإغريق يصفونها بانها « مدينة جميلة » . وكان الرومان يعتبرونها أول المدن نخامة وعظمة بعد عاصمة بلادهم

وبعد أن استتب الأمر للإسكندر في مصر خرج الى فتوحه الأخرى في الشرق ، فاخترق سورية مرة أخرى ومنها سار إلى « ميزوبوتاميا »

فتوح
الاسكندر
الأخرى
في الشرق

* هذه كانت قرية صغيرة بجوار موقع مدينة الاسكندرية الحالية

(أرض الجزيرة) حيث التقت جيوشه بجيوش «دارا» الجرارة، فبدد
شملهم في واقعة «إزبيل» سنة ٣٣١، وفر «دارا» مقهوراً. فكانت هذه
الواقعة الفاصلة ابتداء سقوط دولة الفرس سنة ٣٣١ ق م

وعند ذلك رحب البابليون بالاسكندر راضين به مليكاً لهم، ثم
سار الاسكندر الى بلاد فارس ذاتها واستولى على عاصمتها «سيس»
وغيرها من المدن وغنم منها ما لا يحصى من الذهب والفضة والأحجار
الكريمة. وبعد ان استراح الاسكندر قليلاً واصل السير الى قاصية بلاد
الفرس، فاخترق الأقليم المعروف الآن بالأفغانستان والتركستان الروسية
وما جاورهما. ثم عبر مضائق جبال «الهملايا» مع جزء من رجاله الأشداء
فدخل شبه جزيرة الهند واستولى منها على مقاطعة «البنجاب». وكان
يود مواصلة سيره شرقاً، فامتنعت جنوده تبعاً وخوفاً. فسار الى الجنوب
متبعاً نهر السند حتى وصل شواطئ المحيط، ثم عاد الى بابل واخذ ينظم
فيها أمور دولته العظيمة، ولكنه أصيب بحمى قضت على حياته سنة ٣٢٣
ق م. وكان عمره اذ ذاك ٣٢ سنة وثمانية شهور

ولم يكن الاسكندر قائداً حريفاً فقط، بل كان سائساً ومديراً عظيماً.
وكان في نيته توحيد الشرق والغرب وجعلها دولة واحدة تحت سلطانه،
وشرع في ذلك فعلاً فلأ البلاد الشرقية التي فتحها بالتجار اليونانيين
والحضارة الإغريقية، وتزوج بزوجة فارسية وأوصى قواده بذلك أيضاً
اعتقاداً منه بان ذلك من أعظم الوسائل لامتزاج عناصر الشرق والغرب
وتوحيد كلمتهم. وكان يهتم في فتوحه باصلاح الأمور التجارية والعلمية.
ومن ذلك الأمر الأخير انه ارسل إلى استاذة أرسططاليس مجموعات نباتية

الاستيلاء على
عاصمة فارس

الاستيلاء على
بنجاب بالهند

اعمال الاسكندر
ونتايجها

وحوانية وغيرها من البلاد التي فتحها ، من شواطئ البحر الأبيض الى حوض نهر السند ، لفحصها فحصاً علمياً . ومن أهم نتائج فتوحه انتشار الحضارة اليونانية في الشرق ، وصنع البلاد التي فتحها بالصبغة الإغريقية ، وما زالت تلك الصبغة ظاهرة فيها حتى تغلب عليها الإسلام فكان له فيها أثر آخر

الفصل الثاني

البطالسة

(٣٢٣ — ٣١ ق م .)

لما توفي الاسكندر ترك وراءه ابناً صغيراً وأخاً غير شقيق ، فتولى هذان الحكم على دولته العظيمة بوصاية « برذكاس » (أحد قواد الاسكندر الخالصاء) . وعين لكل جزء من الدولة وال يحكمه ، فاختر مصر بطليموس الذي سُمي فيما بعد بطليموس الأول

و « بطليموس الأول » هو مؤسس دولة البطالسة التي تولت الحكم بطليموس الأول في مصر منذ وفاة الاسكندر الى استيلاء الرومان عليها . وكان بطليموس من أعظم قواد الاسكندر ومن أخلص المقربين اليه ، لأنه تربى معه في قصر فليب ملك مقدونية . وكان قد نفي من بلاده في أيام فليب . فلما توفي أحضره الاسكندر وجعله أحد قواده السبعة الذين يحيطون به في الحرب ، ويقضون معه وقت السمر في السلم . وكان بطليموس معروفاً بالحزم والحكمة والشجاعة . ولما تولى الحكم على مصر في سنة ٣٢٣ ق م

قوبل فيها بالسرور والترحاب . وقد شعر منذ ابتداء حكمه بمصر بمنافسة « بردكاس » له في السلطة ، ولكنه تمكن بقوته ودهائه من التغلب على نفوذه حتى صار كملك على مصر مستقل بالسلطان فيها . وأول عمل يؤثر عنه انه أراد أن ينقل جثة الاسكندر من بابل الى مصر ، فعارضه بردكاس وقال : انه يريد نقلها الى مقدونية ، لكنه لم يفلح وجيء بالجثة الى مصر في موكب فاخر ودفنت في منف ثم نقلت في أيام خلفه الى الاسكندرية ، ويُظن ان مكانها الآن النبي دانيال . ولما اشتد غيظ بردكاس منه أتى الى مصر بجيش كبير لمحاربتة فقهره بطليموس ، ثم سخط رجال بردكاس عليه لسوء مسلكه معهم فقتلوه . ومع كل هذا بقي بطليموس معترفاً بسيادة ابن الاسكندر وأخيه عليه ، وكان يكتب اسميهما على المباني التي حُسنها أو زاد فيها

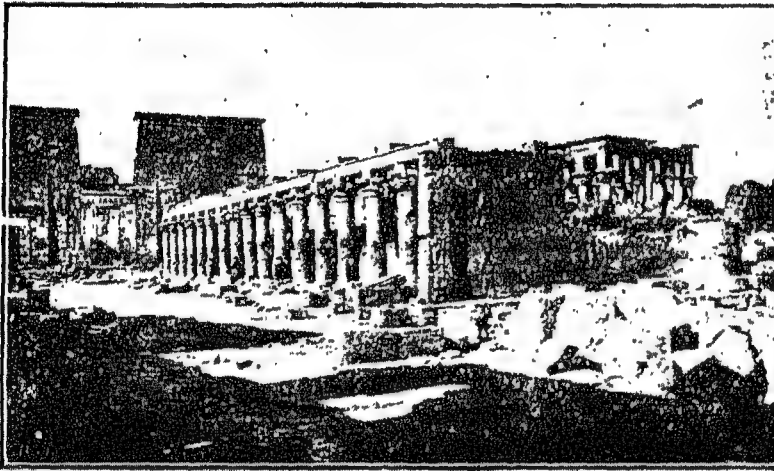
وفي سنة ٣٢٠ ق . م غزا بطليموس فينيقية وجزءاً من سورية واستولى على بيت المقدس . وقد قام بحروب كثيرة لتوسيع نطاق دولته انتهت باسترداد هذه البلاد السورية بعد فقدانها واستيلائه على جزيرة قبرس . وصارت لمصر بذلك السيادة البحرية في البحر الأبيض المتوسط وفي سنة ٣٠٥ ق . م لُقِبَ « بملك مصر » ومن ذلك التاريخ لم يدخل في حروب كبيرة ، وانصرف لتنظيم بلاده وترقية شؤونها ، فزاد في مباني الاسكندرية . ويقال انه المؤسس لدار كتب الاسكندرية ودار تحفها المشهورتين . والذين ينكرون انه المؤسس لهما يقولون بأنه هو صاحب المشروع ، وأن الذي قام بتنفيذه هو ابنه بطليموس الثاني ومن المعروف عنه أنه احترم ديانة المصريين ، ووفق بين ديانتهم

وبين الديانة الإغريقية ، وظهر من أجل ذلك معبود جديد يدعى « سرايس » أعد له معبد « السرايوم » بالاسكندرية الذى قيل انه كان أجمل بناء بتلك المدينة

وقبل وفاة بطليموس بسنتين تنازل عن الملك لابنه بطليموس الثانى الملقب باسم « فيلادلف »

جلس بطليموس الثانى على سرير الملك ثمانية وثلاثين عاماً (٢٨٥ — بطليموس الثانى ٢٤٧ ق م) لم يحدث فيها من الحروب أو الثورات ما هو جدير بالذكر ، فالتسعت فى أيامه ثروة البلاد وتقدمت التجارة وانتشرت العلوم والمعارف . فن أعماله انه جدد الخليج القديم الذى حفرته الفراعنة من قديم الزمان ليوصل بين النيل والبحر الأحمر ، وأعاد سلوك الطريق التجارية بين « قِط » والبحر الأحمر مخرقة وادى المسامات ، وشيد لها من المعاقل والمساح ما جعل سير القوافل التجارية فيها سهلاً آمناً ، فتقدمت التجارة المصرية حتى وصلت الى بلاد العرب والهند شرقاً ، وإلى اتيوبيا جنوباً . أما البحر الأبيض فكانت لمصر به تجارة ذات شأن مع بلاد الإغريق وكثير من البلاد الأخرى التى على شواطئه الكثيرة . وقد شيد بطليموس لهداية السفن منارة عظيمة بالطرف الشرقى من جزيرة فاروس اشتهرت فى التاريخ باسم « منارة الاسكندرية » ، ولعظم ارتفاعها كانت تسطع اشعتها ليلاً من مسافة تربو على الثلاثين ميلاً ، ومكانها الآن حصن « قايتباى » ومن حرصه على نشر العلوم والمعارف والآداب انه وسع نطاق دار تحف الاسكندرية ودار كتبها ، وأمر بانجاز أمرين عظيمين فى تاريخ الأدب : أولهما ترجمة التوراة من العبرانية الى الإغريقية ، وثانيهما حمله

« مانيتون » على تأليف كتابه الشهير في تاريخ مصر القديم
ولم يهمل فيلادلف إقامة المباني وتشيد الهياكل ، ومن أهم الآثار
التي أقامها جزء كبير من معبد جزيرة « فيلة » المعروف الآن بقصر « انس
الوجود » ، وهذا الجزء هو أجمل مباني ذلك المعبد
ومن المعروف عن بطليموس الثاني أنه سهل للإغريق إنتاج مصر
وإنشاء أنزال جديدة بها ، وكان يهب لهم الأراضي لذلك ، وأهم مستعمرة
لهم وقتئذ كانت يجهة الفيوم



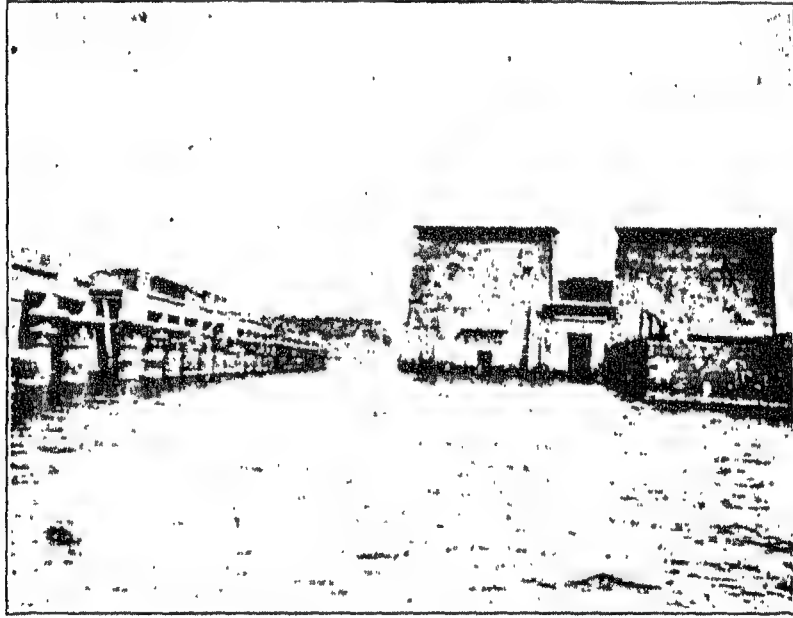
(معبد فيلة قبل الخزان)

رسم لكجيان

بطليموس الثالث
وفي سنة ٢٤٦ ق . م . توفي بطليموس الثاني خلفه ابنه « بطليموس
الثالث » ، وفي أيامه امتدت أملاك مصر الى ما كانت عليه في أيام
الفراعنة ، فلم يلبث بعد تولية الملك أن ضم « قيرينقية » (برقة) الى مصر .
ثم نشبت الحرب بين مصر وسورية بسبب قتل أخته التي كانت متزوجة

بملك سورية وقتلتها زوجته الأخرى ، فزحف بطليموس على الشام بجيش عظيم وأمر اسطوله بالسير ازاء الشاطئ السوري لیساعد الجيش بالهجوم على المدن بجرأ أثناء مهاجمة الجيش لها برأ ، فخضعت له جميع سورية ، واستمر في زحفه حتى وصل الى نهر الفرات سالكا مسلك الفراعنة من قبله . وقد وُجد على بعض آثار هذا الملك انه وصل في فتوحه أيضاً الى بابل وفارس وميديا . وعند عودته الى مصر رجع بغنائم ونفائس كثيرة ،

اتساع ملك
مصر زمن
البطالة



(معبد فيلة بعد الخزان)

رسم فراني

وأحضر معه تماثيل المعبودات المصرية التي كان قد أخذها من مصر « قبيز » وغيره من الملوك الأجانب الذين غزوا مصر زمن الفراعنة ، فزاد ذلك في محبة المصريين له

ومضت على مصر برهة من الزمن كوّنت فيها دولة واسعة الأرجاء

تزيد سعتها على نظائرها أيام الفراغة . فأصبحت ممتدة من شواطئ بلاد الإغريق شمالاً ، الى اتيوبيا جنوباً ، ومن قيرينقية غرباً الى الحدود الهندية شرقاً

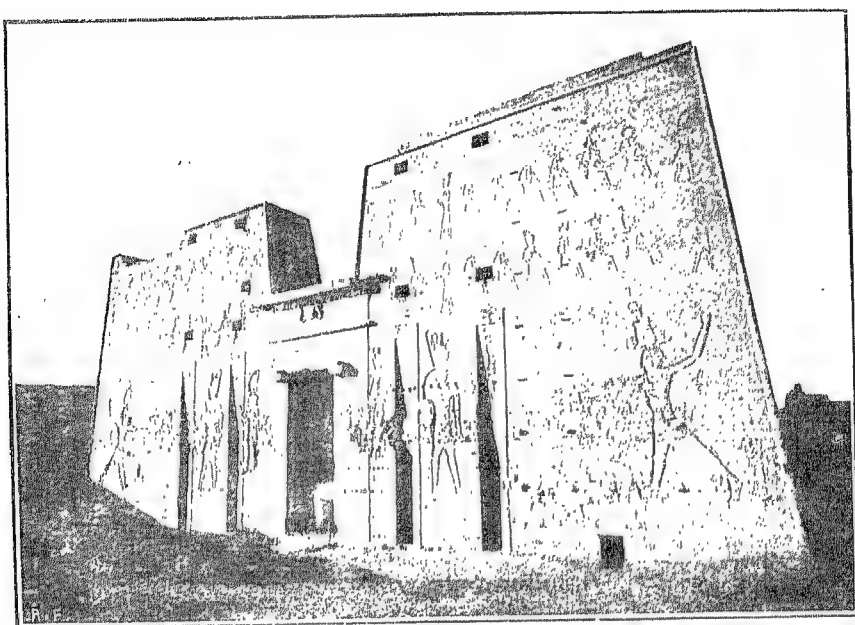
غير ان هذه الممالك لم يبق جميعها في يد المصريين ، بل استرد السوريون جميع الأراضي الشرقية من بلادهم ما عدا اقلياً صغيراً ، واكتفى بطليموس بالمحافظة على ممتلكاته الغربية والبحرية ، ومدّ سلطانه في داخل بلاد النوبة

ولم يكن بطليموس الثالث محارباً شديداً فقط ، بل كان مولعاً بالأدب محباً لاقامة المباني وتشيد المعابد . وهو أول ملك من البطالسة شيّد مباني عظيمة ذات أثر خالد في التاريخ ، فهو الذي شيّد « معبد ادفو » الذي ما زال حافظاً لشكله ورونقه الى الآن ، وهو ومعبد « دندرة » أحسن نموذجين حيّين للمعابد المصرية

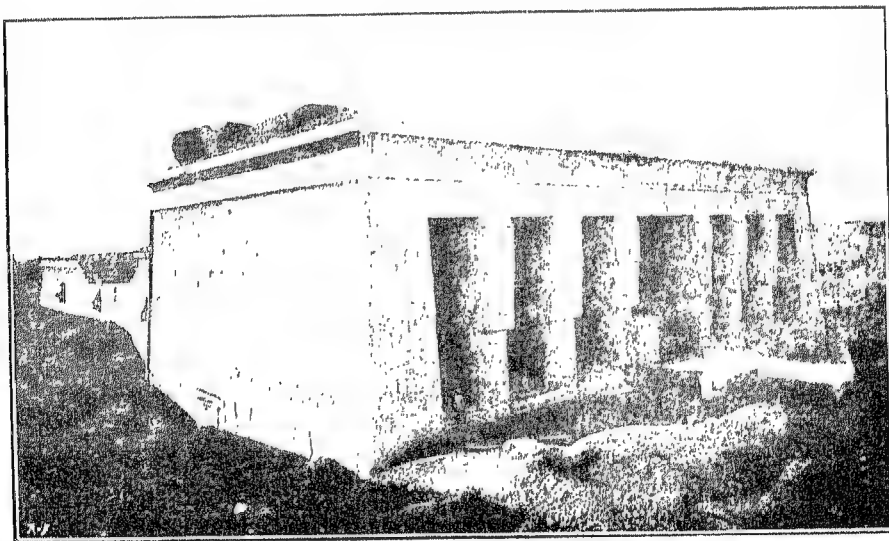
مسد ادفو

﴿ اضمحلال البطالسة ﴾

وبعد بطليموس الثالث تولى الملك بطليموس الرابع فالخامس فالسادس . وفي أيامهم استولى الضعف على مصر ولم يبق لها من أملاكها سوى قبرس وقيرينقية ، وكاد يُقضى عليها لولا حماية « رومية » لها . وكانت « رومية » إذ ذاك قد قويت شوكتها ، ورأت من مصالحها حماية مصر . فبقيت منذ ذلك التاريخ صاحبة الشأن في سياستها الخارجية حتى انتهت أيام البطالسة ، وغلبت عليها جملة . ولذلك لم تكن لمصر في هذه الفترة منزلة سياسية في العالم ، ومعظم الملوك الذين تولوا حكمها في هذه المدة كانوا



معبد آدفو (رسم لکجیان)



معبد دندره من الخارج (رسم لکجیان)

مستضعفين، وكثيراً ما قتلوا اخوتهم وأقاربهم للانفراد بالملك، وإن لم يحدث ذلك اهماً كبيراً في ترقية العلوم والمعارف أو في تشييد المباني والآثار وما زالت مصر على هذه الحالة حتى كانت وفاة « بطليموس الثالث عشر » خلفته ابنته « كليوبطرة » الشهيرة في سنة ٥١ ق. م. وسنأتي على ذكرها عند الكلام على علاقة « رومية » بالبطالسة

* حالة مصر *

في زمن البطالسة

كانت مصر زمن البطالسة على جانب عظيم من القوة والثروة، ولم تقل أملاكها في عهد معظم ملوكهم عن أملاك أعظم الفراعنة الأقدمين. نعم اتسعت دولتهم في عهد بعض ملوكهم أكثر من اتساعها في زمن آخرين، ولكن مصر لم تفقد طول مدتهم سيادتها في الجمة على « بركة » وقبرس وسورية وفلسطين. أما أعظم أيام ثروتها وعظمتها فكانت في عهد الأربعة البطالسة الأوائل. إذ كانت زمن « فيلادلف » أغنى مملكة في العالم. وكانت عظمة القصر الملكي بالاسكندرية ونخامته وأبهة الملك به أكبر ما رأت الدنيا الى ذلك الوقت

ولعصر البطالسة في مصر من الخواص والمزايا ما يجعله مغيراً لعصور الفراعنة. وأهم هذه الخواص ظهور العنصر الإغريقي ماثلاً في عظمة مصر، بل ان حضارة ذلك العصر هي في الحقيقة إغريقية الأصل، ولم تؤثر فيها بقايا الحضارة المصرية القديمة إلا فيما سمح به ملوك البطالسة عن قصد. فمثلاً كان ملوك البطالسة يظهرون في الحفلات الرسمية بزي الفراعنة

مميزات
عصر البطالسة

الأقدمين، وكانوا يقدمون الهدايا والقرايين للمعبودات المصرية ويشيدون المعابد والهياكل على الطراز المصرى القديم^(١)، وأحسن مثال لذلك باب معبد «خنسُو» بالكرك ومعبد إدفو ومعبد دندرة. كما كانوا يتزوجون بأخواتهم اسوة بالكثير من الفراعنة^(٢). كل ذلك إرضاءً للمصريين ورغبة في أن ينسبهم أنهم محكومون بملوك غرباء عن بلادهم بعيدين عن نسل آبائهم وأجدادهم. كان ملوك البطالسة يظهرون بكل هذه المظاهر ولكنهم كانوا إغريقين في معيشتهم وعاداتهم الداخلية بل في نظام حكومتهم وتشكيل جيوشهم

وكان المصريون في أول الأمر بمعزل عن البطالسة، ولما كثر ورود الإغريق الى مصر، وانتشروا في أنحاء البلاد، (انتشار تجار اليونان اليوم في قرى الأرياف) زاد الاختلاط بين العنصرين، وتظاهروا، وتعلم معظم المصريين اللغة الإغريقية التي صارت اذ ذاك اللغة الرسمية للبلاد وكان ملوك البطالسة يُعَنَوْنَ بترقية العلوم وإحياء الآداب. وقد أنشئوا لهذا دار كتب عظيمة بالاسكندرية ومدرسة جامعة كبرى كانت تعرف عندهم بدار التحف، وقد ذاع صيت الاسكندرية بهذين المعهدين

العلوم والمعارف
في زمن البطالسة

(١) كان معظم مباني البطالسة على الطراز الإغريقى ولكنهم كانوا يقيمون كثيراً من المباني لاسيما الدينية منها على الطراز المصرى القديم. ويشاهد فيما شيدوه من هذا النوع انهم كانوا يحاكون الفن المصرى، لكنهم لم يصلوا في ذلك الى حد الاتقان الذى بلغه قدماء المصريين

(٢) كانت هذه عادة عند ملوك قدماء المصريين وكان القصد منها حفظ الدم الملكى فى الأسرة المالكة



باب معبد خنسو بالكرنك (رسم محمد افندی علی سعودی)

حتى صارت كعبة للعلوم يؤمها طلاب العلم من جميع أنحاء العالم المتمددين
وبدار التحف كانت تتلقى العلوم الراقية على نظام شبيه بنظام الجامعات
في عصرنا. واختلف المؤرخون فيمن أسس هذا المعهد، وأرجح الأقوال
أن بطليموس الأول هو صاحب المشروع وأنه كان يذهب بنفسه الى
البلاد الإغريقية ليجمع أعظم الفلاسفة والعلماء من الإغريق ليذهبوا
معه الى الاسكندرية، فإن لم يكن المعهد قد فُتح في زمنه فهو الذي أعدَّ
له كل شيء، وبفضل أعماله تمكن ابنه بطليموس الثاني من افتتاحه
وأما دار الكتب المشهورة في التاريخ فقد جمع فيها ملوك البطالسة
من كتب الأمم القديمة ما وصلت اليه أيديهم، وكانت قسمين : قسمًا
ملحقًا بدار التحف وهو الأكبر، والقسم الآخر ملحق بمعبد السيرايوم،
ويقال ان القسم الأكبر كان به نحو ٧٠٠,٠٠٠ كتاب
وقد ساعدت هذه المعاهد على ازدياد عظمة الاسكندرية، فقصدتها
كبار العلماء والفلاسفة يدرسون بمدارسها ويشغلون بالبحث والتأليف
بمساعدة داري كتبها وتحفها. ومن بين هؤلاء عدد كبير حفظ ذكرهم التاريخ،
منهم «إقليدس» صاحب كتاب الأصول في الهندسة، ومنهم «إيرأتستين»
و «بطليموس» الجغرافيات و «هبارك» الفلكي و «أبولونيوس»
النحوى وغيرهم

ومما يؤسف له ان تاريخ هذه المعاهد مظلم جداً، واكثر ما نعرفه
عنها غير مقطوع بصحته لعدم عثورنا على ما يثبت ذلك من الآثار
غير ان من المجزوم به وجود داري التحف والكتب ورئيس لكلٍ
منهما ازدادت عظمة وظيفته باتساع نطاقها. ومن المشهور أيضاً ان جميع

دارا الكتب
والتحف
بالاسكندرية

ماله اختصاص بهما ، من انتخاب قوّة وعمّال ، ومن ترتيب ونظام ، كان اغريقياً لا مصرياً ، وان المصريين لم ينتفعوا بهما وبقوا بعيدين عنهما حتى اندثارهما بسبب إحراق دار الكتب

وقد اختلف المؤرخون أيضاً بشأن احراق هذه الخزانة العظيمة : فمن قائل ان يوليوس قيصر أحرّقها مع أسطوله يوم بغته المصريون على غير استعداد ، ومن قائل انها أُحرقت بعده بنحو ١٠٠ سنة ، ومن قائل ان عمرو بن العاص أحرّقها بأمر من الخليفة عمر رضى الله عنه ، ولكن كبار مؤرخى الافرنج ينكرون صحة هذا القول الأخير

حراق دار كتب
الاسكندرية

وكان لملوك البطالسة شغف زائد بالأدب ، وكانوا يكثرّون من الاجتماع بأهله وتقريبهم منهم ، بل ان بعضهم كان يشتغل بنفسه بالكتابة والتأليف . فمن هؤلاء بطليموس الأول الذى كتب كتاباً فى تاريخ الاسكندر ، و بطليموس الرابع الذى ألف أسطورة تمثيلية ، و بطليموس التاسع فانه مع ما اشتهر به من سوء الخلق ألف كتاب « المذكرات » عن نفسه فى أربعة وعشرين جزءاً . وله انتقادات لشعر هويميروس

لأدب فى زمن
البطالسة

وقد كان لهذه العناية تأثير كبير فى ارتقاء الأدب الإغريق وكثرة الكتابة والتأليف

لما استولت البطالسة على مصر أدخلوا بالبلاد كثيراً من الإغريق انتشروا فى جميع أنحاء القطر ونشروا صناعاتهم فيه فتعلمها منهم المصريون . وقد تمكن صناع العنصرين من الوصول بالصناعة الى الحد الذى يلائم تلك الحضارة العظيمة التى تحيط بهم

صناعة والتجارة
زمن البطالسة

أما التجارة فقد وصلت الى درجة عظيمة جداً فى زمنهم ولا سيما

عهد بطليموس الثانى (فيلادلف) إذ كانت التجارة عظيمة بين مصر والبلاد التى على شواطئ البحر الأحمر حتى بلاد « بنت » جنوباً . وكانت السفن المصرية تسافر من السويس الى عدن و بلاد العرب ، وقيل أيضاً انها كانت تصل الى بلاد الهند ، كما انها كانت تسافر الى بلاد عديدة على شواطئ قارة إفريقيا . ومما ساعد على نمو التجارة اصلاح طريق القوافل الموصل بين الوجه القبلى وشاطئ البحر الأحمر مختزلاً وادى الحمايات وتأمين السابلة فيه ، وكانت ترد الى مصر حاصلات بلاد النوبة وبلاد السودان الشرقية كما كانت ترد فى الأزمنة المتقدمة . وأما التجارة بين مصر وبين المستعمرات الإغريقية الأخرى المنتشرة على شواطئ البحر الأبيض فكانت متواصلة ذات فائدة كبرى لمصر

ومن الأسباب المهمة فى رواج التجارة المصرية فى ذلك العصر وجود الكثيرين من الاسرائيليين بالاسكندرية وتمتعهم هم وغيرهم من المالىين بمزايا تجعلهم لا يرضون باستخدام أموالهم فى التجارة ، بفضل استتباب الأمن بالبلاد ووجود جيش وأسطول حربى يحميان مصالح التاجر ويضمنان لأمواله السلامة

الفصل الثالث

كلمة فى الرومان (الروم)

كانت الرومان من أشد أُمم الأرض بطشاً ، وأوسعهم مذكاً ، وأكثرهم تمدناً . وقد بقى لحضارتهم بعد ان بادوا أثر كبير فى مدنية أوربا ،

ولاسيما الأمور المتعلقة بالقوانين وتشكيل الحكومة وغير ذلك مما نشره
من حضارة الإغريق . ولذا اعتُبرت دولتهم أعظم من كثير من الدول
القديمة التي ظهرت في أزمان التاريخ

وسُميت هذه الدولة بدولة الرومان نسبةً الى « رومية » التي كانت
مهدَ نشأتهم . ولسنا نعرف قطعاً وقت بنائها ولا المؤسسين لها، وان كانت
الأقاصيص الخاصة بذلك كثيرة ، وكلها تشير الى ان مؤسسها هو
« روميُّلوس » ، وأن تأسسها كان في القرن الثامن قبل الميلاد

وكانت « رومية » في أول أمرها مدينة صغيرة على نهر « التَّيْبَر »
يسكنها قوم من اللاتينيين ، ثم عظمت شيئاً فشيئاً . وكان اللاتينيون
منتشرين أيضاً في القرى المجاورة لها ، فاتحدوا جميعاً تحت رئاسة « رومية »
للدفاع عن أنفسهم اذا هاجمهم غيرهم . ويُعرف ذلك « بالاتحاد اللاتيني »

منشأ رومية

✽ أطوار تاريخ الرومان ✽

ينقسم تاريخ الرومان الى ثلاثة أطوار:

١ - « طور الملكية » . ويمتد من تأسيس « رومية » الى
سنة ٥١٠ ق . م

٢ - « طور الجمهورية » . ويمتد من سنة ٥١٠ الى سنة ٣٠ ق . م

٣ - « طور الامبراطورية » . ويمتد من سنة ٣٠ ق . م الى
سنة ١٤٥٣ م

كانت حكومة « رومية » ، ملكية في العهد الأول ، فطغى بعض
طور الملكية

ملوكها وظلم ، فأخرجه الرومان من المدينة وألّفوا حكومة جمهورية حوالى سنة ٥١٠ ق . م

وكان القابضُ على زمام الأمور فى أيام الجمهورية رئيسين يدعى كل طور الجمهورية منهما « قُنْصُلًا » . ليمنع أحدهما الآخر محاولة الجور والاعتساف . وكانت تنتخبهما جمعية عمومية لمدة سنة واحدة . ومن حق هذه الجمعية النصح للقنصلين والنظر فيما يريدان سنّه من القوانين . وعلاوة على ذلك كانت تشمل هيئة الحكومة مجلساً آخر يقال له « مجلس الشيوخ » أو « السِنَاتُو » وأعضاؤه من رؤساء أسرات الأشراف ، غير ان رأيه كان استشارياً محضاً . وفى الأوقات الحرجة التى يُخشى على البلد فيها مما قد يقع من النزاع بين القنصلين كان يُعين لرياسة الحكومة شخص مطلق السلطة على الجيش يسمى « دِكْتَاتُورًا » ، ولا تزيد مدة حكمه على ستة أشهر

وكان برومية فى أوائل أيام الجمهورية طبقتان من السكان : الأشراف والنزاع بين طبقى السكان فى رومية ويسمون « البطارقة » ، والعامّة ويسمون « البليّيان » (السوقة) وكانوا أذلاء محتقرين محرومين من اللّحاق بعمال الحكومة ، وممنوعين من التزوّج بأحد من أسرات البطارقة . وكان هؤلاء يستعبدونهم لشدة فقرهم واضطرارهم الى اقتراض المال منهم . فلما سئموا هذه الحالة هاجروا جملةً من « رومية » سنة ٤٩٤ ق . م . الى مكان يدعى « الجبل المقدس » حيث كانوا يريدون انشاء مدينة جديدة لهم . فهال الأشراف هذا الأمر ، لأنهم فقدوا به طبقة العملة والخدمة وأصبحوا لا يستطيعون المعيشة فى هناء ، فخفضوا لمطالبهم وعيّنوا منهم حاكِمين يسمى كل منهما « ترييونا » (أطرَبونا) للمحافظة على حقوقهم ، وكان من حق الترييون أن يمنع سن القوانين

المضرة بمصلحة البليان ، وكل من تعدّى على حقه جوزى بالقتل . فعاد البليان الى « رومية » وأخذ الحاكم المحافظان على مصالحهم يزيدان في حقوقهم شيئاً فشيئاً : ففي سنة ٤٥٠ ق . م . دُوِّنت القوانين بعد ان كانت مفهومة إجمالاً يتلاعب الأشراف في تطبيقها كيف شاءوا . وفي سنة ٤٤٤ خُوِّل للبليان حق انتخاب القناصل منهم اسوة بالأشراف ، وإن كان لم ينتخب أول قنصل منهم إلا سنة ٣٦٦ ق . م . وما زالت حقوقهم تزداد شيئاً فشيئاً حتى انتهى الأمر بمساواتهم بالأشراف من كل وجه سنة ٣٠٠ ق . م . وبالتدرج نُسِيَ الفرق بين الطبقتين

﴿ نموّ سلطان رومية وامتداده على غيرها ﴾

من البلدان

لما قويت حكومة الجمهورية أخذت في توسيع نطاق « رومية » وبسط سلطانها على ما جاورها من البلدان . وكان يمتد على الشاطئ الغربي من إيطاليا شمالي « رومية » مقاطعة عظيمة تسمى « إتروريا » يُعرف أهلها بالإترُسك ، وهم من أشد أعداء الرومان ، فنشبت بينهم حروب طويلة انتهت باستيلاء الرومان على « فياي » أمنع حصونهم سنة ٣٩٦ ق . م ، فقضى ذلك على قوة « الإترُسك » ، وأعقبه غلبة الرومان على جميع بلادهم بلداً فبلداً

غزو اتروريا

وفي سنة ٣٩٠ ق . م حدث أمر أوقف فتوح الرومان وكاد يقضى على مجدهم . وذلك ان « الغالين » (وهم جنس بربرى سكن إيطاليا شمالي نهر « بو ») زحفوا جنوباً نحو « رومية » ابتغاء السلب والنهب ، فبرزت

هجوم الغالين
على رومية

اليهم الجيوش الرومانية ولاقوهم على نهر « إليا » بالقرب من مدينة « رومية »، فدارت الدائرة على الرومان وولوا مدبرين الى المدينة ، فافتحمها الغاليون عليهم قبل ان يستعد أهلها للدفاع عنها ، واستباحوها سلباً وتحريقاً ، ولم يسكوا عن تدميرها جميعها إلا بعد ان الهام عنها أهلها بالكثير من المال

ولما انتعش الرومان مما أصابهم من الوهن بعد هذه الهزيمة عادوا الى السير في طريق الفتح . وكان « السَّمنِيُّونَ » أكبر أعدائهم فألبوا عليهم أكثر سكان إيطاليا من « الإترُسلُك » و « الغالين » و « الإغريق » ، وبذلك خاضت « رومية » سنة ٣٤٣ ق . م حروباً طويلة استغرقت أكثر من قرن ، وانتهى الأمر بفلج الرومان وفوزهم على جميع أعدائهم . فأصبحوا أرباب السيادة على شبه جزيرة إيطاليا الأقليلاً

وبقيت بعد هذه الحروب مدينة ذات ثروة هائلة في جنوب إيطاليا تسمى « تارنتو » لم تخضع هي أو لواحقها من المستعمرات الإغريقية لنفوذ الرومان . واستنجدوا « بيروس » ملك « أبيروس » (مقاطعة بيلاد الإغريق) . وكان بينه وبين الاسكندر قرابة ، فطمع « بيروس » في تكوين دولة عظيمة بالمغرب تضارع التي أسسها قريبه بالشرق ، فهم إلى مساعدة أهل « تارنتو » وقهر الرومان في واقعة « هرقله » سنة ٢٨٠ ق . م . ثم قهرهم ثانية في « عسقلان » سنة ٢٧٩ ق . م ، ولكنه خسر خسارة عظيمة يضرب بها المثل أضاعت عليه ثمرة انتصاره . وفي سنة ٢٧٥ ق . م . هزمه الرومان في واقعة « بغنتم » هزيمة قضت على آماله ، وتراجع بجيوشه من إيطاليا . وفي سنة ٢٧٢ ق . م سقطت « تارنتو » في قبضة الرومان ، وبذلك

السمنيون

حروب بيروس

تمَّ استيلاء « رومية » على جميع أنحاء إيطاليا
ولما ان تمت لرومية السيادة المطلقة على شبه جزيرة إيطاليا ولَّتْ
وجهها الى ما وراء ذلك ، فلم تجد أمامها أمة عظيمة تحشى اعتراضها في
طريقها سوى القرطاجيّين

﴿ النزاع بين رومية وقرطاجنة ﴾

أسس الفينيقيون مدينة « قَرطَاجَنَّة » على شاطئ أفريقيا الشمالى
بالقرب من موقع مدينة « تونس » الحالية في القرن التاسع قبل الميلاد ،
وأنشئوا حولها مستعمرة جميلة . ثم أخذت هذه المستعمرة في التقدم حتى
صارت دولة عظيمة شديدة البأس ، وأصبحت بعد أن ضعفت شوكة
الفينيقيين أنفسهم في الشرق أعظم دولة تجارية في البحر الأبيض المتوسط .
فكان القرطاجنيون أوفر من الرومان مالاً واكبر منهم أسطولاً ،
ولأسطولهم السلطان الأعظم على البحر الأبيض من جزيرة صقلية الى
الى مجاز جبل طارق . وكانوا يملكون فيه جزءاً من صقلية وسردينيا
وقُرشقة وعدة ولايات على شاطئ اسبانيا . وأما أملاكهم في افريقية
فكانت تشمل معظم الأراضى المعروفة الآن بتونس والجزائر ومرّاكش

قرطاجنة

﴿ الحروب البونية وأسبابها ﴾

يُعلم مما تقدم أنه لم يكن بد من حدوث تنافس بين دولتي قرطاجنة
ورومية ، اذ الأولى لها السيادة على البحر الأبيض المتوسط والثانية آخذة
في توسيع نطاق أملاكها وتجارتها في ذلك البحر ، فنشبت بينهما بسبب

هذه المنافسة حروب طويلة تسمى «الحروب البونية» أو (البونيقية) ، ومعناها الفينيقية لأن القرطاجنيين فينيقيو الأصل . وهي ثلاث حروب :

✽ الحرب الأولى ✽

(٢٦٤ — ٢٤١ ق . م)

بدأت هذه الحروب بسبب تدخل الرومان في جزيرة صقلية
وارسال جنودهم اليها وقبضهم على مدينة «مِسَّانا» (مِسِيني) . وهذه الحرب
عظيمة الشأن من حيث كانت أولى الحروب البحرية التي دخلت فيها
رومية . ولم يكن للرومان إذ ذاك أسطول ما ، فلما أدركوا عظيم بلائه في
هذه الحروب شيدوا (على ما قيل) ما يربو على مائة سفينة في شهرين
وحاربوا القرطاجنيين بحراً في «ميلي» بالجزيرة المذكورة سنة ٢٦٠ ق . م .
فقهرروهم واستولوا على جزيرة صقلية ، فكانت هذه أول مستعمرة لهم وراء
شبه جزيرة ايطاليا . ولم تنتهِ الحرب عند ذلك بل لبثت سجالات عهداً
طويلاً ، وانهمز في خلالها الرومان انهزماً عظيماً في «إفريقية» بقيادة
«ريجولوس» سنة ٢٥٦ ق . م . ثم اقتضت الحرب على جزيرة صقلية
كما كانت من قبل . وفي انائها انهزم الرومان بحراً في واقعة «جِبَاثُم» ثم
انتصروا على القرطاجنيين في موقعة فاصلة بالقرب من جزائر «إجيت»
سنة ٢٤١ ق . م . فعقد الصلح بين الفريقين ، وبه تمّ للرومان الاستيلاء
على جزيرة صقلية

﴿ الحرب الثانية ﴾

(٢١٨ - ٢٠١ ق م)

بعد الحرب البونية الأولى حدثت فتن وقلاقل في « قرطاجنة » كادت تقضى عليها ، لولا ان رجلا عظيماً فيها يدعى « هَمَلْكَار » أخذ تلك الثورة وأعرض خسارة صقلية باستيلائه على الجزء الأكبر من اسبانيا ، وهنالك درّب جيشاً عظيماً تاهب للانتقام لبلاده من أعدائها . وكان الرومان قد اتهموا فرصة حدوث الفتن في « قرطاجنة » واغتصبوا « سَرْدَانِيَّة » و « فُرْشُقَّة » من القرطاجنيين ، فكان هذا أدعى لاستئناف القتال بين الفريقين . والسبب الذي دعا الى نشوب الحرب أن القرطاجنيين حاصروا مدينة « سَغَنْثُمْ » الإغريقية باسبانيا ، وكانت موالية لرومية ، فابتدأت بذلك الحرب البونية الثانية

وهذه الحرب هي أهم الحروب البونية جميعها ، للحوادث العظيمة التي حدثت فيها والشهرة الطائلة التي نالها بطلها وهو « أنيبال » ابن « هَمَلْكَار » السالف الذكر وكان « أنيبال » من أشد الناس وفاءً لوطنه وأكثرهم تقانياً في خدمته والانتقام له . وكان قائداً حربياً كبيراً تحبه جنوده ،



أنيبال

(أنيبال)

وتها به أعداؤه، على شدة بأسهم وقوة جيوشهم. وهو بلا شك من أعظم القواد الذين ظهوروا في أزمان التاريخ وتوقع الرومان أن تكون الحرب في أسبانيا فأخذوا يعدّون الجيوش لغزوها وأغفلوا مهارة أنيبال النادرة ومبدأه في الحرب، وهو « أن الهجوم أحسن وسيلة الدفاع ». فبينما هم كذلك اذ أنيبال قد انقض على سهول إيطاليا

وذلك ان « أنيبال » سار سنة ٢١٨ ق . م . في جيش من الرجال مسيره الى إيطاليا الأشداء عبر به جبال « البرانس »، ثم اخترق بلاد « الغال » المعروفة الآن بفرنسا، واقتحم جبال « الألب » ونزل منها الى وادى نهر « بو ». فكان مسيره هذا من أغرب ما يمكن لقائد أن يأتي به، بل لم ير التنازع الى الآن عملاً حريياً أبدع ولا أحكم منه بالاضافة الى خشونة المعدات وقلة المواصلات . دُعر الرومان من ذلك، فهرولت جيوشهم الى الشمال لصده. فقهرهم أنيبال في موقعتين في وادى نهر « بو » ثم عبر جبال أبنين وسار نحو رومية . وكان إذ ذاك قد انضم الى جيشه عدد كبير من أهل الغال . ولما ان تبعته الجيوش الرومانية هيأ لهم خديعة هزمهم بها

شر هزيمة في واقعة بحيرة « ترازين » سنة ٢١٧ ق . م . حيث قُتل قنصلهم، وقضى فيها على رجالهم . وربما كان الأجدر بأنيبال إذ ذاك أن ينقض على « رومية »، ولعله رأى أن يؤجل ذلك الى أن يزيد من ضعفها بالاستيلاء على الجهات المجاورة لها . وفي السنة التالية جمع الرومان أكبر جيش استطاعوا جمعه وساروا به لمقاتلة أنيبال، فتقابل الجيشان في واقعة « كان » بالجنوب الشرقى من إيطاليا سنة ٢١٦، أظهر فيها أنيبال من

واقعة ترازين
سنة ٢١٧

واقعة كان
سنة ٢١٦

المهارة والمقدرة ما أفنى به الجيش الرومانى (وكان عدده ٨٠٠٠٠ مقاتل) فلم ينج منه الأمن وقع فى الأسر . ولو كان مجد الرومانيين مشيداً على القوة الحربية فقط ، ولم يكن لهم الحظ الأكبر فى السياسة ونظام الحكومة ، لكانت هذه الواقعة قاضية على سلطانهم

واقعة متوروس
سنة ٢٠٧

بقى أنيبال بايطاليا خمسة عشر عاماً (من سنة ٢١٨ الى سنة ٢٠٢ ق.م.) وهو يقهر الرومان المرة بعد الأخرى ، غير أنه لم يستطع الاستيلاء على رومية ذاتها . وفى أواخر تلك المدة كان بالطبع فى حاجة الى نجدة من قرطاجنة ، فسار اليه أخوه فى جيش من أسبانيا ، فقابله الرومان فى الشمال الشرقى منها وقتلوه وهزموا جيشه على نهر متوروس سنة ٢٠٧ ق.م . فكان لهذه الواقعة تأثير كبير فى الحروب البونية ، بل فى تاريخ رومية والنزاع بينها وبين قرطاجنة ، إذ بسببها منعت عن أنيبال الأمداد التى كان ينتظرها والتى كان فى أشد الحاجة اليها . على ان أنيبال بقى ثابت الجأش يواصل القتال فى جنوب ايطاليا حتى استدعى الى بلاده لحماية « قرطاجنة » ذاتها

وذلك ان القائد الرومانى « شيبون » (الذى لُقّب فيما بعد بالإفريقى لفتحته إفريقية) ترك ايطاليا وذهب بجيش الى إفريقية . ولما رأت قرطاجنة نفسها فى خطر منه استدعت أنيبال فرجع اليها مسرعاً . ولكن حدث ما كان يخشاه بعد قتل أخيه ، فانتصر شيبون على أنيبال انتصاراً عظيماً فى واقعة (زاما) بالقرب من قرطاجنة سنة ٢٠٢ ق.م . وعند ذلك عقد الصلح بين الدولتين على شرط أن تتنازل قرطاجنة عن اسبانيا وجزائرها التى فى البحر الأبيض المتوسط ، وأن تدفع لرومية جزية سنوية

واقعة زاما
سنة ٢٠٢
الصلح

كبيرة ، وأن تسلّم أسطولها اليها ، وأن لا تحارب أحداً إلا بأذنها . وعندئذٍ اضطر أنيبال الى الفرار من قرطاجنة . ثم ألّب ملك مقدونية وملك سورية على محاربة الرومان وحارب بنفسه في جيوشهما ، ولما لم يفلح تناول السم ففضى على حياته سنة ١٨٣ ق . م . مخافة أن يقع في أيدي الرومان أعدائه

✽ الحرب الثالثة ✽

(١٤٩ — ١٤٦)

اتفق أن أحد ملوك إفريقية المجاورين لقرطاجنة تعدّى عليها وأهانها مراراً عديدة ، فهتّت « قرطاجنة » بالدفاع عن نفسها ، فاعتبر الرومان ذلك مخالفاً لشروط الصلح الذي تم بينها وبينهم سنة ٢٠١ وشنوا عليها الغارة . فلما أنست « قرطاجنة » من نفسها الضعف طلبت من الرومان الصلح بالشروط التي يختارونها ، فطلبوا منها تسليم جميع أساحتها وأسطولها ، وبعد أن فعل القرطاجنيون ذلك طلب منهم الرومان الجلاء عن المدينة واتخاذ مكان جديد لهم يبعد عن البحر بنحو عشرة أميال . فحال القرطاجنيون ذلك ، واتقلب ضعفهم الى شجاعة اليأس ، فقاموا رجالاً ونساءً ، كباراً وصغاراً للدفاع عن مدينتهم ، وبنوا لهم أسطولاً جديداً وردوا هجمة الرومان ، فبقي هؤلاء سنتين كاملتين غير قادرين على أخذ المدينة ، ولكنهم تمكنوا أخيراً من الاستيلاء عليها وأحرقوها ، وبذا قضوا على أكبر أعدائهم احراق قرطاجنة وأعظم عائق لاتساع ملكهم . فكان ذلك ابتداء سيادتهم في المغرب

✽ فتوح الرومان ✽

لم تكن أطماع الرومان قاصرة على الغرب ، بل لم تنتهِ الحروب البونية

حتى استولت رومية على مقدونية (سنة ١٦٨ ق . م .) وبسطت سيادتها التامة على بلاد الإغريق (١٤٦ ق . م .) وجزء كبير من آسيا الصغرى ، فوق ما استولت عليه من قبل من صقلية وسردانية وقرشقة وجنوبي جبال الألب من بلاد الغال ، واسبانيا وإفريقية . وقد واصلت فتوحها في الشرق حتى تم لها على يد « بومبي » (بومبيوس) الاستيلاء على جميع سورية واكثر آسيا الصغرى سنة ٦٣ ق . م .

ثم فتح يوليوس قيصر ما وراء جبال الألب من بلاد الغال (٥٨ — ٥٠ ق . م .) ثم برطانية سنة ٥٥ ق . م .

وفي سنة ٣١ ق . م . استولى أكتافيوس على مصر عقب واقعة « أكتيوم » ، وسيأتي ذكر ذلك في الكلام على علاقة الرومان بالبطالسة

✽ اضمحلال الجمهورية وتأسيس الامبراطورية ✽

لما أخذت الدولة الرومانية في هذا الاتساع العظيم أصبح أعضاء الجمعية العمومية غير قادرين على إدارة سياستها لعدم درايتهم بشؤون تلك الممالك الواسعة البعيدة عن بلادهم ، فأخذ أعضاء مجلس السناتو ينفردون بإدارة الدولة فدب فيهم روح الطمع واغتصاب الأموال الطائلة والانغماس في الترف والتنعيم ، ثم انهم قصروا المناصب الكبيرة على أقاربهم أو من على شاكلتهم من الأشراف . فأصبحت حال الطبقات الأخرى سيئة جداً ، لسوء أعمال طبقة الأشراف ، ولا تنشار الرقيق انتشاراً عظيماً لكثرة أسرى الحروب العديدة التي نمت بها أملاك الدولة . فكان هؤلاء الأسرى يُسخَّرون في زراعة الأرض فيرخص بذلك المحصول فلا يستطيع

اسباب الضعف

المزارع الحرّ الصغير استدامة زراعة أرضه ، لأن المال الذى يكتسبه منها أصبح لا يفي بجاحه ، فانتشر الفقر فى البلاد بين الطبقات الدنيا وأصبح كثير من الناس اعطالاً ، وهرعوا الى مدينة رومية ليعيشوا من السؤال وتبرعات الأشراف . ولم تُوفّق حكومة الجمهورية الى حسن ادارة تلك الأملاك الشاسعة ، وعجزت عن سن النظام الكفيل بذلك ، فأدّت هذه الحال السيئة بالطبع الى القلاقل والفتن بالرغم من مساعى المصلحين ، ووقعت البلاد فى حروب داخلية استمرت مدة طويلة . وقد ساعد على الحروب الداخلية ذلك ما قام من المنافسة بين كبار قوّاد الجيش ، فان الواحد منهم كان اذا عاد من غزوة منتصراً عمل على نزع السلطة من غيره وجمعها فى يده ، فمن ذلك ان « مَريوس » تمكن بفضل انتصاراته بين سنتى ١١٣ و ٩٠ ق . م . من تقلّد منصب القنصلية سبع مرات ، ثم قام قائد آخر يدعى « سيلّا » وقاومه حتى أخرجته من « رومية » ، ولما عاد هو منتصراً من حروبه بأسيا الصغرى سنة ٨٢ ق . م . نُصِب « دِكتاتورا »* على الدوام ومن ذلك أيضاً ان « بومبي » لما تم له صدّ غارة داخلية فى اسبانيا وأخذ ثورة كان قد قام بها المصارعون فى رومية جعل قنصلاً سنة ٧٠ ق . م . ولما عاد من فتوحه العظيمة فى الشرق سنة ٦١ ق . م . اتفق مع اثنين آخرين من القواد وهما « يوليوس قيصر » و « كراسوس » على ان يغتصبوا السلطة من الجمهورية تدريجاً ويتسموها بينهم ، فظفر كل منهم بمأربه . ويعرف ذلك « بالحكومة الثلاثية الأولى » . وبعد قليل مات كراسوس فبقيت السلطة للاثنين الآخرين . وكان « قيصر » قد أُعطي القيادة فى بلاد الغال

الحكومة
الثلاثية الاولى

* ومعناه صاحب الكلمة المطلقة

فقضى في فتحها من سنة ٥٨ الى سنة ٥١ ق. م. حتى أخضع أهلها،
ونشر بينهم الحضارة الرومانية. وكان «بومبي» قد أُعطي حكم اسبانيا،
فأناب عنه من يحكمها، وبقي هو برومية يبغي القبض على زمام الأمور بها،
حتى نُصِب بعدُ قنصلاً. ولما خشي من ازدياد شوكة «قيصر» عمل بالاتحاد

مع رجال السناتو على سلب السلطة منه
ولكن «قيصر» لم يكن بالرجل الذي
يُغلب على أمره، بل كان من أعظم رجال
التاريخ قيادةً وسياسةً وبلاغةً، فهجم
قيصر بجيشه بغتة على ايطاليا فاستولى
عليها في ستين يوماً. ثم قهر قواد بومبي
في اسبانيا سنة ٥٢ ق. م. وفي السنة
التالية تبع بومبي الى بلاد اليونان فهزمه
في واقعة «فرساليا» (سنة ٤٨ ق. م.).
ثم فرَّ «بومبي» الى مصر فتبعه اليها بعد
ان بدد شمل جيشه، فكان من أمر



يوليوس قيصر
وبومبي

واقعة فرساليا
سنة ٤٨ ق م

(يوليوس قيصر)

عن تمثال بدار آثار الاسكندرية
رسم محمد افندي على سعودى

قتله ما كان مما سيأتى ذكره عند الكلام على انقراض دولة البطالسة.
ثم تغلب قيصر على الحزب الموالى لبومبي. وما زال يجمع لنفسه من النفوذ
والسلطان بمهارته وحسن سياسته حتى قبض على جميع الأعمال في رومية
وصار أشبه بملك منفرد بالحكم، وهو بلا شك كان ينوى تأسيس أسرة
ملكية يتناول فيها الحكم الولد عن أبيه. وقد سلك سبيل الإصلاح باذلاً
ما في وسعه لتوطيد السكينة في البلاد، غير أن فئة من المحافظين لم يرق

ذلك في أعينهم واتهموه بأنه يعمل على استعباد الرومان ، فألقوا منهم
عصابة سرية بزعماء « بُرُوتوس » وقتلوه في منتصف شهر مارس سنة ٤٤ ق.م
على أن زعماء هذه الحركة لم يحنوا فائدة من وراء فعلتهم ، بل أضرّموا بذلك
حرباً داخلية أخرى ، فنقم عليهم ثلاثة من القواد المنتصرين لقيصر وهم
« أُكتافيوس » (وكان من أسرة يوليوس قيصر) و « لبيدوس » و « أنطونيوس »
(انطوان) وكونوا منهم « الحكومة الثلاثية الثانية » وقهروا الشائرين في
موقعة « فلبّي » (بمقدونية) سنة ٤٢ ق.م. ثم فصل لبيدوس منهم وبقى
الحكم في أيدي أكتافيوس وأنطونيوس . ثم وقع بين هذين من التنازع ما
أفضى أخيراً الى واقعة « أكتيوم » سنة ٣١ ق.م. التي كانت نتيجتها
انتصار أكتافيوس واستيلاء الرومان على مصر جملةً

قتل قيصر

الحكومة
الثلاثية الثانية

واقعة فلبّي
سنة ٤٢ ق.م

الفصل الرابع

علاقة الرومان بالبطالسة

ما كادت دولة « الرومان » تظهر بين ممالك الأرض حتى أخذت
العلائق تنشأ بينها وبين دولة البطالسة في مصر ، ولبثت بين الدولتين
مدة طويلة من أيام مجد البطالسة الى انقراضهم تقلّبت أثناءها في عدة
أطوار : ابتدأت بمصادقة الرومان للبطالسة ، ثم انتقلت الى حمايتهم لهم ،
ثم السيطرة عليهم ، ثم انتهت باستيلائهم على مصر . ويُخلص سير هذه
العلائق من مبدئها فيما يأتي : —

ابتدأت العلائق بين الدولتين بإرسال « بطليموس الثاني » وفداً

بطليموس الثاني
يُخطب
ود الرومان
الى « رومية » ليخطب ودّها (فكأنّه كان يعرف ما لها من المستقبل العظيم) . فقبلت رومية صداقة مصر ، ومن ذلك الحين كثرت التجارة بين ايطاليا والاسكندرية

ثم أخذت هذه العلاقة تتدرّج في أطوار جديدة بدخول ملوك البطالسة في طور الضعف والاضمحلال : ففي سنة ١٧٣ ق. م. أراد « أنطيوخوس » ملك سورية الاستيلاء على مصر استخفافاً ببطليموس « السابع » الذي لم يتجاوز سنّه اذ ذاك الخامسة عشرة ، فحاصر « أنطيوخوس » مدينة الاسكندرية . فتدخل الرومان في الأمر وثبتّوا « بطليموس » في عرشه وردّوا « أنطيوخوس » الى بلاده . ثم ان « بطليموس » هذا طرده أخ له من مصر بعد ذلك بوضع سنين . فذهب الى « رومية » في حالة رثّة يطلب المعونة ، فاتفق مجلس « السناتو » على أن يعاد الى « بطليموس » ملك مصر وأن يُعطى أخوه « برقة » ، فرضى الأخوان بهذا الحكم احتراماً لرومية ، وان لم ينطبق تماماً على رغبة كليهما

وفي عهد « بطليموس التاسع » حضر القائد الروماني « شيبون الإفريقي » الى مصر لمشاهدتها واختبار أحوالها ، فقوبل بترحاب كبير ، وان كانت زيارته لم تأتِ بنتيجة معينة . كذلك أرسل « سيلّا » سفيراً سنة ٨٧ ق. م. ليطالب من « بطليموس العاشر » مساعدة الجمهورية في الحروب الكثيرة التي كانت اذ ذاك قائمة بها ، فلم يجب « بطليموس » ملتتمسه ، وإن كان قد أكرم سفيره اكراماً كبيراً

رومية تؤيد
بطليموس
الثالث عشر
وفي سنة ٨١ ق. م. قام « بطليموس الثالث عشر » مطالباً بالملك بدون أن يكون له حق ظاهر فيه ، وكانت شوكة « الرومان » حينئذٍ قد قويت

فأصبح الذى يطالب بالملك يضمّنه متى عزّزته رومية . فرشا رجالها بمال كثير ففاز بالحكم مدة من الزمان ، وإن كان « يوليوس قيصر » قد حاول أن يحظى بمصر لنفسه

ثم قام المصريون أنفسهم ونفوا « بطليموس الثالث عشر » من البلاد ، فشغل الرومان بشأنه وخطب خطيبهم « شيشرون » مدافعاً عنه واقترح إعادة الملك اليه ، فأرسل « بومبي » وحاكم سورية الروماني جديشاً لتنفيذ ذلك ، فهزموا الجيوش المصرية وأعادوا بطليموس الى عرشه . فكان ذلك من أكبر مظاهر قوّة « رومية » ومقدار ما وصل اليه نفوذها فى مصر حتى بات ملوك مصر لا يأمنون على ملكهم بدونها

وعند وفاة « بطليموس الثالث عشر » سنة ٥١ ق . م أوصى بأن تخلّفه فى الملك ابنته « كليوبطرة * » ، وحفظ صورة مخطومة من هذه الوصية فى مصر وأرسل صورة أخرى الى « رومية » حرصاً على تنفيذها بعد مماته وفى أيام « كليوبطرة » تمّ استيلاء الرومان جملةً على مصر ، فأصبحت ولاية رومانية كما سيأتى بيانه :

﴿ كليوبطرة ﴾

« تولت » كليوبطرة « الملك بعد وفاة أبيها سنة ٥١ ق . م وكان سنّها إذ ذاك ١٦ سنة ، فأشركت معها فى الملك أخاها بطليموس الرابع عشر طبقاً لوصية أبيها . ولكن بعد مضى أربع سنوات عليها أوعز الأوصياء

* بعض المؤرخين يُسميها كليوبطرة السادسة والآخرون يقول أنها السابعة ، وقد اطلنا الكلام عليها نوعاً للشهرة التى نالتها فى عالم التاريخ والروايات

الى أخيها بأن ينفرد بالملك ، وكان قد بلغ إذ ذاك ١٤ سنة فسمع لهم . ولما لم تقدر كليو بطرة على اضطهاد الشعب لها ذهبت الى سورية وجمعت جيشاً في بضعة أشهر وعادت الى

مصر سنة ٤٨ ق . م لتسترد عرشها . فتقابل جيشها مع جيش أخيها على الحدود ، وعند ذلك وصل « يوليوس قيصر » الى مصر فصرف كل من المتحاربين جيشه ورفع أمرهما الى قيصر

وكانت كليو بطرة ذات جمال وافر ورشاقة بديعة . وكانت على جانب عظيم من الدهاء والفطنة ، ولها المام بلغات عديدة واطلاع واسع

في الأدب ، فأثر كل ذلك في قيصر ، وقرر أن تتولى الحكم مع أخيها وأن تزوج به طبقاً لعادة الكثير من الملوك المصريين

وكان أحد القواد المصريين قد قام وتشد لإخراج قيصر من مصر وبغته بالاسكندرية بجيش كبير . ولم يكن قيصر على تمام الأهبة فاضطر لإحراق أسطوله خشية أن يقع في يد المصريين . ويقال ان مكتبة الاسكندرية أحرقت أيضاً بهذا السبب . ثم استمر القتال طويلاً بين قيصر



يصر يحكم بين
كليو بطرة وأخيها

(كليو بطرة)

عن تمثال بدار آثار الاسكندرية
رسم محمد افندى على سعودى

والقائد المصرى ، ولما وصل الى قيصر المدد تمكن من التغلب على الجيوش المصرية ، وفي احدى هذه الوقائع غرق بطليموس

وبعد انتهاء الحرب صفح قيصر عن المصريين ، وغادر البلاد بعد أن ترك فيها حامية برياسة أحد قواده . وأمر بأن يتولى الحكم مع كليوباترة أخوها الثانى ، وسماه بطليموس الخامس عشر وزوجه بها

وعند ذلك خشيت كليوباترة أن يضيع نفوذها وسلطانها على قيصر بمضى الزمن فتبعته الى « رومية » حيث أعد لها قصر عاشت فيه حين قتل قيصر فى سنة ٤٤ ق . م . فعادت الى مصر بعد أن توفى أخوها (وزوجها) فى رومية فى نفس السنة التى قتل فيها قيصر

كليوباترة
وانطونيوس

ولما تنازع قواد قيصر بعد مماته كان النصر لأنطونيوس واكتافيوس اللذين أمدت كليوباترة خصميهما . فاستدعاها أنطونيوس اليه لتجيب عن عملها . وكان إذ ذاك بجهة « طرسوس » بمقاطعة « كيليكيا » ، فذهبت اليه فى سفينة فاخرة ، جمعت فيها من أنواع الزينة والزخرف وآلات الطرب والخدم والحاشية ما يذهب بالألباب . فوقعت مقابلتها لأنطونيوس فى قلبه موقع السهام ، فأفقدته كل إرادته وصيرته خاضعاً لها الى آخر أيام حياته ، فصفح عنها وذهب معها الى الاسكندرية حيث عاش فى لهو ولعب وترك كل واجباته العسكرية . ولما رأى « اكتافيوس » أن انطونيوس منصرف عن أخته التى كان قد زوجه بها ، وأن انقطاعه لكليوباترة أنسأه كل شئ ، أثار عليه الشعب الرومانى ، وأعلن اكتافيوس الحرب على كليوباترة ، فخرج كل من انطونيوس وكليوباترة للقتال (سنة ٣٠ ق . م) . وكانت كليوباترة تقود أسطولها بنفسها ، ولكنها لما رأت أنها ستغلب على



(كليوباترة)

كما رسمت على الآثار المصرية

أمرها بالقرب من أكتيوم
(غربى بلاد اليونان) رجعت
باسطولها الى الاسكندرية

وادعت انها الغالبة

عند ذلك أدركت

واقعة اكتيوم كليوباترة أن نجم أنطونيوس

سنة ٣٠ ق ٢٠

قد أفل ، وخشيت أن تقع

فريسة فى يد «اكتافيوس» ،

فحاولت التغلب عليه بالحيلة

والدهاء ، فلم تفجح ، فصممت

على قتل نفسها وأرسلت

الى انطونيوس تحذره بذلك .

فظن انها انتحرت بالفعل ،

فطعن نفسه بمديية . ولما

أُخبر انها ما زالت على قيد

الحياة طلب أن يُحمل اليها وهو على تلك الحالة ، فمات عندها ودفنته

باحتراف عظيم

ولما اشتد خوفها من «اكتافيوس» همت بقتل نفسها فوضعت حية

على صدرها لدغتها فماتت

ومن أهم آثارها « معبد دندرة » : أسسته هى وزيد فيه بعدها ،

معبد دندرة

وما زال حافظاً لشكله وروقه كما ذكرنا



معبد دندره من الداخل (رسم لسكجيان)

وبهالك كليون بطرة انتهت أسرة البطالسة في مصر بعد أن حكموا
نحو ٣٠٠ سنة ، وصارت البلاد من بعدهم جزءاً من الامبراطورية الرومانية

الفصل الخامس

كلمة في الامبراطورية الرومانية

قبض اكتافىوس على زمام الدولة الرومانية فنهج منهج الحكمة
والاعتدال . ولم يظهر بمظهر الملوكة خشية أن يثور عليه الرومان كما ثاروا
على يوليوس قيصر من قبل ، فلم يغير شيئاً من نظام الحكومة الظاهر ،
ولكنه في الحقيقة أخذ يجمع السلطة في يده بالتدريج حتى صار هو
القابض على كل شيء بدون أن يُثير عليه أحداً . وقد لُقّب بلقب
«إمبراطور»* و «أغسطس» ، فكان حكمه مبدأ حكومة الامبراطورية أغسطس وزهاء
ومنتهى أيام الجمهورية
عصره

وحكم أغسطس ٤٤ سنة كانت من أزهى عصور الرومان ، فساد
فيها السلم وارتقت العلوم والآداب وظهر الكثير من نبغاء الكتاب
والمؤلفين ، فمن ذلك «فِرْجِيل» و «هُوراس» و «أوفيد» الشعراء
و «ليني» المؤرخ الشهير

ثم استعرت الحكومة الامبراطورية بعد عهد أغسطس . واستولى
نيرون عليها عدة امبراطورين الواحد بعد الآخر ، منهم العادل والظالم ومنهم القوي
والضعيف . وآخر من استولى على الملك من أسرة أغسطس (أى من نسل

يوليوس قيصر) هو « نيرون » الذي اشتهر بالظلم والقسوة والاستبداد .
ومما يُنسب إليه أنه أحرق مدينة رومية . واتفق المؤرخون على أنه يوم
إحراقها كان يشاهد النيران تأكل المدينة وأهلها فيسر بهذا المنظر، كأنه
ينظر الى رواية تمثل في ملهى من الملاهي

تراجان

ومن أشهر الملوك الذين تولوا الملك بعده الامبراطور « تراجان »
(٩٨ - ١١٧ م) وفي مدته بلغت أملاك الرومان أبعد مدى وصلت إليه،
فكانت الدولة الرومانية تمتد من نهر الفرات شرقاً الى شواطئ المحيط
الأتلنتي غرباً، ومن شمال انجلترا شمالاً الى مدار السرطان جنوباً، وقد
قدرت أراضي هذه الدولة الشاسعة بما يزيد على ١,٦٠٠,٠٠٠ ميل مربع
معظمها من أعمار الأرض وأخصبها

بلغت الدولة الرومانية نهاية كمالها، ولكن علة الهرم كانت قد دبّت
فيها من قبل، فأخذت الأمم البربرية ولاسيما الألمانية منها تكثر من
غاراتها على الحدود الشمالية . وحقاً أخذت الدولة في التقهقر بعد سنة ١٨٠
ميلادية، ولم يؤجل سقوطها النهائي إلا ظهور بعض الامبراطورين
المصلحين الذين كانوا يسكنون باصلاحهم تيار الاضمحلال من آن لآخر.
ومن أشهر المصلحين الذين ظهوروا فيها اذ ذاك الامبراطور « دقلديانوس »
(٢٨٤ - ٣٠٥ م) . ومن اصلاحاته أنه قسم الدولة الى أربعة أقسام
لاتساعها الشاسع، فولى كلاً منها أميراً ورأس بنفسه أحد الأقسام .
فأحدث هذا النظام اصلاحاً في هيئة الحكومة، وان لم يدم نفعه طويلاً،
فبعد أن توفي دقلديانوس اشتدّ النزاع بين الحكام، فأفضى ذلك الى
حروب داخلية انتهت بغلبة « قُسطنطين » الأكبر على الجميع . فانفرد

دقلديانوس
واصلاحاته

قسطنطين الأكبر (٣٢٣ - ٣٣٧ م) بالملك ، ولكنه حافظ على باقي
اصلاحات دقلديانوس . ومن أعماله أنه جعل المسيحية الديانة الرسمية
للبلاد فكان بذلك أعظم نصير لها في الأرض منذ وجدت ، وان كان
لم يحرم الوثنية

✽ نقل العاصمة الى القسطنطينية ✽

ومن أعمال قسطنطين أيضاً أنه نقل عاصمة الدولة من رومية الى
« بوزنطية » على شواطئ البسفور . وهذه المدينة قديمة ، أسسها نزل
الإغريق في منتصف القرن السابع قبل الميلاد ، ثم تقلبت في عدة أطوار
كانت فيها خاضعة للإغريق إلى أن استولى عليها الرومان ، فبقيت تابعة
لهم إلى أن أعجب قسطنطين مناعة موقعها وصلاحيته للتجارة ، فنقل
عاصمة الدولة الرومانية إليها سنة ٣٣٠ م ، وسُميت من ذلك الحين
بالقسطنطينية تنسبة الى قسطنطين الأكبر

وقد كان لنقل العاصمة الى القسطنطينية عدة تأثيرات في الدولة :
منها ان الدولة أخذت تظهر عليها المسحة الإغريقية لانطباع هذه المسحة
في العاصمة الجديدة من مدة طويلة ، وما زالت تتأثر بذلك شيئاً فشيئاً
حتى حلت اللغة الإغريقية محل اللاتينية وصارت اللغة الرسمية للدولة .
ومنهما أن نقل قوة الدولة الى الشرق حى الشرق من غزوات الأمم المتبربرة
وسهل عليهم غزو الجهات الغربية . ومنها أن مدينة رومية لما هجرها
الامبراطور نظرت الى « البابا » (الرئيس الدينى) نظرة الممثل لها ، ومن
ذلك العهد ابتداء نمو سلطة البابوية

تأثج نقل
العاصمة الى
القسطنطينية

وبعد وفاة قسطنطين قُسمت الدولة بين أولاده الثلاثة ، تم اتحدت
الدولتان الغربية والشرقية
بعد ، ثم انقسمت مرة أخرى ، إلى أن تم تقسيمها النهائي سنة ٣٩٥ م
الى قسمين ، الدولة الغربية وعاصمتها رومية ، والدولة الشرقية وعاصمتها
القسطنطينية — وقد استمرت الدولة الشرقية بعد ذلك نحو ١٠٠٠ سنة
تمكنت فيها بفضل مناعة موقعها من رد غارات الأمم المتبربرة الأوربية
من القوط والسلاف وغيرهم كما صدت غارات الفرس والعرب ، ولكنها
لم تستطع الدفاع عن معظم أملاكها ، فنزع العرب من يدها شرق آسيا
الصغرى وسورية وفلسطين ومصر وبرقة وافريقية وجزائر البحر الأبيض
الشرقية ، وابتدأ ذلك من سنة ٦٢٢ في عهد القيصر «هرقل» . ثم بقيت
في نزاع مستمر مع العرب وأمم أوروبا ثم مع الترك حتى أزالها من الوجود
الفتاح الأعظم السلطان محمد الثاني بفتحها مدينة القسطنطينية سنة ١٤٥٣ م.
فأصبحت من ذلك الوقت حاضرة لملك سلاطين آل عثمان الى وقتنا هذا
سقوط الدولة الشرقية
سنة ١٤٥٣ م
أما الدولة الغربية فلم تعمر طويلاً ، اذ كثرت غارات الأمم المتبربرة
عليها واستولوا شيئاً فشيئاً على أملاكها . وأخذت قوة امبراطورها في
الضعف حتى كادت تكون اسمية فقط ، وفي سنة ٤٧٦ اغتصب «أودوكر»
زعيم القوط ما بقي من القوة في يد « روميلوس أغسطيلوس » الامبراطور
الروماني ، وبذا سقطت الدولة الرومانية الغربية
سقوط الدولة الغربية
سنة ٤٧٦ م

الفصل السادس

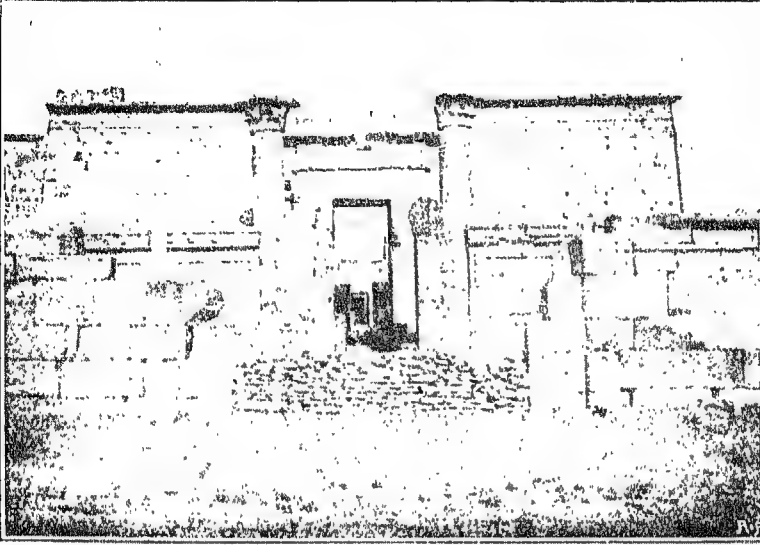
مصر في عهد الرومان

استولى أغسطس على مصر سنة ٣٠ ق م . فكانت ثمرة انتصاره .
ولذلك اعتبرها جزءاً من أملاكه الخاصة ، فمنع رجال السناتو برومية من
التدخل في شؤونها ، وحرّم عليهم ولاية شيء من أعمالها ، بل الرحلة اليها
بدون اذن منه

ودخلت مصر باستيلاء الرومان عليها في عهد خمول سياسى طويل
امتد نحو ٦٧٠ سنة (من ٣٠ ق م الى ٦٤١ م) لم يكن لها فيه شيء يذكر
في التاريخ ، بل كانت بمثابة حقْل لإنتاج الحبوب وتصديرها إلى رومية
لسدّ أهم جزء من الخراج

كذلك نقص فيه تشييد المباني العظيمة من هياكل وغيرها ، ولا سيما
ما كان منها على الطراز المصرى القديم ، فإنه بعد أن أقام الرومان على
هذا النمط بضعة من المعابد الصغيرة ، وشيدوا اجزاء جديدة في بعض
القديمة مثل معابد « مدينة آبو » * و « فيلة » و « دندرة » و « قفط »
وغیرها ، أخذوا يشيدون المباني على الطراز الإغريقى أو الرومانى . ولم
يكن ما شيدوه من هذا النوع أيضاً بالكثير لما أصاب البلاد من الفقر

* غربي طيبة . وقد يطلق على الأثر الذى أوردنا رسمه هنا « المعبد الرومانى »
والحقيقة ان السور الخارجى والنقوش التى على قوائم الباب هى التى من عمل الرومان .
اما البرجان والعمودان فمن آثار البطالسة



(المعبد الرومانى بمدينة آبو)

رسم محمد افندى على سعودى

فى أواخر أيامهم باشتداد ظلمهم وعسفهم . أما الرسم والتصوير وفن البناء ذاته فقد لحقها الاضمحلال والانحطاط فى العصر الرومانى ، غير انه ظهر فى هذه الفنون نوع جديد ما بين إغريقى ومصرى وهو جميل فى بابه . (انظر شكل التابوت) . وأخذ اهمال النقوش الميروغليفية يزداد يوماً فيوماً حتى نسيت تلك الكتابة بالمرّة فى آخر العصر الرومانى ، وبقيت النقوش والكتابات الكثيرة التى على الآثار المصرية غير مقروءة الى أن حلّت رموزها بعد العثور على حجر رشيد كما ذكرنا فى أول الكتاب

نظام الحكومة وأما نظام الحكومة فلم يغيّر الرومان منه شيئاً كبيراً ، شأنهم فى الممالك التى يستولون عليها ويمجدون بها حكومة منتظمة . فابقى أغسطس معظم أنواع الأنظمة الداخلية التى اختطتها البطالسة ، ونصب من قبله

والياً على البلاد، فبقى جوهر هذا النظام متبعاً حتى انتهاء الحكم الروماني في مصر



وكان مقرّ الوالى مدينة الاسكندرية، وينتقل فى أنحاء البلاد لسماع المظالم واصلاح الخصاصات وجمع الخراج والإشراف على الجيوش وعمل الاحصائيات، وكانت المملكة مقسمة الى عدة مديريات يرأس كلأ منها مدير، وكان للوالى مساعدان فى أول الأمر وثلاثة فيما بعد يستعين بهم فى الإشراف على إدارة أقسام مصر الثلاثة: العليا والوسطى والسفلى

وكان معظم هذا النظام متبعاً فى زمن البطالسة، وحقاً لم يغير أغسطس من نظام البلاد شيئاً يذكر سوى إلغاء مجلس مدينة الاسكندرية، إذ أراد أن يفهم أهلها (وكان معظمهم من الإغريق) أنه لا ينبغي لهم أن يرتكنوا على قرابتهم من الفاتحين، (تابوت من العصر الرومانى) وينظروا الى أنفسهم كأنهم أرقى من باقى السكان. فألغى مجلس مدينتهم الذى كان أشبه بحكومة محلية تدير شؤونهم، ومنح اليهود جميع الحقوق والامتيازات التى كانوا قد اكتسبوها فى زمن البطالسة. وبذلك ساواهم بالإغريق إن لم يكن قد وضعهم فى مستوى أرقى من مستواهم

وفي زمن الرومان كثرت الفتن والثورات الداخلية بسبب اختلاف عناصر السكان ومذاهبهم في أنحاء مصر خصوصاً الاسكندرية. وقد تشكّلت هذه الفتن والمشاحات في أطوار مختلفة : فكانت في أول الأمر بين الإغريق واليهود ، ثم بدخول الديانة المسيحية في مصر فشا النزاع بين المسيحيين والوثنيين ، ثم انتقل الى الطوائف المختلفة التي نشأت في المسيحية ذاتها بتعصب الحكومة الرومانية الى فريق دون فريق وإذ قد بينّا شيئاً من الحالة العامة في مصر اثناء هذا العصر الروماني حسن بنا أن نأتى على بعض الحوادث الهامة التي حدثت في ذلك العصر فنقول :

كثرة الفتن
والفلاقل الداخلية

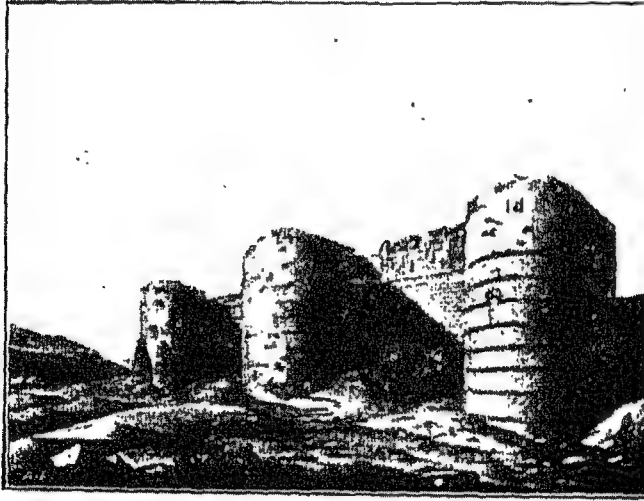
كان القرن الأول من العصر الروماني (٣٠ ق . م — ٦٨ م) زمن إصلاح تدريجي في البلاد ، ففيه صُدّت الغارات عن الحدود الجنوبية ، واتسعت حركة تجارة مصر مع الهند والشرق بطريق البحر الأحمر ، وزادت الزراعة (في عصر أغسطس ثم نيرون) للاعتناء بكرة الترع والخُلجان التي كانت أُهملت من قبل . وقد قامت في هذه المدة عدة ثورات بين اليهود والإغريق بالاسكندرية ، أهمها ما حدث سنة ٣٨ م إذ نهب الإغريق الحيّ الاسرائيلي من المدينة ، وذبجوا عدداً كبيراً من سكانه . وانتهى الأمر بإصلاح الامبراطور بين الفريقين ، ولكن ما لبثت المشاحنات أن تجددت بينهما

القرن الأول
الإصلاح
التدريجي

أما القرن الثاني (٦٨ — ١٨٢ م) فكان معظمه عهد تقدم كبير أيضاً في مصر ، إذ أُنقِص الرقّ الذي وصلت اليه البلاد في أواخر القرن السالف وبلغ أقصاه في أيام « نيرون » (على ما له من سوء السمعة) حافظ

القرن الثاني
الحفاظة
على التقدم

عليه ملوك القرن الجديد ، فظهرت نتائجه في ثروة البلاد وراحة أهلها
وتجارها التي اتسعت في الشرق حتى وصلت الى الصين . ومن أعظم ملوك
هذا القرن الامبراطور «تراجان» (٩٨ — ١١٧ م) الذي حفر خليجاً من
النيل الى البحر الأحمر لتوسيع نطاق التجارة في الشرق . وفي مدته جُدد
بناء حصن بابليون وهو حصن قديم لا يُعرف مؤسسه ،* جُدد تراجان على
الطراز الروماني ، ولا تزال بعض مبانيه باقية الى الآن بالقرب من كنيسة
مارى جرجس بمصر القديمة . وهو الحصن الذي قاوم العرب مدة طويلة
أثناء فتحهم لمصر

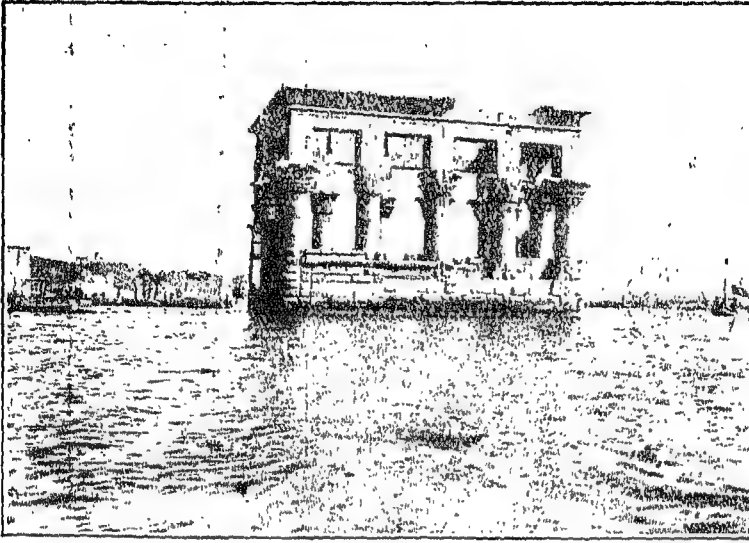


(حصن بابليون)

رسم سنة ١٧٩٨

وفي أيام تراجان تم بناء معبد فيلة وشُيدت مبان أخرى عديدة في
أنحاء البلاد

* قيل هو من بناء الفرس



(فيلة — معبد تراجان)

رسم فزاني

عهد تراجان

وفي عهده أيضاً حدث في البلاد قط بسبب انخفاض شديد في النيل ، فتداركه الإمبراطور بإرسال عدة سفن من رومية الى الاسكندرية محملة بالغلال . وفي أواخر أيامه حدثت فتن كبيرة بين اليهود والإغريق قام اليهود فيها بذبح كل من وصلت اليه أيديهم من الإغريق وطاردوهم ، فالتجئوا الى مدينة الاسكندرية حيث انتقموا لأنفسهم ممن عثروا عليه من اليهود داخل المدينة . واستمر القتال بين الفريقين عدة أشهر . وانتهى الأمر بطرد اليهود الى الصحراء بعد أن سحق معظم من كان منهم بالاسكندرية

ومن أهم حوادث هذا القرن قيام ثورة داخلية في عهد الامبراطور « مارك أوريل » (سنة ١٧٢) بدأت في بعض فرق الجيش ثم انتشرت في أنحاء البلاد . فكانت أول شيء من نوعها في زمن الرومان ، إذ أن

الثورة الداخلية
سنة ١٧٢

جميع الفتن التي حدثت قبل ذلك كانت قاصرة على الاسكندرانيين ، وكانت بين بعض الطوائف والبعض الآخر ، بخلاف هذه ، فإنها كانت على الرومان لظلمهم ، وانتشرت في أنحاء القطر . وقد لاقى الرومان مصاعب

عهد
مارك اوريل



(مارك أوريل)

عن تمثال بدار آثار الاسكندرية
رسم محمد افندي على سعودي

كبيرة في إخضاع الثائرين ، ولم تُوطد السكينة في البلاد إلا بعد عدة سنوات . ثم ثار أحد كبار القواد الرومانيين على الامبراطور ، فحضر «مارك أوريل» بنفسه الى الشرق فأخمد الثورة وصفح عن الثائرين

وقد كان لهاتين الثورتين تأثير سيئ في حالة مصر ، فتأخرت الزراعة وأخذ الفقر يدب في البلاد . ومن ذلك الحين وقف التقدم الذي ابتداء منذ دخول الرومان ، وما لبثت البلاد

طويلاً بعد ذلك حتى دخلت في طور تقهقر طويل استمر إلى أيام الامبراطور « دقلديانوس » الذي تولى الحكم سنة ٢٨٤ ومن أخبار ذلك العصر السيئ أن الامبراطور « كركلا » لما تولى

كركلا

الملك سنة ٢١١ ، وكان ظالماً ضعيفاً ، سخر منه الاسكندريون وعرضوا باسمه في نكاتهم وهزلهم . فأتى بنفسه الى الاسكندرية لينتقم منهم ، فجمع عدداً كبيراً من شبانهم خارج المدينة وقتلهم . ثم أقام جداراً بالمدينة قسمها به الى قسمين ، وحرّم على سكان أحد القسمين الاختلاط بالقسم الآخر ، وأبطل الألعاب التي كان يقيمها الاسكندريون . ومن أخبار ذلك العصر أيضاً أن الإمبراطور « اسكندر سيفيروس » أرسل والياً الى مصر من المشائعين المغضوب عليهم في رومية . ومن ذلك يُعلم مقدار انحطاط منزلة مصر في نظر الرومان حتى أصبحت منفيّ للمذنبين

وفي سنة ٢٦٨ م أغارت زنوبيا ^(١) ملكة « تدمر » من شمالي بلاد العرب على الشام وحصرت ودخلت البلاد بعد مقاومة شديدة من الرومان ، وساعدها على ذلك بعض قبائل « بلميّ » (البُجّة) ^(٢) . وكانت هذه القبائل كثيرة الإغارة على الحدود الجنوبية ، فظاهروا أهل تدمر لما بينهم من القرابة الجنسية ، واستولت زنوبيا على معظم البلاد المصرية أكثر من سنتين الى أن تمكن الرومان من جمع جيش كبير وأخرجوها منها

استيلاء زنوبيا
على مصر

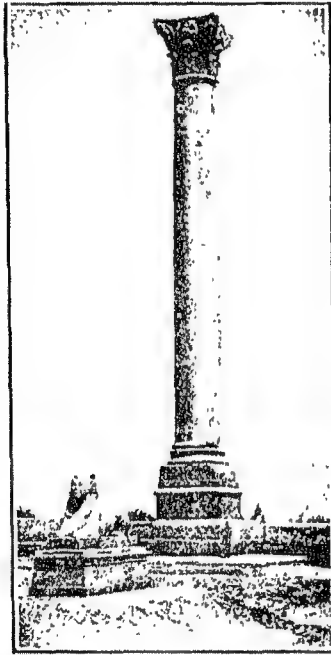
بقيت البلاد على هذا الضعف حتى أتى « دقلديانوس » المتولى سنة ٢٨٤ م فنالت مصر جانباً من الإصلاحات التي قام بها في أنحاء الدولة الرومانية ، فصد هجمات البجة وغيرهم من القبائل العربية التي كانت لا تزال تغير على شرقي الصعيد ، وأقام بعض قبائل النوبة حراساً على تلك الجهات .

صد هجمات
البجة

(١) هي الزبّاء الشهيرة (٢) يقال انهم أجداد البشّاريين الذين لا يزالون

يقيمون بأعلى الصعيد

ثم أصلح مالية البلاد ونظم ضريبة الغلال من جديد ، فخصص جزءاً منها لرومية وجزءاً لبذر الأرض ، والثالث لأهل الاسكندرية ، إعانة لهم على ما نالهم من الفاقة بسبب كثرة الثورات والقلاقل . فعظم ذلك الجميل في أعين الاسكندريين وقَدَرُوهُ حق قدره ، فقاموا عموداً جميلاً بالمدينة تذكيراً وعمود السوارى لهذا الملك الشفيق ، واعترافاً بما أسداه اليهم من الجميل . ولا يزال هذا العمود بالاسكندرية ويعرف بعمود السوارى . وقد يسمى أحياناً بعمود



المسيحية في مصر

(عمود دقلديانوس)

المعروف بعمود السوارى

بومبي (وهو اسم غير صحيح لا أصل له) . ومما يؤسف له أن السكينة التي سادت في البلاد على يد دقلديانوس لم تستمر طويلاً ، بل انقلبت في أواخر أيامه إلى اضطرابات شديدة انتشرت في أنحاء مصر بسبب اضطهاد دقلديانوس للمسيحيين . وبيان ذلك أن الدين المسيحي كان قد دخل الديار المصرية من زمن بعيد على يد «القدّيس مرقس» (والأرجح أن ذلك كان في عهد نيرون) ، فوجد في مصر أرضاً خصبة ، فكانت أول أرض قوى

شأنه فيها ، ودخل فيه أناس كثيرون . وما زال عدد أتباعه يزداد يوماً فيوماً ، واعتقادهم فيهم يقوى شيئاً فشيئاً حتى ملك دقلديانوس . فلما رغب إلى الرعايا أن يضعوه موضع الألوهية ليضمن بذلك حياته ومملكه لم يخضع

لإرادته مسيحيو مصر ، وقاوموه مقاومة كبيرة . فاضطهدهم وعذبهم ، فلم يزدحم ذلك إلا تمسكا بدينهم ، فذبح منهم عدداً عظيماً في جميع أنحاء البلاد من جميع طبقات أهلها . ويقال ان من بين الذين ألح عليهم الامبراطور في الارتداد عن النصرانية فتاة حسناء تعرف بالسيدة دميانة وكانت رئيسة لدير بجهة بلقاس ، فلم تسمع له ، فعذبها ، ثم أمر بذبحها ، وما زال قبرها بتلك الجهة مقدساً إلى الآن يزوره الأقباط كل عام . وقد ترك عصر دقلديانوس أثراً كبيراً في نفوس الأقباط حتى أنهم سموه « بعصر الشهداء » ، وجعلوا أوله (سنة ٢٨٤ م) مبدأ لتقويمهم يحسبون منه السنين والأيام

عصر الشهداء

أضاعت هذه الاضطرابات ثمرة ما أصلحه دقلديانوس . وبقي المسيحيون في اضطهاد حتى تولى الملك قسطنطين وجعل النصرانية الديانة الرسمية للدولة . فكان يُظن أن البلاد تتقدم في عهده كثيراً ، ولكن ما كادت تستقر قدمه في الملك حتى ظهر في مصر الخلاف بين الطوائف المسيحية المختلفة ، واستفحل أمره شيئاً فشيئاً بسبب تعصب ملوك بوزنطية لمذهب الأقلية وعدم احترامهم لمذهب الأغلبية ، اذ كانت لهم بمصر طائفة مسيحية من الروم تؤيدها الحكومة تسمى بالطائفة الملكانية ، مع أن السواد الأعظم من المصريين كانوا تابعين لطائفة أخرى تدعى اليعقوبية ، وكانوا يلاقون من الروم اضطهاداً كثيراً فزادت كراحتهم لحكم الرومان وسهل عليهم في القرن السابع بعد الميلاد الاستسلام لحكم الفرس ، ثم الترحيب بالعرب كما سيأتي بيانه

الملكانية
واليعقوبية

وفي عهد قسطنطين ظهرت الرهبنة في المسيحية لأول مرة ، فكان

ذلك مبدأ تأسيس الأديرة التي عظم شأنها في القرون الوسطى بأوروبا
وكان لها أكبر أثر فيها. وراجت في مصر الرهينة والأديرة رواجاً الأديرة في مصر
كبيراً حتى ان الحكومة اعترفت ببعض الأديرة بعد ذلك بنصف قرن،
وسمحت بأن تكون لها أملاك خاصة بها. وانتظم كثير من الناس في سلك
الأديرة هروباً من الخدمة العسكرية وفراراً من الضرائب الباهظة، وزاد
ذلك حتى كاد يؤثر في حالة الحكومة

✽ استياء المصريين في عهد الدولة الرومانية الشرقية ✽

كانت مصر في العهد الأخير من الحكم الروماني في حالة بؤس شديد
وفقر مُذِيع، تزداد حالها تعساً على تعس منذ عهد نيرون. اللهم إلا فترة
قصيرة في عهد دقلديانوس رجعت بعدها الى ما كانت عليه من التدهور
المستمر، فأصبح الأهليون بمثابة آلات لإنبات القمح، وقد كادت زراعته
تكون هي الحرفة الوحيدة في البلاد إذ ذاك. ثم صارت الثروة قاصرة
على أفراد قليلة، وكثيراً ما كانت القرية الواحدة بأكلها في قبضة رجل
واحد من الأثرياء، مما قتل نفوس العباد، وقضى على حياتهم الأدبية،
ومن الأسباب التي ساعدت على استياء المصريين ما يأتي :

أولاً — زيادة الضرائب زيادة فاحشة، حتى أصبح كل شيء تقريباً
لا يخلو من ضريبة مفروضة عليه

ثانياً — تعصب الحكومة في آخر العهد للإغريق وإيثارهم بكل
منفعة، مع أنهم ليسوا إلا عدداً قليلاً لا يمثل الأمة تمثيل القبط الوطنيين

ثالثاً - قصر كثير من المناصب على بعض الأسرات المثرية وجعلها

وراثية فيها

رابعاً - حكم الدولة لمصر بسياسة القهر والسلاح وعدم استجلابها

محبة الأهلين

خامساً - عدم استتباب الأمن في البلاد، كما يعلم من أوراق البردي

الكثيرة المملوءة بشكاوى أهل ذلك العصر من حوادث السرقة والنهب

والاعتداء

وفي سنة ٦١٠ استولى الإمبراطور « هرقل » على عرش الروم ، وفي

دخول الفرس

أيامه توغل الفرس في أملاك الدولة الرومانية ، فأغاروا على سورية واستولوا

في مصر

على دمشق وبيت المقدس سنة ٦١٥ م . ثم زحفوا على مصر وفتحوا

الاسكندرية سنة ٦١٧ م . وكان هرقل كبير النفس عالى الهمة ، فأثار

نهضة قوية جديدة على الفرس أدت الى انتصار الروم ، ولم تأت سنة ٦٢٨ م

نهضة هرقل

حتى نكص الفرس على أعقابهم ، وساق هرقل جيوشه الى قصر كسرى

فأحرقوه * . وعند ذلك اضطر الفرس الى الانسحاب من مصر . فعاد

اليها الرومان ، غير أن العيش لم يطب لهم فيها طويلاً ، فاستولى عليها

العرب سنة ٦٤١ م بقيادة البطل العظيم عمرو بن العاص ، كما سيأتى بيانه

ان شاء الله تعالى

* هذه هي الحوادث التي نزلت فيها الآية الشريفة « أَلَمْ غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بَضْعِ سِنِينَ » . وكان ذلك من معجزات النبي صلى الله عليه وسلم

ملخص

أهم الحوادث التاريخية من عهد دخول الفرس في مصر الى أن فتحها العرب

مصر	التاريخ ق م	البلاد الأجنبية
	٥٥٠	تأسيس «كورش» لدولة فارس
	٥٤٦	واستيلاؤه على «ميديا»
	٥٣٨	استيلاؤه على «ميديا» وممظم المدن الاغريقية بآسيا الصغرى
	٥٢٥	استيلاؤه على بابل
استيلاء الفرس على مصر بقيادة ملكهم «قيز»	٥٢١—٤٨٦	حكم دارا الأول ملك فارس
قدوم دارا الأول الى مصر وقيامه باصلاحات كثيرة	٥١٠	طرد آخر ملك من ملوك رومية الأقدمين
	٤٩٤	مهاجرة البليان من رومية
	٤٩٠	واقعة مرتون بين الفرس والاغريق
اخراج الفرس من مصر	٤٨٦	حكم اجزرسيس الأول ملك فارس
	٤٨٥—٤٦٥	فارس
رجوع الفرس الى مصر	٤٨٥	واقعة ترموبيل وواقعة سلاميس
	٤٨٠	صد الفرس جملة عن بلاد الاغريق
	٤٧٩	عصر بركليس
محاولة المصريين أن يطردوا الفرس	٤٣٠—٤٨٠	حكم ارتجزسيس الأول ملك فارس
	٤٢٥—٤٢٥	فارس
استمرار في العمل على طرد الفرس	٤٠٤—٤٣١	حروب بلوونيز
	٤٠٤—٤٢٥	حكم اجزرسيس الثاني ودارا الثاني
طرد الفرس من مصر لثاني مرة	٤٠٥	استيلاء الرومان على قباي
	٣٩٦	اغارة الغاليين على رومية
	٣٩٠	اغارة الغاليين على رومية
	٢٤٠	قهر الاسكندر الفرس في واقعة اسوس
دخول الفرس مصر لثالث مرة وانقراض دولة الفراعنة	٣٣٣	

البلاد الأجنبية	التاريخ ق. م	مصر
قهر الاسكندر الفرس في واقعة اربل	٣٣٢ ٣٣١	دخول الاسكندر مصر وتأسيس مدينة الاسكندرية
	٣١—٣٢٣	عهد البطالسة في مصر : ٢٩٢ سنة
	٢٨٥—٣٢٣	(١) بطليموس الاول : غزو فينيقية وجزء من سورية والاستيلاء على بيت المقدس
حرب رومية مع « بيروس » (٢٨٠—٢٧٥) — سقوط « تارتو » في أيدي الرومان (٢٧٢ ق. م)	٢٤٧—٢٨٥	لقب بلقب «ملك» — نظم البلاد ووسع الاسكندرية (٢) بطليموس الثاني : جدد الخليج القديم بين النيل والبحر الأحمر وجدد وادي الحمامات — راجت التجارة وارتقت العلوم والمعارف — عظم مكتبة الاسكندرية ودار تحفها — يخطب ود رومية (٢٧٣)
	٢٢٢—٢٤٦	(٣) بطليموس الثالث : الاستيلاء على قبرنيقية (برقة) وجميع سورية حتى نهر الفرات — استرد السوربون الأجزاء الشرقية — اخضاع بلاد النوبة — تشييد مبان عظيمة (معبد أدفو)
الحرب البونية الأولى واقعة ميللي	٢٦٤—٢٤٤ ٢٦٠	اضمحلال البطالسة (٢٣٠—٣١ ق. م) بسط نفوذ الرومان على البطالسة تدريجاً :
انهزام ريجولوس بافريقية	٢٥٦	(١) تأييد الرومان لبطليموس السابع : ١٧٣
انهزام القرطاجيين بالقرب من جزائر اجيت	٢٤١	(٢) اعتماد الرومان لبطليموس العاشر في حروب رومية الكثيرة : ٨٧
الحرب البونية الثانية واقعة ترازيمين ٢١٧ واقعة كان ٢١٦ واقعة متوروس ٢٠٧ واقعة زاما ٢٠٢	٢٠١—٢١٨	(٣) تأييد الرومان لبطليموس الثالث عشر بدون حق : ٨١ (٤) ارسال بطليموس الثالث عشر صورة من وصيته بالملك عند وفاته الى رومية لتحتفظ بها : ٥١ (٥) قيصر يفصل بين كليوباترة وأخيها : ٤٧ (٦) واقعة اكتيوم واستيلاء الرومان على مصر : ٣١ (أو ٣٠)
الحرب البونية الثالثة — احراق قرطاجنة — انتهاء الحروب البونية وابتداء سيادة الرومان في الغرب تنازع السلطة بين ماريوس وسلا برومية	١٤٦—١٤٩ ٨٢—٨٨	
تولى سلا دكتاتوراً على الدوام	٧٩—٨٢	

مصر	التاريخ ق م	البلاد الأجنبية
	٨٠—٦٧	ظهور بومبي
	٦١—٦٧	ظهور يوليوس قيصر
	٦٠	الحكومة الثلاثية الأولى
		(تعيين قيصر قنصلا سنة ٥٩)
	٥١—٥٨	غزو بلاد الغال (غزو بريطانيا سنة ٥٥)
	٥٢	تعيين بومبي قنصلا وحده
	٤٨	واقعة فرساليا بين بومبي وقيصر وقتل بومبي بالاسكندرية
	٤٤	قتل قيصر برومية
	٤٣	الحكومة الثلاثية الثانية
	٣٠ ق م—٦٤١ م	وفاة نيرون ٦٨ م
عهد الرومان في مصر (نحو ٦٧٠ سنة)		
تقدم في أول العصر بلغ أقصاه في عهد نيرون — اشتهار مصر بالحبوب وكثرة تصديرها الى رومية — كثرة الثورات والفتن بين اليهود والاغريق بالاسكندرية مثل :		
	٣٨ ميلادية	فتنة سنة ٣٨ ميلادية
	٩٨—١١٧	دخول المسيحية مصر (في عهد نيرون)
		عهد الامبراطور تراجان
		حفرة الخليج بين النيل والبحر الاحمر — تجديد حصن بابليون
	١٧٢	— اتمام معبد فيلة
		قيام ثورة في الجيش ضد الرومان لظلمهم وتأثير هذه الثورة السي في تأخير الزراعة وحالة البلاد على العموم مدة طويلة
	٢٦٨	اغارة زنوبيا ملكة تدمر على مصر ومساعدة قبائل البجة لها
		قدوم دقلديانوس الى مصر — اقامة عمود السوارى
	٣٠٠—٦٤١	(عصر الشهداء سنة ٢٨٤ م)
		عصر ظلم واستبداد كثرت فيه الفتن الداخلية بسبب اختلاف طوائف المسيحية
	٦١٦	دخول الفرس مصر
	٦٢٨	طرده الرومان للفرس
	٦٤١	خروج الرومان من مصر واستيلاء العرب عليها

الباب الثالث

عهد الدول الاسلامية

الفصل الأول

العرب وفتوحهم

(١) — * العرب قبل الاسلام *

العرب أمة قديمة العهد لا يزال جيلها متميزاً ولغتها حية منذ آلاف

من السنين

والعرب أمة سامية جلت من الشمال ، ونزلت في أزمان بعيدة ،
وعصور متفاوتة جزيرة العرب من غربي آسيا . وهم ثلاث طبقات :
اصل العرب وطبقاتهم

(١) العرب البائدة ، من عاد وثمود وطسّم وجدّيس وحَضْرَمُوت

والمِالِقة وغيرهم . وهم سكان الجزيرة القدماء

(٢) العرب العاربة ، وهم الجالية الثانية من ولد يَعْرُب بن قَحْطان

جد العرب المسمّين بالقحطانيين ، النازلين في الجنوب أولاً ، والمشتتين في
الوسط والشمال آخرًا ، بمحدوث الفتن الكثيرة بينهم وظلمهم أنفسهم وفساد

مرافقهم ومزارعهم وتهدم سدود مياههم

(٣) العرب المستعربة ، من العبرانيين ولد اسماعيل بن ابراهيم (عليهما السلام) ، وهم الجالية الثالثة النازلون أولاً في مكة والمنتشرون بعد في وسط الجزيرة وشرقها . وهم المسمون بالعدنانيين نسبة الى جدّهم عدنان ، وهو آخر عمود النسب المعلوم لهم من بنى اسماعيل . ومن شعب قحطان وعدنان تتألف العرب

البدو والحضر وليست العرب كلها أمة بدوية ، بل ان من نزل منهم البقاع الخصبية أنشؤا دُولاً عتيّدة ، مثل دول التّابعة في اليمن والمناذرة من اللّخميين في العراق والغسانيين في الشام . وجل هذه الدُول من القحطانية وكان أكثر العرب العدنانية بدواً يعيشون في وسط الجزيرة وغربها وبعض شرقها كما يعيش العرب الرحّل الآن

وإذ كانت جزيرتهم تحوطها الصحارى والبحار وبلادهم لا تقوم بنفقات الجيوش الجارة الغازية لها ، عاشوا أكثر أزمانهم في مأمن من غارات الفاتحين وعبث الملوك المستبدين . والنازلون منهم في أطراف الممالك الشمالية العظيمة كالروم والفرس اتخذتهم تلك الممالك حرساً على حدودها وعوناً لها على أعدائها ، كالمناذرة مع الأكاسرة والغسانيين مع الروم

ومن اخلاق العرب التي طبعت فيهم بطبيعة بلادهم : الحرية والشجاعة والكرم والوفاء والأخذ بالثأر والقناعة

ومن عاداتهم القديمة تقليل الطعام والنمام ورياضة الجسم وتقديم الكبير في الرأي والعمل

ولم يكن للبدو منهم من علوم الحضار وصناعاته الدقيقة المتقنة شيء يذكر . وانما كانت علومهم قرض الشعر (وهو ديوانهم ومُنْبَعَث آدابهم)

اخلاق العرب وعاداتها

علوم البدو والحضر

وعلم أنساب العرب وأخبارها وأيامها وعلم أحوال الجو والنجوم من أسمائها
وحرركاتها ومنازلها وأنوائها ^(١) ومَهَبَّ الرياح ومناشئ السحب وعلم القيافة ^(٢)
ولم يكن لهم في الطب الا ما عرفوه بالتجارب أو تلقاه حكماءهم من أطباء
النَّسَاطِرَةِ ^(٣) والروم المجاورين لهم . ولم يكن هذا شأن دُولهم المتحضرة
في اليمن والعراق والجزيرة والشام ، فقد كانت لهم علوم وصناعات ، كدبغ
الجلود ونسج الملابس وطبع الأسلحة ، وخاصة اليمن التي كانت وسائل
معيشتها التجارة والزراعة والصناعة . ولذلك لم يكن كلهم أميين كما كان
الشأن في عرب البادية ، بل كانت اليمن تكتب المُسَنَدَ (الذي قيل انه
من اختراعها) وعرب الشمال تكتب النبطي والأنباري من الخطوط العربية
أما ديانات العرب فكانت على ضروب وأنواع شتى ، حتى لم يكن
القول بانهم عبدوا كل ما كان يُعبد في الأرض في عصورهم ، بل أن منهم
من انكروا المعبود بَشَرَةً . فمن العبدة الموحِّدون الباقون على مذهب ابراهيم ،
ومنهم عبدة النجوم والشمس والقمر والكواكب السيارة وبعض الثوابت ،
ومنهم الجوس الثنوية وعبدة النار ، وعبدة الجن والملائكة ، ومنهم اليهود
والنصارى ، وعبدة الأحجار والأشجار . وقاما كانت عبادة من هذه
تخلو من اتخاذ الأصنام إِمَاماً معبودة لذاتها ، وإِمَاماً معتبرة شفعاء لهم عند الله .
وكانت الكعبة (المعتبرة أقدم معبد لهم من عهد اسماعيل) تُنصب عليها
وحولها الأصنام المختلفة

ديانة العرب

(١) جمع نوء ، وهو غروب نجم معلوم في الفجر وشرق آخر في وقته . ويرغمون
ان ذلك يبعث المطر (٢) علم معرفة الأشياء بآثارها كمواقع الأقدام على الأرض
ونحو ذلك (٣) طائفة نصرانية

(ب) * تأثير بعثة محمد صلى الله عليه وسلم *

(في تأسيس مجد الأمة العربية وانتشار الملة الإسلامية)

كانت الروم قبيل البعثة قد استولى عليها بعض الضعف بطول ضعف ملوكها ، وجاوزت الحد في الترف والانهماك في اللذات ، وألهتهم فتنهم الدينية والسياسية عن أن يكونوا دعاة سلام ورعاية لأمتهم أنفسهم ولن سقط في أيديهم من الأمم . وكانت فارس قد أخذت تنتقص أطراف بلادهم ، بل كادت تحترق قلب مملكتهم : فاستولت على مصر سنة ٦١٦م ، وكانت على وشك بسط سلطانها الى ما وراء ذلك ، لولا انحلال قوتها نوعاً ما بسبب حروبها الطويلة مع الروم وبعض الفتن الأهلية ، وظهور أمة بدوية قوية اكتسحت أممها كلها واستولت على أجل بلاد العالم المتمدين : تلك هي الأمة العربية المفطورة على حب القتال ، والتي مازالت في جاهليتها تخطو الى جمع شملها وتوحيد كلمتها ، الى أن تهيأت لقبول الوحدة الدينية والسياسية بالدعوة العظيمة المحمدية ، فأنهضتها نهضة لم يحل دونها أعظم ممالك الأرض

الروم والفرس
قبل البعثة

وذلك ان العرب كانت في جاهليتها قبائل متقاطعة متدابرة قد أنهكتهم الغارات وإدراك الثارات ، فحدثت أمور استدعت تضامهم وائتلافهم بعض الشيء ، فهد ذلك للإسلام طريق جمعهم على كلمته وقيامهم بدعوته . فمن تلك الأمور :

تهذيب العرب
لقبول الوحدة
الدينية والسياسية

(١) اتفاقهم مع اختلاف ملهم ونحاهم على تعظيم الكعبة واعتقاد مناسك الحج وتشريف قريش سدة الكعبة وأهل البصر بالدين منهم ،

* خذمتها وقوامها

وتحرّيمهم على أنفسهم إحداث حرب في الأشهر الحُرُم من السنة إلا إذا
أُحِلَّت لهم ذلك أشرف كِنانة وقريش

(٢) انتشار التجارة في العصور الأخيرة بينهم، وقيام قريش بها بين
اليمن والشام والعراق واقتداء كثير من القبائل بهم، واختلاطهم بالأُمم
المتمدنة، فتولّد فيهم حبّ تبادل المنفعة

(٣) اتّخاذهم الأسواق الكثيرة للتجارة وتجاذب الأفكار وتناشد
الأشعار واللقاء الخطب والمباهاة بفصاحة اللسان وشرف العشير واستكمال
الصفات المدوّحة فيهم، مما كاد يوحد لغتهم وآدابهم، ويحسن التفاهم
بينهم. ومن أشهر هذه الأسواق عُكاظ وذو المجاز

(٤) قصْد الفرس لبلاد العرب لآبادتها، وتجمع بعض قبائل العرب
لصد غارتهم، وانتصارهم عليهم قبيل انتشار الاسلام في موقعة « ذى قار »
عرفوا من كل ذلك فائدة الاتحاد، وزادت ثقتهم بأنفسهم، فتطلّعوا
الى الانتفاع بمواهبهم، وهياهم الله لأن يكونوا رسل الهداية والتوحيد
المطلق لعامة البشر، فأرسل رسوله فيهم، فلم شعثهم وجمع شملهم وساقهم
هو وأصحابه من بعده الى أملاك كسرى وقيصر فافتتحوها، وقام لهم فيها
ملك كبير

﴿ محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ﴾

وُلد عليه الصلاة والسلام بمكة سنة ٥٧١ م من أشرف أبوين في مولده منشؤه

قُرَيْش، وهما « عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم »، و « آمنَة بنت وهب
ابن عبد مناف ». ومات أبوه بعد شهرين من حملها، وأمُّه في السادسة من
عمره. وكفّله جدّه منذُ ولد الى الثامنة. فكفله عمه أبو طالب حتى بلغ

مبلغ الرجال . فكان أُوحد الناس عفة ، وأشرفهم قصداً وأصدقهم حديثاً
وأعظمهم أمانة ، حتى صار يلقب في مكة بالأمين

وكان يعيش مما يعيش منه أكثر أشرف قریش : تربية الإبل والغنم
وربح التجارة . فعمل في ماله ومال عمه ومال السيدة خديجة التي تزوجها
بعدُ وصارت أُمًّا لأكثر أولاده ، وكان له من شرف بيتها ومالها وحسن
عشرتها خير معين له في حياته قبل البعثة وبعدها

ونشأ رسول الله مُبغضاً لعبادة الأصنام وشرب الخمر ولعب الميسر وكل
ما كانت تدين به الجاهلية ، وحُبِّب إليه التُّسُك والزهد ، فكان كثيراً ما
يذهب الى غار حراء قُرب مكة ليتعبد ويذكر الله فيه حتى بُعث للناس
بشيراً ونذيراً . فأتاه فيه الوحي أول مرة بالقرآن الكريم والرسالة . فذهب
وأخبر السيدة خديجة ، فأمنت به وآمن ابن عمه « على بن أبي طالب »
وهو صبي ، وآمن مولاه زيد بن حارثة ، وآمن صديقه الحميم أبو بكر . وكان
أبو بكر رجلاً سهلاً محبباً لقومه عالماً بأنسابهم وأخبارهم . وكان رجال
قومه يألفونه لعلمه وتجاربه وحسن مجالسته . فجعل يدعو الى الاسلام
سراً من وثق به منهم . فأسلم على يده عثمان بن عفان والزُّبير بن العوّام
وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله . فكان
هؤلاء هم المسامين السابقين ، وبهم انتشر الاسلام

بعد أن أسلم من ذكرنا من الصحابة أخذ رسول الله هو وأصحابه
هؤلاء يدعون الناس سراً الى الاسلام حتى صاروا نحو أربعين رجلاً
يجتمعون خفية في دار أحدهم ، فانضم اليهم عمر بن الخطاب وحزرة عم
النبي ، وبهما اعتز الاسلام

انتشار الدعوة
المحمدية

ومكث النبي يخفي الدعوة ثلاث سنين ، ثم أمره الله باظهارها وانذار
عشيرته الأقربين ، فنبذوا دعوته وعملوا على ابطالها بكل قواهم ، تحمّساً في
دينهم ، إذ كانوا رؤساء دين العرب وأهل البيت الحرام ، وخوفاً أن تنتقض
عليهم العرب فتبور تجارتهم وتخطفهم الناس ، وحسداً لرسول الله أن
يستأثر بالنبوة والسيادة عليهم على فقره وقلة جاهه . ولذلك كان أشدّ الناس
معارضةً له وإضراراً عليه أشراف قريش وأغنياؤهم ، كعمه ابى لهب وكأبى
جهل وأبى سفيان ، ولكنه كان محمياً منهم بعمومته وأصهاره . ومن لم يكن
من أصحابه له نصير أمره بالهجرة الى الحبشة ، حتى مات عمه أبو طالب
وزوجه خديجة . فقل بموتهما ناصره وأصبح في حاجة الى قبيل يعتز به ،
فعرض نفسه على القبائل في الأسواق ومواسم الحج يدعوهم الى توحيد الله ،
فاستجاب له ستة نفر من أهل المدينة فاساموا ورجعوا الى قومهم ، فاسلم
كثير على أيديهم ، ثم رجع منهم في الموسم التالي اثنا عشر رجلاً بايعوه
على الاسلام ، وبعث معهم النبي صلى الله عليه وسلم مُصْعَب بن عُمَيْر ليعلمهم
القرآن وشعائر الاسلام . فانتشربهم الاسلام في المدينة حتى لم تبق دار
ليس بها مسلم الا القليل

ثم جاءه في الموسم الثالث ٧٣ رجلاً وامراً تاف بايعوه على الإيمان
والمدافة عن دعوته بالسيف ، ثم عادوا الى المدينة ، وقد تمكن بهم أمر
رسول الله وأصحابه . فامرهم بالهجرة الى المدينة ، فخرجوا اليها تبعاً
ولما علمت قريش أن أهل المدينة بايعوا النبي صلى الله عليه وسلم على
حرب العرب والعجم ، وأنه على عزم الخروج اليهم ، خافوا أن يؤلبهم عليهم
وينزولهم في دارهم ، فعزموا على قتله . فعلم بذلك فخرج مع أبي بكر مهاجراً

هجرته

الى المدينة سرّاً . ففرح به أهلها ، وأخذها دار إقامة ، وبنى بها مسجده العظيم أحد الحرمين الشريفين . ثم تلاحق به أصحابه من مكة . فسماهم المهاجرين ، وسمى أهل المدينة الأنصار . ثم أخذ ينشر دينه بالدعوة اليه مع حماية هذه الدعوة بالسيف إن اعترض لها معترض بالقوة ، كالتعدي على المؤمنين ، ومنعهم أن يظهروا شعائر دينهم ، أو الوقوف في سبيل الداعي بالقوة ، ومنع مريد الاسلام من اعتناقه^(١) ، فكان من ذلك غزواته التي أيد الله بها الاسلام وأطلقت للناس الحرية في عبادة الله وحده بلغت غزوات رسول الله ٢٧ ، وقع القتال منها في تسع . وبلغت سراياه^(٢) وبعوثه ٤٨ . فمن أعظم غزواته :

(١) غزوة « بدر »^(٣) الكبرى . وهي أول غزوة انتصف فيها الاسلام من أعدائه بالسيف ، وبها اشتد أزره وقويت كلمته . وذلك ان قريشا كانوا أشد الناس نكاية في الاسلام وصدّاً عن سبيله ، فاخرجت المسلمين من ديارهم ، وصادرت أموالهم ، ومنعتهم من المسجد الحرام وحجّه

(١) من هذا يُعلم ان الغرض من غزوات النبي صلى الله عليه وسلم ليس مجرد الفتح والملك ، بل الغرض نشر دينه بالتي هي أحسن (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم) . ولذلك كان المسلمون يعرضون الاسلام على القبائل والأُمم ، فاذا امتنعوا رضوا منهم أن يبقوا على دينهم في مقابل ضريبة صغيرة هي الجزية ، وبها يكون لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم . فاذا امتنعوا من كليهما وصدوا عن السبيل وجب حربهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله

(٢) الغزوة ما خرج فيها رسول الله بنفسه وقع فيها قتال لم يقع . والسرية ما أرسل فيها قائداً غيره

(٣) موضع ، أو بئر بين مكة والمدينة

وهو ركن من دينهم ، وبقيت تعمل بعد هجرتهم على كيدهم ، فرأى النبي أن يضعف قوتهم بتعطيل متاجرهم الى الشام والإغارة على قوافلهم . فبلغه أن « أباسفيان » عائد من الشام بتجارة لقريش ، فتعرض لها . ونهضت قريش لا تقاذهما . فالتقى الجمعان على ماء بدر في ١٧ رمضان سنة ٢ هـ (٦٢٤ م) ، وكان عدد المسلمين ٣١٣ رجلاً وعدد المشركين ٩٥٠ ، فانتصر المسلمون ، وقتلت صناديد قريش ، وفيهم أبو جهل اكبر أعداء النبي . ورجع رسول الله الى المدينة ، وقبل فداء بعض الأسرى بالمال . ومن لم يكن له مال ممن يعرف القراءة والكتابة جعل فداءه تعليم عشرة من الانصار الكتابة^(١)

(٢) غزوة « أحد » . وذلك ان قريشاً اجتمعت في ثلاثة آلاف أحد مقاتل بقيادة « أبي سفيان » للأخذ بثأر قتلى « بدر » . فالتقى بهم النبي وأصحابه في ٧٠٠ رجل يوم ٧ شوال سنة ٥ هـ (٦٢٥ م) عند جبل « أحد »^(٢) . فانتصر المسلمون أولاً ، ثم خالف بعضهم أوامر النبي ، ففارقوا مكانهم ، فانكشفوا وجرح النبي ، وقتل المشركون من المسلمين بقدر ما قتل هؤلاء منهم يوم بدر . ورأوا أنهم أخذوا بثأرهم ، فكفوا عن القتال ، وتحاجز الفريقان وانصرف أبو سفيان الى مكة . ودفن النبي الشهداء ، وفيهم « حمزة » عمه ورجع الى المدينة

(٣) غزوة الخندق أو الأحزاب : وذلك ان قريشاً اجتمعت في سنة ٥ هـ سنة ٦٢٧ م هي وكثير من قبائل العرب من أهل نجد والحجاز

(١) ومن ذلك تعلم ان روح الاسلام وغايته هو نشر العلم والتعليم

(٢) قرب المدينة

واليهود ، وقصدوا المدينة للقضاء على الاسلام وأهله ، فبلغ رسول الله خبرهم ، فحفر حول المدينة خندقاً عمل فيه بنفسه . وجاءت الأحزاب فأحاطوا بالمدينة بضعاً وعشرين ليلة ، ورسول الله مقابلهم ، وليس بينهم قتال غير المراماة ، وبرز من فرسان المشركين عمرو بن عبد ود فقتله على بن أبي طالب ولما طال عليهم المقام دس عليهم رسول الله من أوقع الشقاق والاختلاف بينهم . وهبت عاصفة شديدة ، وكانت في أيام شتائية ، فجعلت تطرح خيامهم وتكفأ قدورهم . فرحلت قريش مع أبي سفيان ، وتبعهم بقية الأحزاب راجعين الى بلادهم . وكان بين بني قريظة من اليهود وبين النبي عهد ، فنقضوه وتابعوا الأحزاب . فلما انصرفوا لحقهم رسول الله في اليوم الثاني ، وحاصروهم في حصونهم وأوقع بهم

الهدنة
مع قريش

وفي سنة ست خرج رسول الله الى مكة مُعْتَمِراً لا يريد حرباً . فنعمته قريش وجبست عثمان بن عفان رسوله اليهم . فبايع النبي أصحابه على الموت ، وأراد فتح مكة . فهادنته قريش وحلفاؤها . وأبرم معهم معاهدة صلح ، ورحل الى المدينة

(٤) ثم افتتح حصون خيبر* ، وفيها جمهرة اليهود . ففتحها حصناً حصناً . وبعد رجوعه قدمت عليه بعثة مهاجرة الحبشة

خيبر

(٥) غزوة فتح مكة : لم يمض على معاهدة الصلح بين النبي وقريش أكثر من عامين حتى تقضها حلفاؤها بتعديهم على حلفاء النبي . وعلم ذلك أبو سفيان ، فقدم المدينة لتجديد المعاهدة ، فلم يُصغ له رسول الله . وبعد قليل ، سنة ٨ ، خرج رسول الله الى مكة في عشرة آلاف مقاتل فيهم خالد

ابن الوليد، وكان قد أسلم هو وعمرو بن العاص قبيل ذلك . فلم تبد قريش
الامقاومة قليلة وألقت اليه بأيديها . وجاء أبو سفيان مسلماً ، وأكرمه
النبي . وعفا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أهل مكة ، ثم دخل الحرم
وأزال الأصنام عن الكعبة وكسرها . ثم أسلم جميع أهل مكة

(٦) غزوة حُنين^(١) : وبعد فتح مكة تجمعت هوازن وثقيف وغيرهم
من القبائل الضاربة حول مكة لمحاربة النبي لبدءوه قبل أن يبدأهم . فخرج
اليهم في اثني عشر ألف مقاتل . فاغتر المسلمون وأعجبتهم كثرتهم . فما
التقى الجمعان ، حتى حمل عليهم الأعداء حملة شديدة ، ففر أكثر المسلمين
وثبت رسول الله في خاصة أصحابه وأهل بيته حتى تراجع إليه الفارون ،
وقاتل قتالاً شديداً ، وحمل بالمسلمين فكانت الهزيمة على المشركين ، وغنم
المسلمون منهم غنيمة عظيمة فرق النبي أكثرها في عطاء قريش وغيرهم
ليتألف قلوبهم ، ومنع الأنصار لثقتهم بهم وجبهم له

(٧) غزوة تبوك^(٢) . وهي آخر غزواته : وذلك أنه لما رأى أكثر
العرب دانوا له خرج الى الروم في سنة تسع (٦٣٠ - ٦٣١ م) ومعه ثلاثون
ألفاً وكانت الخيل عشرة آلاف ، وضرب الجزية على أهل أبلّة^(٣)
وأذرح^(٤) ودومة الجندل^(٥) . وكلها كانت إمارات نصرانية تابعة للروم
وكان أثناء غزواته يبعث سراياه وبعوثه الى قبائل العرب كافة فأمنوا تباعاً

(١) موضع بين مكة والطائف (٢) موضع بين الشام والحجاز وهو الآن
أحدى محطات سكة الحديد الحجازية (٣) مكانها الآن العقبة أو قريب منها
(٤) بلدة قريية من تبوك من اطراف الشام الجنوبية (٥) حصن وقرى
شرق تبوك ببادية الشام

وفي سنة سبع هـ (٦٢٨-٦٢٩ م) أرسل كُتَبَةً إلى الملوك والأمراء يدعوهم إلى الاسلام مثل كسرى وقيصر والمقوقس والنجاشي والحارث بن أبي شمر الغساني وهُوَذَة ملك اليمامة والمنذر بن ساوى ملك البحرين . فأسلم النجاشي والمنذر بن ساوى وقومهما ، واکرم المقوقس رسوله حاطباً وأهدى للنبي جارتين من قبط أنصنا (احدهما مارية أم ولده ابراهيم) وبغلة وحماراً وكثيراً من عسلٍ بينها ، وردّ قيصر رداً جميلاً ، ولم يقابل بقية الملوك دعوة الاسلام بالحسنى . ولم تدخل سنة عشر هـ (٦٣٢ م) حتى دخل الناس في دين الله أفواجا ، وأقبل عليه الوفود من جميع أنحاء الجزيرة ، وآمن من فيها من العرب إلا قبائل الشام والعراق . وحج حجة الوداع من هذه السنة ، وحج معه من أصحابه يومئذٍ أربعون ألفاً وفي هذه الحجة تمّ نزول القرآن الكريم ، وكان ينزل مفزقاً على حسب الوقائع . وخطب فيها رسول الله خطبة الوداع الشهيرة التي بين فيها معالم الاسلام وأتم أصوله ووصاياهم . ومات بعد أن بلغ وأرشد ، وترك ديناً خالداً وأمة كريمة

كتب
رسول الله
إلى الملوك

مرض رسول الله نحو اثني عشر يوماً انقطع فيها عن الناس ثلاثة أيام ، وأُناوب عنه أبا بكر يصلي بالناس . ومات في بيت عائشة ضحوة يوم الاثنين لاثنتي عشرة خلت من ربيع الأول سنة ١١ هـ (٦٣٢ م) عن ثلاث وستين سنة . ودفن مساء الثلاثاء في حجرة عائشة حيث قبض . ولم يخلف من بنيهِ وبناته إلا السيدة فاطمة زوج علي بن أبي طالب . ومات بعد النبي بأشهر قلائل ، وكل أولاده ماتوا قبله . كان رسول الله ليس بالطويل ولا بالقصير ، ضخم الرأس ،

وفاته صلى الله
عليه وسلم

صفاته

كَتَّ^(١) اللحية ، عظيم الكفين والقدمين ومفاصل العظام ، أبيض مشرباً
بحمرة ، ادعج^(٢) العينين ، سَبَطَ^(٣) الشعر ، سهل الخدين ، أَقْنَى^(٤) الأنف
أشَمَّهُ^(٥) في مقدم لحيته ومفرق رأسه شعرات بيض . وكان أرجح الناس
عقلاً وأفضاهم رأياً ، قليل المزاح واللغو ، مطيل الصمت ، دائم البشر ،
متفقداً لأصحابه ، متواضعاً ، يخصف^(٥) نعله ويرقع ثوبه ، وخرج من
الدنيا ولم يشبع من خبز الشعير زهداً فيها

(ح) ﴿ حالة الخلافة بعد النبي صلى الله عليه وسلم ﴾

لما قُبِضَ رسول الله لغير وصية بالخلافة تنازع المهاجرون والأنصار
في أمرها ، وبعد أخذ وردٍّ وامتناع من بعضهم انتُخب أبو بكر رضى الله
عنه خليفة ، وقررت الخلافة من بعده في قُرَيْش . وقد كان لأبي بكر
وباقى الخلفاء الراشدين من بعده (عمر وعثمان وعلي) رضوان الله عليهم الفضل
الأكبر في توطيد دعائم الاسلام بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم .
فابتدأ أبو بكر بتسيير الجيش الذى جهزه رسول الله قبل وفاته لغزو
أطراف الشام ، فذهب الجيش وعاد غانماً

ولم تسمع العرب بموت النبي حتى ارتدت عن الاسلام ، وبعضها منع
الزكاة الأهل المدينة ومكة والطائف . وتنابأ كثير من شياطين العرب
كمسيلمة الذى قد كان كاتب النبي فى اقتسام الأرض ، وطليحة بن

(١) غزير شعر اللحية (٢) شديد سواد العين مع سعتها (٣) مرسل

غير مجعد (٤) الشم ارتفاع فى قصبة الأنف مع استواء أعلاه وإشراف الأرنبة
قليلاً ، فان كان فيها احديداب فهو القنا (٥) يخرجها

خُوَيْلِدٍ وَسَجَاحِ التَّمِيمِيَّةِ . وكاد الإسلام يُقْتَلَعُ من أصوله ويذهب كأن لم يكن ، لولا حزم أبي بكر ومضاء عزيمته ، فإنه استشار الصحابة في محاربة المرتدّين ، فكلّهم أشار عليه بلزوم بيته وعبادة ربه ، إذ لا طاقة لهم بحرب العرب كلّها . فغضب وبعث الجيوش واكثرهم من قریش لمحاربة المرتدّين . فقتل جيش خالد بن الوليد مسيلمة الكذاب ، وقهر طليحة وسجّاح ففرّا وأسلما بعد ذلك . ولم يمض أقلّ من سنة حتى خضعت العرب ورجعت الى الإسلام . فساقهم الى ممالك كسرى وقيصر . ففتح من العراق في زمانه المشنّى بن حارثة ثم خالد بن الوليد وعياض بن غنم الحيرة وجميع سقّى الفرات الى تخوم الشام . وفتح أبو عبيدة بن الجراح وأمراؤه شرقاً الشام ، حتى اجتمعت الروم في أكثر من ٢٠٠ ألف . فأمدّ أبو بكر عسكر الشام بخالد ونصف عسكر العراق . ومات وجيوشه تحارب المملكتين . وكانت وفاته بالمدينة ، ودُفِنَ بجانب رسول الله سنة ١٣ هـ (٦٣٤م) وعمره ٦٣ سنة ، فكانت خلافته سنتين وثلاثة أشهر . وفي مدته جُمِعَ القرآن الكريم بإشارة عمر لقتل أكثر القراء في حرب مسيلمة ، وحُفِظَ في بيت حفصة بنت عمر زوج النبي ، حتى نسخه عثمان

وبويع عمر بن الخطاب بالخلافة في اليوم الذي توفي فيه أبو بكر
خلافة عمر ١٣ - ٢٣ هـ
بوصية منه وسمى بأمر المؤمنين . فاستفزّ الناس لحرب الفرس والروم .
٦٣٤ - ٦٤٤ م
فتحت في زمانه ممالك الفرس والشام ومصر

وهو أول من دوّن الدواوين من خلفاء المسلمين ، ومصرّ الأمصار ، فبنيت في مدته الكوفة والبصرة والفسطاط وغيرها ، وأول من عسّ بالليل ، ونصب القضاء ، ووضع التاريخ الإسلامي وجعل مبدأه هجرة

رسول الله الى المدينة المنورة . وكان لا يشغله عن تدبير أمر المسلمين شاغل ليلاً أو نهاراً : يحرك الجيوش بأوامره وهو في المدينة ، وترجع اليه غنائمهم فيصرفها في مصالحهم من غير أن ينال منها لنفسه إلاّ دريهمات لنفقتة كل يوم . فهو رجل المسلمين وموطئ ملكهم ، ولم يقم لهم خليفة بعده مثله في حزمه وعزمه وزهده وعدله

وقُتل رحمه الله غدرًا وهو قائم يصلي بالناس ، طعنه بخنجر أبو لؤلؤة فيروز المجوسى عبد المغيرة بن شعبة سنة ٢٣ هـ (٦٤٤ م) ، وكانت خلافته عشر سنين وستة أشهر

وعهد بالخلافة الى واحدٍ يُنتخب من النفر الذين مات النبي وهو عنهم راض (على وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وطلحة والزبير وسعد بن ابى وقاص) ، وجعل ابنه عبد الله شريكاً لهم فى الراى لا فى الخلافة

فانتخب الناس من النفر الستة الذين عهد اليهم عمر بالخلافة « عثمان ابن عفان » . فسلكت طريق عمر فى سياسته مدة فُتحت فيها بلاد جنوبى التركستان وبرقة وطرابلس الغرب والنوبة وجزيرة قبرس . ثم ظن أن فى توليته الممالك المفتوحة من يثق به من أهله وأقربائه ضماناً لمصلحة المسلمين لنصحهم له وشدهم بعصبيتهم ازره ، فكان غير ما ظن ، ونقم منه كثير من العرب فعله ، ورموه بحجابه أهله والتغيير والتبديل فى سنة رسول الله وصاحبيه . وذهب اليه كثير من سُذّاذ العرب من أهل مصر والعراق ورعاهم . وفيهم بعض أبناء الصحابة ، فحاصروه فى داره بالمدينة ، وطالبوه بعدة أمور لم يرها من حقهم ، فتسوروا عليه وقتلوه وهو يتلو فى مصحفه سنة ٣٥ هـ (٦٥٥ م) . ودُفن بالبقيع ، وله من العمر ٨٢ سنة . وكانت

خلافة عثمان
٢٤ - ٣٥ هـ
٦٤٤ - ٦٥٥ م

خلافته ١٢ عاماً . وكان موته سبباً لإثارة الفتن بين المسلمين . وفي مدته نُسخ من المصحف الذي عند حفصة أربع نسخ أرسلت إلى الأمصار لينقل عنها ويحرق ما سواها

بعد أن قتل عثمان تنازع الناس فيمن يتولى الخلافة فانتخب الاكثرون علياً وبايعوه . وبقى نفر من الصحابة وبنو أمية لم يبايعوه . وحقَّق عليّ مقتل عثمان فلم يتوصل إلى معرفة القاتلين . وخرج إلى الكوفة وجعلها مقر خلافته . وعزل ولادة عثمان على غير رغبة أصحابه ، فاتهمه بنو أمية (ورأسهم معاوية وطلحة والزبير) بتهاونه في إظهار القاتل . وظنوا أن قتله كان عن رغبة منه . فامتنع معاوية بالشام عن مبايعته ، وتبعه أهل بيته وجند الشام . وخرج طلحة والزبير إلى مكة وقابلا السيدة عائشة ، وكانت في الحج ، وحرضاها على الأخذ بثأر عثمان ومحاربة علي . فخرجت معهما في جيش استولى على البصرة وانضم اليهم أهلها . فسار اليهم عليّ في أهل الكوفة وحاربهم ، وكانت السيدة على جمل جليل هودجه بصفائح من الحديد . فقتل دون الجمل مئآت من الناس ، ثم عُقر وانهزم أصحاب الجمل وقتل طلحة وكذلك الزبير عند مُنصرَفه إلى المدينة . وأرسل عليّ السيدة عائشة مكرّمة إلى المدينة

خلافة على

٣٥ - ٤٠ هـ
٦٥٥ - ٦٦٠ م

الخلاف بين
على ومعاوية

واقعة الجمل

واقعة صفين

ثم ازدادت الوحشة بين معاوية وعليّ . فجردا جيشين عظيمين التقيا بصفين* ودام الحرب بينهما أربعين صباحاً . ثم عرض جيش معاوية على جيش عليّ أن يحكما بينهما حكمين يُختار كل واحد من فريق . فحكما « أبا موسى الأشعري » من قبل عليّ و « عمرو بن العاص » من قبل

* موضع قرب الرقة بشاطئ الفرات . وكانت الواقعة في صفر سنة ٣٧

معاوية . فاتفقا على خلع الاثنين ليعاد انتخاب الخليفة من جديد ، وفي يوم الحُكْم اجتمع العرب ، فحكم أبو موسى بخلع صاحبه ، ورجع عمرو عن اتفائه وحكم بتشييت معاوية . ففَتَّ ذلك في عَضْد أصحاب على ، وتقاعد عن نُصرته كثيرون ، حتى اتفق ثلاثة من فُتَّاك الخوارج على اغتيال على ومعاوية وعمرو بن العاص ، فنجح أمرهم في تلي ، وخاب في معاوية وعمرو ، فقتل على غيلةً بيد « عبد الرحمن بن ملجم » ، وهو ينادى لصلاة الصبح غلَسًا بمسجد الكوفة . فدفنه ابنه الحسن خفيةً وستر قبره وقتل قاتله . الحسن وبايعه أهل الكوفة بالخلافة ، فتنازل عنها لمعاوية بعد أشهر حَقْنًا لدماء المسلمين . فتمَّ الأمر لمعاوية واستولى على الممالك التي دخلت في طاعة على ، وأسس دولة بنى أُمية . فصارت الخلافة ملكية وراثية في دولته وقتل أمير المؤمنين على سنة ٤٠ هـ وعمره ٦٣ سنة . وكان شجاعاً عالمًا ، شهد المواقع بين يدى رسول الله . ومن مآثره انه أمر « أبا الأسود الدؤلى » فوضع النحو .

وكان العرب قد استمروا في فتوحهم بقية حكم الخلفاء الراشدين حتى استولوا على معظم أملاك الدول القوية إذ ذاك مما سيأتى ذكره

(٥) ❦ الفتوح الإسلامية ❦

التحام العرب مع الفرس والروم

كان النبي صلى الله عليه وسلم يبشر المسلمين طُولَ مدة رسالته بفتح ممالك فارس والروم . وشرع في ذلك آخر حياته ليقتدى به خلفاؤه من بعده ، فغزا بنفسه غزوة « تبوك » وأغزى أصحابه غزوة « مؤتة » ، وخرج

من الدنيا وقد جهّز جيشاً أمر عليه مولاه «أسامة بن زيد»، فبرز خارج المدينة لحرب الروم، وأوصى في مرضه بإتفاذه الى الشام. فأنفذ «أبو بكر» وصيته، وسير هذا الجيش فغزا القبائل الموالية للروم في جنوبي الشام وعاد بعد أربعين يوماً

ومن ذلك الوقت شرع أبو بكر في تحقيق بشارة النبي واستنجاز وعده. ولثقتة بإيمان أصحابه وعلو هممهم على قلة عددهم وعددهم رأى أن يغزو بهم الفرس والروم في آن واحد. ونفذ «عمر» بعده خطته على ما فيها من المصاعب وتفريق القوة فأعقبت النجاح والظفر، وأكمل بقيتها الخلفاء الراشدون وبنو أمية وبنو العباس. حتى كان لهم من نشر دينهم واتساع ملكهم ما استطالوا به على أكثر الممالك العظيمة في تلك العصور:

(١) فتح فارس: من سنة ١٢ الى سنة ٢١ هـ (٦٣٣ — ٦٤٢ م)

لما فرغ أبو بكر من حرب المرتدين، ودانت جزيرة العرب للإسلام رأى أن يشغل العرب بعدها عن الفتن الدينية والسياسية بسوقها الى الممالك الغنية الخصبه المجاورة لها لعلمه بما فيها من الفتن الداخلية. فجهّز لغزو فارس جيوشاً متفرقة جعل قيادتها العامة خالد بن الوليد. ففتحو العراق والجزيرة. ثم أرسل أبو بكر الى خالد أن يذهب في نصف الناس لإنجاد عسكر الشام. وبقي أحد قواده «المثنى بن حارثة» يحارب الفرس حتى مات أبو بكر. فأمدّه عمر بجيش، فخاربوا في جملة وقائع انتصروا في بعضها وأصيبوا في آخر حتى ملك «يزدجرد»، فجمع أبطال الفرس وصناديدهم في جيش بلغ ١٢٠ ألف مقاتل. وعلم ذلك عمر فجمع أشرف

العرب وفرسانها وخطباءها وشعراءها ، وجعل على الجميع أميراً « سعد بن أبي وقاص » القرشي . فبلغ عدد المسامين بضعة وثلاثين ألف رجل ، فالتقوا بالفرس سنة ١٤ هـ (٦٣٦ م) بالقرب من « القادسية » في موقعة فاصلة ^{واقعة القادسية} من أشد الوقائع ، لم يفلح بعدها الفرس في موقعة ، فقتل أبطالهم وشجعانهم وقائدهم العظيم « رستم » . وغنم المسلمون معسكر الفرس وراية مملكتهم ، وكانت من جلد مستتر بالجواهر الكريمة

وفي هذه السنة بعث عمر « عتبة بن غزوان » في جمع الى « الأبلّة » ^{الأبلّة} (مرّفاً السفن على شماليّ بحر فارس) ، فافتتحها وهزم حامية الفرس مراراً في جنوبي العراق ، واختطّ مدينة « البصرة » ، وبعث بالغنائم الى عمر . وأعجب المسلمون بذلك ، فأقبلوا على البصرة تباعاً . ولما فرغ سعد من أمر « القادسية » واستراح جيشه خرج الى « المدائن » (إكتيسفون) عاصمة الفرس وبها إيوان كسرى العظيم . فهزم في طريقه اليها جموعاً كثيرة للفرس وحاصر المدائن الغربية ، ثم عبر بجيشه الى الشرقية وحاصرها . ففرّ « يزدجرد » في خاصته وبقية عساكره الى « حلوان » بعد أن أباح بيوت المال والذخائر لقواده ، وخلف أخارستم على المدائن . فشدد العرب عليهم الحصار ، فهرب من في المدينة ودخلها العرب سنة ١٦ هـ (٦٣٧ م) . وأمر سعد أن يلحقوا حملة الأموال والنفائس فأدركوا كثيراً منهم ، ووضعوا أيديهم على خزائن الفرس ممّا لا تقدّر قيمته ، وكان في ذلك تاج كسرى ومنطقته وسواره ودرعه وبساطه (وكان ستين ذراعاً في مثلها ، وكان على هيئة روضة قد صوّرت فيه الأزهار بالجواهر المختلفة الألوان على نسيج الذهب) ، واستولى العرب كذلك على ذخائر الملوك الذين قهرتهم فارس

فتح عاصمة
فارس ١٦ هـ

وأقام سعد بالمدائن مدة . وبعث بالجيوش ففتحت بقية البلاد . وفي سنة ٢١ هـ (٦٤٢ م) جمع « يزدجرد » جميع من في فارس وخراسان من المقاتلة وانضم اليهم بقية المنهزمين ، فاجتمع له ١٥٠ ألفاً فتحمسوا وصمموا على إخراج العرب من بلادهم . فبلغ « عمر » ذلك نخاف على المسلمين وأمدّهم بجيش عليه « النعمان بن مقرن » ، فساروا وانضم اليه ثلث من في العراق وقصدوا الفرس في نحو ٣٠ ألفاً فالتقوا بهم قرب « نهاوند » في موقعة لم يقع للعرب مثلها ، قاوم الفرس فيها مقاومة عظيمة ، وقتل فيها « النعمان بن مقرن » فتولى مكانه « حذيفة بن اليمان » ، وحمل بالناس فانهزم الأعداء ، وقتل العرب بهم فتكاً ذريعاً ، ولم يفلت منهم الا القليل . وتسمى واقعة « نهاوند » هذه بفتح الفتوح ، إذ لم يكن للفرس بعدها اجتماع ، ودخلت مملكتهم جميعاً في حوزة المسلمين

واقعة نهاوند
٢١ هـ

أما « يزدجرد » فما زال يفرّ أمام العرب من بلد الى بلد حتى قُتل أثناء فراره زمنَ عثمان سنة ٣١ هـ (٦٥١ م) . وبموته انقرض آل ساسان

(٢) فتح الشام

بعد أن سار أبو بكر خالدًا الى العراق بقليل سير أربعة جيوش الى بلاد الشام لغزوها من جهات مختلفة . فساق « هرقل » قيصر الروم على كل جيش جيشاً أضعافه في العدد . فرأى قواد جيوش المسلمين الأربعة أن يجتمعوا في بسيط واحد . فعلم ذلك هرقل ، فأمر جيوشه أن ينزلوا على نهر « اليرموك » . فنزلوا بين النهر وبين وادٍ عميق كأنه خندق يُعرف « بالواقصة » في أكثر من ٢٠٠ ألف مقاتل سنة ١٣ هـ (٦٣٤ م) ،

واقعة اليرموك
أو الواقصة
١٣ هـ

وكانهم رأوا أن الوادي والنهر يحميان جانبيهم . ونزل العرب أمامهم على نفس الضفة من النهر ، فصار الروم كأنهم محصورون ولا طريق لهم إلا على العرب . وحضر الروم بينهم وبين العرب خندقاً ، وطاولوهم في القتال ليضربوا على العرب ولا يخشوا بأسهم . وبقوا كذلك ثلاثة أشهر كانب العرب فيها أبو بكر واستنجدوه . فكتب الى خالد بن الوليد أن يجدهم بنصف عسكر العراق . فسار مسرعاً سالكاً بادية السماوة^(١) حتى بلغ الشام ففتح في طريقه مدينة « بصرى »^(٢) وانضم الى معسكر المسلمين ، فتمكمل به عددهم نيفاً وأربعين ألفاً . ورآهم خالد متساندين كل رئيس منهم مستقل برأيه وجماعته . فجمعهم على أن يتولى كل أمير القيادة يوماً . وبدأ هو باليوم الأول . فعبأ جيشه تعبئة لم يسبق العرب مثلها : فرقم ٣٨ كردوساً وهاجم بهم الروم . فخرجوا من خندقهم . فهجم خالد بقلب الجيش ، ففرق بين فرسانهم ورجالتهم . ورأى فرسانهم أنهم صاروا في وسط العرب ، ففروا الى الصحراء ، وأوسع لهم المسلمون الطريق ، واكتفوا شرهم . ثم أطبقوا على الأعداء ، فردوهم الى خندقهم ، بل اقتحموه عليهم ، وأقبل الليل فلم توقف العرب القتال ، وحصروا الأعداء فتساقطوا في الهوة من جانب

(١) سلك خالد هذه المفازة المهلكة المدومة المياه لجملة وجوه حربية وغيرها أهمها سرعة نجدة لجند الشام لقصر مساقمتها عن الطريق المعتاد سلوكه على شاطئ الفرات ، وتجنب العوائق التي تعترضه في الطريق المعتاد لاعتراض كثير من حصون الجزيرة وشمال الشام له . وحكاية اختراق جيشه هذه البادية اعجب من اختراق جيش انيبال جبال الألب . فلتراجع في كتب التاريخ المطولة

(٢) وهي مدينة صغيرة شرق الشام على أبواب الصحراء

وفي النهر من الآخر . وقتل منهم غرقاً وتردياً أكثر مما قتل بسيفوف العرب ، وتمّ النصر للمسلمين . ولم ينبج من الروم غير فرسانهم الا القليل . وكانت هذه الموقعة أعظم الوقائع بين الروم والعرب ، فلم يثبت لهم بعدها أمام العرب جيش ولو كثر عدده . وفي أثناء تلك الواقعة جاء البريد بموت أبي بكر وعزل خالد عن قيادة الجيش وتولية أبي عبيدة قيادته ، فقبل خالد ذلك بالسمع والطاعة . ونصح لأبي عبيدة في الرأي والجهاد . وساروا لفتح دمشق فحاصروها ٧٠ يوماً وفتحها خالد عنوة من جانب . وبينما هو يتقدم داخلها خرج محافظ المدينة وقابل أبا عبيدة من جانب آخر وسلمها له صلحاً سنة ١٤ هـ (٦٣٥ م) . وبعث أبو عبيدة الجيوش لفتح سائر مدن الشام ، ففتحوا بلاد الساحل ومدينة حمص واللاذقية وقنيسرين وحلب وأنطاكية . وكان هرقل يتنقل في مدن سورية الحصينة يراعى جيوشه . فلما أوغل المسلمون في الجهات الشمالية صعد على ثَنَ من الأرض ثم التفت الى الشام وقال : «السلام عليك يا سورية سلام لا اجتماع بعده» ، وهرب الى القسطنطينية

واقعة أجنادين

وكان جيش من المسلمين يقودهم عمرو بن العاص ذهبوا لفتح بيت المقدس ، فالتقوا في طريقهم بالروم في موقعة عظيمة تعرف بواقعة أجنادين هُزم الروم فيها هزيمة شنيعة . ثم حاصروا بيت المقدس أربعة أشهر ، وبني بطريقها ان يسلم المدينة الا على يد الخليفة عمر ليكتب بنفسه شروط الصلح ، فحضر عمر الى الشام وتسلم المدينة سنة ١٥ هـ (٦٣٦ م) وأسس مسجده على الصخرة . وخرج عمر الى الشام ثلاث مرات غير هذه المرة . وتم فتح الشام في أقل من ست سنوات

تسلم بيت
المقدس ١٥ هـ

وفي سنة ١٨ هـ (٦٣٩ م) حدث في الشام طاعون عظيم يسمى
طاعون عَمَّوَس مات به ٢٥ ألفاً من الصحابة منهم أبو عبيدة
(٣) فتح مصر

لما قارب فتح الشام الانتهاء استأذن «عمر بن العاص» أمير المؤمنين
«عمر بن الخطاب» في فتح مصر ، ووصف له ثروتها وهون عليه أمرها ،
فامتنع «عمر» بادئ بدء ، ثم بعثه (والتردد يخالجه) في أربعة آلاف
أو أقل ، وقال له : « سيأتيك كتابي سريعاً ان شاء الله تعالى ، فإن
أدركك كتابي أمرك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئاً
من أرضها فانصرف ، وإن أنت دخلتها قبل أن يأتيك كتابي فامض
لوجهك واستعن بالله واستنصره »

فلم يكد عمرو يتجاوز الحدود المصرية حتى جاءه كتاب « عمر » ،
فواصل السير حتى بلغ « الفرما » في أواخر سنة ٦٣٩ م (١٨ هـ) . فقاوم
الروم فيها مقاومة ضعيفة حتى ان العرب مع قلة عددهم ونُدرة ما عندهم من
آلات الحصار أستولوا عليها عنوة في شهرين

ولما أمن «عمر» طريق الاتصال بالشام أجدد السير في طريق
المواضع التي تُعرف الآن « بالقنطرة والقصاصين والتل الكبير » حتى نزل
على « بلييس » ، فحاصرها شهراً ثم فتحها بعد قتال شديد . وعند ذلك
انضم إلى عسكره كثير من بدو الصحراء فعوضوا ما خسره من جيشه الصغير
ثم سار حتى وصل الى قرية على النيل تُدعى « أمّ دُنين » (موقعها
الآن ما بين عابدين والأزبكية بالقاهرة) * . وكان معظم الجيوش الرومانية

* يعلم من ذلك ان النيل غير مجراه منذ ذلك العهد وتحول الى الغرب

حينئذٍ ممتنعة في حصن بابليون ، ولكن الحامية المرابطة في «أم دنين» عاقت «عمرا» عن التقدم بضعة أسابيع حدثت فيها مناوشات عديدة انتهت باستيلاء عمرو عليها

ولما رأى «عمرو» ان ما معه من المقاتلة لا يكفي لفتح «حصن بابليون» أراد أن يشغل جيشه بعمل ريثا يأتيه المدد ، فخرج في غارة إلى الفيوم (وتلك مخاطرة كبيرة) ، فعبّر النيل في قوارب وسار بطريق غارة إلى الفيوم منف إلى الفيوم ، فلم يفلح في الاستيلاء عليها ، إلا أن هذه الخرجة انتهت بما قصد إليه ، فإنه عند ما عاد إلى عين شمس في صيف سنة ٦٤٠ م لحق به المدد الذي بعثه أمير المؤمنين وفي مقدمته الزبير بن العوام وعدتهم ١٢٠٠٠ مقاتل

واتهز الروم فرصة تغيب «عمرو» بالفيوم فاستولوا ثانية على «أم دنين» ثم أعد «تيودور» قائدهم نحو ٢٠٠٠٠ مقاتل وأراد مناجزة العرب ، فزحف إلى عين شمس قاعدة الجيش العربي . فوضع «عمرو» كمينًا من جيشه في موضع خفي بالقرب من «الجليل الأحمر»^(١) وآخر في النيل قريبًا من «أم دنين» ، ولحق «تيودور» بالفريق الأكبر من الجيش . فلما حمى وطيس الحرب ثار الكمينان على جناحي الجيش الروماني وساقته فسحقوهم سحقًا ، ولم يبق للروم منهم سوى ٣٠٠ مقاتل وفقد الآخرون ما بين قتل وهارب . واستولى «عمرو» بهذه المعركة على مدينة «مصر»^(٢) فانفسح أمامه السبيل

واقعة
عين شمس

(١) شرق العباسية

(٢) اختلف في موقع هذه المدينة وحقيقتها . والأرجح أنها كانت امتداد مدينة منف على شاطئ النيل الشرقى . ومبانيها تمتد شمال الحصن وجنوبه

لإتمام إخضاع الفيوم والشروع في محاصرة « حصن بابليون »

وكان القائد الحقيقي للجنود الرومانية في حصن بابليون وقتئذٍ هو
« سيرُوس » بطريق الطائفة الملكية بالاسكندرية والحاكم الإداري
لمصر، وهو المعروف عند العرب بالمُقَوْس*

وقد كان له يد عاملة في هذا الفتح، ومضى عليه عشر سنين وهو مكروه
من الأقباط لاضطهادهم، فلما حاصر العرب الحصن كان النيل مائلاً
(أو آخر اغسطس) وليس لهم من آلات الحصار والحيل الهندسية ما
يسهل عليهم اقتحام الحصن، على عكس ما كان لعدوهم من ذلك فوق
امتلاء الخنادق بمياه الفيضان. ولما أخذ النيل في الهبوط (في شهر أكتوبر)
أخذ « المقوقس » يثب من ردّ العرب عن البلاد، وسمى سرّاً في عقد
صلح معهم في جزيرة الروضة، فلم يرض « عمرو » منه إلا بخصلة من ثلاث
(وهي الاسلام أو الجزية أو القتال). ثم كتبت المعاهدة وأرسلت إلى
امبراطور الروم لإقرارها، فسخط « هرقل » وأخذته دهشة من التسليم
لبضعة آلاف من المسلمين. فاستدعى « المقوقس » إلى القسطنطينية في
الحال (نوفمبر سنة ٦٤٠ م). فواصل العرب حصار الحصن بنشاط جديد.
وجمع « تيودور » جيشاً جديداً في الوجه البحري يحاول به فض الحصار
عن الحصن فلم يستطع شيئاً حتى ولا الدنو من الحصن. وفي شهر مارس
سنة ٦٤١ م سمع المحصورون ضجة فرح في معسكر المسلمين، وبأن لهم
أنها كانت لموت هرقل، ففت ذلك في عضد الروم وأوهن عزائمهم

* وفي المقرئى انه يسمى « المقوقس بن قرقت » ولعله محرف عن
« سيرُوس » لأن حرف (C) يُنطق به قافاً في العربية كثيراً

وفي ٦ ابريل سنة ٦٤١ م عهد الزبير الى تسور الحصن بسلم كبير ،
ولما صار في أعلى السور تبعه الناس ، فلم يسع الروم الا التسليم على شريطة
أن ينجوا بحياتهم ، فقبل « عمرو » ذلك وأمهلم ثلاثة أيام يجلون فيها عن
الحصن . ومن الغريب ان الأحزاب الدينية بالحصن لم يُلهم ما حاق بهم
عن الخصام في الدين ، فان الطائفة « المملكانية » قضت يوماً من أيام
المهلة الثلاثة في تعذيب الأقباط الذين سجنوا في الحصن قبل الحصار ،
حتى انهم قطعوا أيديهم وأرجلهم

فتح
الاسكندرية

ولما أخلى الروم الحصن بادر عمرو الى اتمام فتح البلاد فسار الى
الاسكندرية واستولى في طريقه على مدينة « تقيوس »* . وكان « تيودور »
قد جمع فلول جيشه معزاً بعدد كبير ، فالتقى العرب بالقرب من « دمنهور »
في موقعة عظيمة دامت أكبر من عشرة أيام واضطر الروم بعدها الى
التحيز الى الاسكندرية التي كان في العرب آثارهم . وكانت الاسكندرية عظيمة
التحصين وبها من الروم : مقاتلون وكان يُتوقع أن تصد العرب زمناً
طويلاً : فلا هي ضعيفه التحصين حتى يأخذها العرب عنوة ، ولا هم
يستطيعون في قلة عددهم حصرها براً وبحراً . لذلك ترك « عمرو » جيشاً
بظاهرها (يوليو سنة ٦٤٤ م) يرقبها ، وسار في آخر لاختصاع بعض بلاد
الوجه البحرى الصغيرة . وفي خلال ذلك كان المقوقس قد عاد الى
الاسكندرية وتولى منصب البطريق ثانية . وفي هذه المرة نجحت مساعيه ،
فانه اقنع الامبراطور الجديد (وكان ضعيفاً) بضرورة الموافقة على تسليم

* موقعها الآن قرية ابشاداي بمديرية المنوفية على فرع النيل الغربى . وقيل
أيضاً انها كانت تسمى « نخو »

الاسكندرية . ثم شرع سراً في عقد معاهدة ثانية مع «عمر» فتقابلوا في
معاهدة تسليم
الاسكندرية
ببليون وعقدا الشروط الآتية :

- (١) ان تُدفع الجزية للمسلمين
- (٢) أن يُعقد لذلك هدنة مدة ١١ شهراً
- (٣) أن تجلو الجيوش الرومية من الاسكندرية
- (٤) أن لا يتدخل المسلمون في دين المسيحيين أو يستبيحوا كنائسهم
- (٥) أن يُسمح لليهود بالإقامة بالاسكندرية
- (٦) أن يسلم الروم ١٥٠ من جندهم و ٥٠ من رجالهم غير المحاربين
رهنًا وضمانًا لما تقدم

وعندما سمع أهل الاسكندرية وحاميتها بذلك هاجوا غضباً وكادوا
يفتكون «بالمقوقس» لولا ما أوتي من البلاغة ، فانه تمكن بها من اقناعهم
بان ما وقع خير لهم من أى شئ . وفي أول محرم سنة ٢١ هـ (١٠ ديسمبر
سنة ٦٤١ م) دُفعت الجزية ودخلت الاسكندرية في قبضة العرب .
ويُعتبر تسليم الاسكندرية من الوجهة الحربية أمراً لم يكن في الحسبان ،
فانها كانت تستطيع المقاومة ثلاث سنوات أو اربعا حتى يرسل اليها
القيصر المدد الكافي لانقاذها . ولكن الاسكندريين كانوا قد سئموا
تقلبات الروم وسوء حكمهم في الأربعين سنة الأخيرة ، فسهل عليهم التأثير
ببلاغة المقوقس ورجوا أن ينالوا في ظل المسلمين هدوا وسلاما
ولا شك أن المقوقس كان أكبر مساعد على تسليم الاسكندرية ،
وربما كان له في ذلك مأرب خاص وهو جعل بطريقته مستقلة عن

« القسطنطينية » ، فرأى أن ذلك أسهل في عهد المسلمين منه في عهد
أمة مسيحية

(هـ) كلمة في الأمويين والعباسيين

(١) دولة بني أمية

٤١-١٣٢ هـ (٦٦١-٧٥٠ م)

تمت الخلافة لمعاوية (٤١-٦٠ هـ : ٦٦١-٦٨٠ م) فكان بذلك مؤسساً
لدولة بني أمية* وأقام بدمشق فبقيت دار الخلافة العربية ٩٠ عاماً . وكان
موقعها أوفق لمقر الملك من سابقتها « المدينة » و « الكوفة » لاتساع
أمالك المسلمين التي كان « معاوية » يرمى الى مدها شمالاً حتى يستولى على
القسطنطينية ، ومع أنه لم يتم له ذلك وأُحرق اسطوله في حصار تلك المدينة
فتحت في عهده بعض بلاد التركستان وبلاد الأفغانستان وشمال الهند
وبلاد البربر (الجزائر ومراكش) ورودس . ثم حمل الناس على البيعة لابنه
« يزيد » فقبلها العرب لأن الغلب والعصبية كانا لبني أمية والمصاحبة تقتضى
ذلك . وخالف بعض الصحابة فلم يستطيعوا اخراج الخلافة من بيت بني
أمية بل بقيت فيهم ملكاً عضوضاً . وأعظم خلفاء بني أمية بعد معاوية
« عبد الملك بن مروان » (٦٥-٨٦ هـ : ٦٨٥-٧٠٥ م) ، فهو المجدد
الثاني للملكهم والمستخلص له من يد الخليفة عبد الله بن الزبير الذي دانت
له الممالك الاسلامية عقب موت معاوية . وبلغت دولة بني أمية أقصى
مبلغها في عهد « الوليد بن عبد الملك » (٨٦-٩٦ هـ : ٧٠٥-٧١٥ م) .

معاوية

عبد الملك
ابن مروان

الوليد

* نسبة الى « أمية بن عبد شمس » جدّهم

ولى الخلافة والملك ثابت الدعائم فسهر على توسيع الأملاك الإسلامية
فجدت جيوشه في الفتوح شرقاً حتى مدينة « سَمَرْقَنْد » ونهر « السِّنْد ». ولما
ثارت برابرة المغرب بالمسامين بعث اليهم الوليد « موسى بن نصير » بجيش
عظيم فتح به عامة بلاد المغرب وثبت فيها سلطان العرب الى المحيط . ثم
بعث موسى بمولاه « طارق بن زياد » في جيش الى « الأندلس » فقهر
جيوش « القوط » (قبائل القوط الغربية) في موقعة (شَرِيش) سنة ٩٢ هـ
(٧١١ م) ودخلت الأندلس بأسرها في الأملاك العربية

وبينما كانت جيوش الوليد تجتهد في فتح البلاد وتظهر للعالم مهارة العرب
في الحرب كان هو يلتفت الى داخل بلاده وتهيئة ما يلزمها من أسباب
التقدم والعمران . وكان له ولع شديد بالعمارات العظيمة ، فبنى جامع بني
أمية العظيم وداراً للعجزة والمرضى بدمشق ، وجدّد مسجد النبي صلى الله
عليه وسلم بالمدينة . ويمكن اعتباره في الحقيقة المحرض الأول على انشاء
العمارات العربية . ومات الوليد سنة ٩٦ هـ (٧١٥ م) وسلطان المسلمين
يمتد من المحيط الاثنتى الى الصين وجبال الهند . ومن بلاد السودان
واليمن الى سهول سيبيريا وهي اكبر مساحة وصلت اليها المملكة العربية

وبعد وفاة « الوليد » دخلت الدولة في طور تقهقر ووقفت الفتوح
العربية العظيمة . ولما خلف الوليد أخوه « سليمان بن عبد الملك » سير
جيشاً واسطولاً عظيمين الى « القسطنطينية » فلم يستطيعوا الاستيلاء
عليها . على ان الجيوش العربية في الاندلس كانت سائرة في فتح جنوبى
فرنسا حتى وصلت الى نهر « اللوار » ولكنها التقت بجيوش « شَرْلَمَرْتل »
في موقعة « بواتيه » (تُوَر) سنة ١١٤ هـ (٧٣٢ م) فقتل قائدها واضطر

سليمان
ابن عبد الملك

المسلمون الى التراجع الى الأندلس ، ولم يفكروا بعدها في فتح فرنسا
ومن ذلك الحين كثرت الفتن الداخلية في دولة بني أمية وقويت
الأحزاب المشايعة لأهل البيت ولبنى العباس . ثم أخذ أمر دعاة بني
العباس يستفحل في خراسان بزعماء « أبي مسلم الخراساني » حتى أقبلت
جيوشه من « خراسان » والتقت بجيوش « مروان بن محمد » آخر خلفاء
بني أمية على نهر « الزاب » أحد فروع « دجلة » ، فانهزم مروان وتبعته
جيوش العباسيين الى الشام فصر حتى لحقته بقرية بوصير من مديرية
الجزيرة وقتلته . وبذلك انقرضت دولة بني أمية سنة ١٣٢ هـ (٧٥٠ م)
وكانت دولة بني أمية من أعظم دول الاسلام . وهي الدولة العربية
المحضنة التي حافظت على الشعار العربي في لبسها ومعيشتها وحكومتها ،
وكانت السلطة في زمانها كلها بيد العرب . ويرجع سقوط هذه الدولة الى
جملة أمور منها :

(١) مزاحمة يثتين عظيمين لهم في الخلافة : هما بيت العلويين
والعباسيين ، ولكل شيعة عظيمة تنصره لقرايته من رسول الله صلى الله

اسباب سقوط
الدولة الأموية

عليه وسلم

(٢) كثرة الخوارج الذين لا يرون وجوب انتخاب الخلفاء من قریش

(٣) تهاون الطبقة الثانية من أبناء خلفائهم بامر الملك واشتغالهم

باللهو ومشاحة بعضهم لبعض وتنازعهم في الخلافة

(٤) ترفعهم على الأجناس المحكومة من الفرس والترك والروم

وغيرهم ، فقلما كانت تتخذ منهم ولاية أو قواداً أو تزوج منهم ، مما بغضهم

فيهم وجعلهم ينصرون العباسيين عليهم

(٢) الدولة العباسية

(١٣٢ — ٦٥٦ هـ : ٧٥٠ — ١٢٥٨ م)

مبدأ أمر هذه الدولة ان الأمويين اضطهدوا جد العباسيين (على ابن عبد الله بن عباس) ونفوه الى قرية من بادية الشام ، فرّ بولده محمد فيها أحد زعماء العلويين مريضاً فتنازل لمحمد عن حقوق المطالبة بالخلافة ولقب بالإمام ، فسهّل ذلك عليه وعلى أولاده دعوة الناس سرّاً الى بيعتهم ، فعظم شأن شيعتهم في خراسان بزعامه « أبي مسلم الخراساني » ثم زحفوا على العراق فظهر « عبد الله السفّاح » بن محمد وبايعه أهل الكوفة سنة ١٣٢ هـ السفّاح (٧٥٠ م) فكان بذلك مؤسساً للدولة العباسية . ثم تتبع بنى أميّة قتلاً وجبساً فهاجوا على وجوههم في أنحاء البلاد* . واتخذ السفّاح مدينة الأنبار بقرب الكوفة داراً للخلافة . وهو أول من اتخذ الوزراء ، وكانت مدته القليلة مدة تأييد لدعائم الملك وترتيب لنظام حكومته . ومات بالأنبار بعد ٤ سنين وعمره ٣٣ سنة

* وهرب منهم « عبد الرحمن بن معاوية » ابن الخليفة « هشام » فسار الى « الأندلس » حيث وجد كثيراً من عسكر آبائه وشيعتهم فتغلب على تلك البلاد وأسس بها دولة أموية مستقلة كانت تضارع العباسية في العلم والحضارة وعاصمتها « قرطبة » . ومن أشهر خلفائها « عبد الرحمن الناصر » الذي نافست قرطبة في عصره بغداد . وبقيت دولتهم الى سنة ٤٢٢ هـ (١٠٣١ م) ثم ورثهم ملوك الطوائف من العلويين وغيرهم فأخذ الأسبان ينقصون الأندلس من أطرافها بلداً بلداً . ثم استولى عليها ملوك البربر من « المُلثمين » والموحدين ثم بنو الأحرار من العرب حتى سقطت في يد الأسبان سنة ٨٩٧ هـ (١٤٩٢ م)

المنصور

ثم ولى الخلافة بعهد منه أخوه « أبو جعفر المنصور » ، وهو شيخ العباسيين وأعظم خلفائهم والمؤسس الحقيقي لدولتهم : لم يكذب على الخلافة حتى خرج عليه أشراف العلويين وبعض أعمامه وتفاقت الثورات والفتن ، وطمع « أبو مسلم الخراساني » نفسه في انتزاع الملك من بيته فاحتال عليه بحسن سياسته ودهائه وقتله وأخذ الفتن والشُرور ، حتى إذا صفا له الجوّ أقبل يرغب العلماء في التأليف والتصنيف فكان عصره أول عصور وضع العلوم الإسلامية العربية . وفيه تُرجم كثير من كتب الفرس وغيرهم . وبنى « المنصور » مدينة « بغداد » وجعلها عاصمة له . وما زال ملكاً أبناؤه بها حتى صارت أزهى وأخفم مدينة في الدنيا . وكان رجل جدّ واقتصاد وعلم وفضل . مات سنة ١٥٨ هـ (٧٧٥ م) وترك خزائن الدولة مفعمة بالأموال فكان ذلك سبباً في مساعدة الخلفاء من بعده على تنمية الآداب والعلم والحضارة

الرشد والمأمون

وبلغ هذا الرقيّ أقصاه في عهد « هرون الرشيد » (١٧٠ - ١٩٣ هـ : ٧٨٦ - ٨٠٩ م) وابنه « عبد الله المأمون » (١٩٨ - ٢١٨ هـ : ٨١٣ - ٨٣٣ م) ، فانه في عهدهما بلغ العرب أقصى مبلغ من الحضارة وتمتعوا بأعظم أسباب النعيم والرفاهية . وظهر في بغداد شغف بالعلوم والآداب والفنون والفلسفة لا يكاد يكون له نظير في تاريخ العالم بأسره

وبعد أيام « المأمون » أخذ الانحلال يتسرّب الى جميع أنحاء الدولة باتخاذ المعتصم جنوداً عظيمة من ممالك الأتراك يستعزّ بهم على العرب والفرس ، فعظم شرهم في زمنه حتى خرج بهم من بغداد وبنى شمالها مدينة « سُرْمَن رَأَى » فاستفحل أمرهم بها ، واستطالوا على الخلفاء من أولاده

وأحفاده : يخلعونهم ويقتلونهم ويسلمون أعينهم . وسقطت مهابة الخلفاء من أعين الولاة ، فاستبدوا بنواحيهم ، وكثر الخوارج والمفسدون من الزنج^(١) والقرامطة^(٢) ونشأت الدولة السامانية ببخارى ، والدَّيْلَمِيَّة بفارس والعراق ، وبنو حمدان بالجزيرة ، والطولونية ثم الإخشيدية (مع الاعتراف بسيادة الخليفة) ثم الفاطمية ثم الأيوبية بمصر والشام . ثم ورث السُلْجُوقِيُّونَ الإمارات الشرقية ، أى ما عدا مصر والشام ، واستولوا على ديوان الخليفة ببغداد حتى أصبح لا حلَّ له ولا عقد ، واستمرَّ ذلك الى زوال الخلافة حتى أغار التتار بقيادة زعيمهم « هولاكو » فاستولوا على بغداد سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) بمساعدة الخائن « مؤيد الدين بن العلقمي » سقط بغداد وزير المستعصم آخر خلفاء بغداد ، وقتلوا الخليفة وأهله ومثّلوا بهم . وبموت المستعصم سقطت الخلافة العباسية من بغداد . وفرَّ بعض الخلفاء الى مصر فى زمن الملك الظاهر بيبرس . فأُنْزِلَهم وخصص لهم بعض وظائف لمعاشهم ، وبقوا فيها حتى جاء السلطان سايم الى مصر وافتتحها من يد المماليك فباعه الخليفة المتوكل آخر خلفاء العباسيين بمصر بالخلافة ، فانتقلت بذلك الى العثمانيين سنة ٩٢٢ هـ (١٥١٧ م)

وكانت الدولة العباسية دولة عظيمة الشأن قوية السلطان طويلة العمر ، انتشرت فى مدتها العلوم والمعارف واتسع نطاق الفنون والصناعة والزراعة ، وبلغت من الحضارة مبلغاً لم تصل اليه دولة اسلامية بعدها .

(١) جمع أحد المدعين الانتماء الى على جيوشاً من الزنج وخرج بهم على العباسيين (٢) فرقة دينية مبدؤها التشيع لعلى أيضاً ولكنها معتبرة عند أكثر الناس خارجة على أصول الإسلام

وقد كان قيامها بمساعدة الفرس ، فلذلك كانت حكومتها فارسية الصبغة
وأثر خلفاؤها الفرس ثم الترك على العرب بالمتناصب والعطاء
ومن أهم أسباب سقوطها :

(١) اقطاع خلفائهم الولايات القاصية لبعض الولاة وذراريهم مكافأة
لهم على خدمة ، فاستقلوا بها

اسباب سقوط
الدولة العباسية

(٢) ابعادهم أهل العصبيّة من العرب لتوهمهم ميلهم الى العلويين
واستعاضوا عنهم بالفرس والترك ، فكانوا معهم كالمستجير من الرمضاء
بالنار ، فخرجوا عليهم

(٣) عدم سنّ نظام لولاية العهد ، فولّى أصحاب القوة في الدولة من
الترك والديلم الصبيان والأطفال منصب الخلافة واستبدّوا هم بها

(٤) انتشار مذاهب الشيعة بتعظيم المستبدين بالملك من الفرس
والديلم وغيرهما ، حتى آل الأمر الى استدعائهم التتار لنزع الخلافة من
العباسيين وجعلها في يد العلويين فاكسحوا الطائفتين

(٥) تكوين الدولة العباسية من عدة شعوب قوية ذات حضارة
قديمة كل منها يعمل على إعادة دولته ، فسهل ذلك انقسام الدولة الى عدة
ممالك وإمارات أعقبها الفناء

الفصل الثاني

مصر

في عهد الخلفاء الراشدين وبنى أمية وصدر بنى العباس

(٢١ — ٢٥٤ هـ (٦٤١ — ٨٦٨ م)

فُتحت مصر فيما بين سنتي ١٨ و ٢٠ هـ (٦٣٩ — ٦٤١ م) . وبعد قليل أُلحِقَ بها جزء من بلاد النوبة ثم بلاد بركة ثم بلاد إفريقية (تونس)

✽ شكل حكومة مصر ولواحقها ✽

كانت هذه البلاد منذ افتتحها المسلمون الى ان تولاهها أحمد بن طولون سنة ٢٥٤ هـ (٨٦٨ م) ولاية بحتة ، أى معتبرة جزءاً من أملاك الخلافة يحكمها وال يُرسل من قِبَل الخليفة ، مطلق التصرف غالباً فيما يوافق سنن الإسلام وتقتضيه العدالة ، ولأهل الراى من قواد العرب ووجوه الناس وأكابر العلماء والفقهاء عنده قول مستمع ، ورأى متبع . ولم يغيّر المسلمون في بدء فتحهم كثيراً من شكل النظام الإدارى ، وهو في الجوهر تقسيم مصر الى كُور أو أعمال يرأس كلّا منها حاكم خاضع في إدارتها لإشارة والى ويصدر أوامره الى من تحت ادارته من رؤساء القرى ، وذلك شبيه جداً بالنظام المتبع الآن . كذلك لم يغيّر العرب كثيراً من طرق الرى وجباية الخراج وكتابة الدواوين ، غير انهم جردوا بقايا الروم من أعمال الحكومة ووضعوها في أيدي الأقباط لعظيم ثقتهم بهم ،

حفظ
النظام القديم

وأبقوا لأنفسهم المناصب السياسية والدينية . ولما تعلّم العرب فنون الإدارة وكتبوا الدواوين بالعربية بَدَل القبطية في ولاية «عبد الله بن عبد الملك بن مروان» سنة ٨٧ هـ (٧٠٦ م) ، وزاحموا القبط بعض الشيء ، وحرّموا بعض مزاياهم تألّبوا مراراً وخرجوا على العرب وحاربوهم ، وقاباهم هؤلاء بالقوّة ، فلم يسعهم إلاّ تعلّم العربية واعتناق الإسلام ، فأسلم كثير منهم وصاهروا العرب وامتزجوا بهم وانتظموا في سلك الحكومة ، ثم أخذ نظام الحكومة الإداري يتغيّر بعد ذلك بمناسبات الأحوال

انواع الولاية
وحقوقهم

وكان الولاية بحسب مقدرتهم وثقة الخليفة بهم : إمماً ولاية مطلقة لهم الحرية ، يقومون بأعمال جميع المناصب الثلاثة العظيمة التي تدور عليها رضى الولاية ، وهى إمارة الناس فى الصلاة وجباية الخراج وقيادة الحرب ، وإمماً ولاية خاصة مقصورين على واحدة أو اثنتين منها . وكل وال خاص يرسل بعهد خاص من الخليفة ولا يملك أحدهم عزل الآخر ، وإن كان صاحب الحرب أو صاحب الصلاة له الزعامة والإشراف على غيره غالباً وربما ولّى الخليفة والياً عاماً على ولايات الغرب كلها أو بعضها فينيب هذا عنه بعهد منه والياً على مصر كما كان يقع فى عهد بنى العباس

ومن حقوق الولى المطلق الصلاة بالناس فى الأوقات الخمسة والجمعة والعيدى ، والخطبة بهم فيها وفى الحوادث العظام ، وانتخاب أعوانه من الحكام وجباة الخراج وقادة الجيوش ، ونصب القضاة وأصحاب الشرطة والمظالم وغيرهم من كبار العمال ، بشرط انتخابهم من أشرف العرب أو أفاضل الموالى* المسامىن ، وتنفيذ الأحكام والحدود من القصاص وغيره .

* الموالى هم سكان البلدان الأصليون او من جرى عليهم رق ثم اعتقوا

ولا يرجع الى الخليفة غالباً في شيء من ذلك . فالوالى مستقل فى الحقيقة نوع استقلال داخلى ، إلا أن حكمه مؤقت قصير المدى ، فكان الخليفة يستبدل به غيره عند ظهور أى عيب فيه ولو صغيراً أو وقوع ظلم منه ، وربما كان ذلك سبباً فى انصراف كثير من الولاة المصلحين عن القيام بالأعمال النافعة العظيمة

بنى عمرو بن العاص عقب الفتح مدينة « الفُسْطَاط * » (وموضعها مقر الحكومة الآن جامع عمرو وما جاوره) وجعلها مقراً لإمارته . وبقيت كذلك الى العصر العباسى ، فبنى « أَبُو عَوْن » قائد جيش العباسيين المقتنين أثر مروان (آخر خلفاء الأموية الهارب الى مصر) مدينة « العسكر » شمالاً الفسطاط حيث نزل عسكره ، فسكنها أكثر ولاة بنى العباس الى زمن « ابن طولون »

* قال « القريرى » فى وصف موضع الفسطاط ما يأتى :

« اعلم أن موضع الفسطاط الذى يقال له اليوم مدينة مصر كان فضاء ومزارع فيما بين النيل والجبل الشرقى الذى يعرف بالجبل المقطم ، ليس فيه من البناء والعمارة سوى حصن يعرف اليوم بعضه بقصر الشمع وبالمعلقة ، ينزل به شحنة الروم المتولى على مصر من قبل القياصرة ملوك الروم عند مسيره من مدينة الاسكندرية ، ويقع فيه ما شاء ، ثم يعود الى دار الامارة ومنزل الملك بالاسكندرية . وكان هذا الحصن مُطِلاً على النيل ، وتصل السفن فى النيل الى بابه الغربى الذى كان يعرف بباب الحديد وكان بجوار هذا الحصن من بحريه وهى الجهة الشمالية اشجار وكروم صار موضعها الجامع العتيق . وفيما بين الحصن والجبل عدة كنائس وديارات للنصارى »

﴿ الْخَرَاجُ وَالنَّفَقَاتُ ﴾

نوعا الجزية

لما فتح العرب مصر ضربوا على أهلها الجزية : جزية الرءوس والأرض .
فأما جزية الرءوس فكانت دينارين (جنيتها واحداً) على كل رجل قادر
على العمل ، وأُعفى منها الصبيان والشيوخ والرهبان والنساء . وأما ضريبة
الأرض فكانت على كل قرية نصيب يختلف باختلاف غلتها وعُمرانها
وخرابها ، وعلى أهل القرية من ذلك ضيافة من يمر عليهم من جند الحامية
ثلاثة أيام . وكان مجموع ما يجبيه المسلمون من الجزية وخراج الأرض أقل
كثيراً مما كان يجبيه الرومان ، ولذلك أحب القبط وملاك الأرض من
الروم أنفسهم حكم المسلمين ونصحوا لهم في خدمتهم . وكان لكل قرية مجلس
محلى من رؤسائها يقررون ارتفاع القرية (أموال ضرائبها السنوية) ويوزعون
أرضها على القادرين على زرعها . ويقومون بتأدية خراجها الى عمال الخراج .
وكان ذلك فى أول الفتح . ثم صاروا يؤدونها إلى أصحاب الالتزام وهم
الذين يرسو عليهم خراج النواحي مدة ثلاث سنوات بعد اعلان التزايد فيها
بمسجد عمرو ، وهؤلاء يجمعون الخراج بواسطة أعوانهم ومعاونة الحكومة
أحياناً ثم يقدمونه الى صاحب الخراج (شبيه بوزيرى المالية والأشغال)
وكان أكثر الخراج يجبى من جزية الرءوس التى تضرب على أهل
الذمة فقط ، ويرسل جزء كبير منه للخليفة لقلة جالية العرب بمصر يومئذ .
وبلغ مجموع ما جباه عمرو من الخراج فى السنة ١٢,٠٠٠,٠٠٠ دينار جمعت
على الأرجح على الوجه الآتى :

أرض مصر
وعدد سكانها

(١) ٣,٠٠٠,٠٠٠ جزية الأراضى عن الف الف وخمسمائة الف من

الفدادين المزروعة (مليون ونصف)

(٢) ٨,٠٠٠,٠٠٠ جزية الرؤوس على أربعة آلاف الف من الذكور

البالغين (أربعة ملايين)

(٣) ١,٠٠٠,٠٠٠ ضرائب شتى

فلما فشا الإسلام في القبط وكثروا قبايل العرب الى مصر وزاد عدد مقاتلتهم بها قلّ المتحصل من جزية الرؤوس ، وكثرت النفقة على جنود الديوان ، فكان صافي الخراج بعدئذ دون ثلاثة آلاف الف ، واذا حسنت وجوه العمارة واستقصيت أبواب الجباية بلغ أربعة آلاف الف، وقاما زاد على ذلك

﴿ القضاء والشرطة والمظالم ﴾

كان من حق الوالى بمصر تنصيب القضاة وعزلهم من غير مراجعة الخليفة . واستمر ذلك الى أوائل الدولة العباسية إذ ولى « أبو جعفر المنصور » ابن ألهيعة القاضى بأمره ، واجرى عليه ثلاثين ديناراً فى الشهر وكان قاضى الفسطاط ينوب عنه قضاة البلدان الأخرى ، أو يعينهم الوالى رأساً . وكان مجلس القاضى إما فى المسجد الجامع غالباً وإما فى داره ، وقلماً يجلس فى دار الإمارة . ولم يكن يشترط فى القاضى أن يقضى بمذهب خاص ، بل يكون مجتهداً أو على مذهب أحد الأئمة . وكان منصب القاضى فى ذلك العهد من أهم المناصب وأكثرها عملاً ، وكان من أعماله الفصل فى الدعاوى والأوقاف والنفقات ونصب الأوصياء ، وأحياناً تضاف إليه الشرطة والمظالم وبيت المال ، ولذلك كان القضاة يختارون من أغزر الناس

القضاة
واختصاصهم

علماً وأكثرهم فضلاً . ومن أعظم من اشتهر منهم بالفضل والاستقامة والعدل القاضى « غوث » بن سليمان المتوفى سنة ١٦٨ هـ ، ولى قضاء مصر مراراً ، ولم يمنع عن الوصول اليه متظلم قط . ومنهم أيضاً « المُفَضَّل » خلفه ، وهو أول من أمر بتدوين الاسباب المبنى عليها الحكم بأهلها . وقد كان الكثير من القضاة يتنحى عن تقلد هذا المنصب لكثرة أشغاله وخطورة مسؤوليته ، ولم يقبله « أبو خزيمه » إلا بعد أن نادى الحاكم بالجلاد أما الشرطة فكان يليها غالباً عامل خاص يسمى « صاحب الشرطة » (حكمدار البوليس) وله ما لهذا فى زماننا تقريباً

بعض مشاهير
القضاة

الشرطة

وأما صاحب المظالم فهو الذى ينظر فى القيَصَص* والشكاوى التى ترفع اليه من الرعية تظالماً من عمال الحكومة أو غيرهم ، فيفصل فى بعضها بنفسه أو يحيل النظر فيها على القاضى . ونظيره الآن النائب العمومى وأقلام قضايا المصالح

المظالم

❖ المقاتلة ❖

كانت تُعرف رجال الجيش بالمقاتلة ، ويسمون أيضاً « أصحاب الديوان » أى أصحاب الأعطيات التى تصرف لهم فى الديوان كل سنة . وكان كلهم من العرب ، بل كان كل عربى ينزل الى مصر يُفرض له ولأولاده وعياله فرض فى الديوان . وكانوا يُنْهَوْنَ عن الاشتغال بالزراعة . ويُعاقبون على ذلك لئلا ينسوا ملكة الحرب . ويقودهم فى الحرب والى مصر . ولكن لما وفر عددهم وزادوا عن حاجة الديوان زاولوا الزراعة ودخلوا فى غمار الفلاحين

* القصص هى العرائض

بالتدريج . وبقي العرب هم أصحاب الفروض في الديوان الى عهد الدولة العباسية ، فاشتركت معهم فيه المقاتلة من الفرس والترک حتى أمر «المعتصم» الخليفة العباسي (جازاه الله) بإخراج العرب من الديوان وحرمانهم من العطاء ووضع الترك بدلهم ، فحلت الجيوش العربية ، وثاروا على الحكومة مراراً فقهرتهم ، ومن ذلك تضعف سلطان العرب في مصر وزالت دولتهم ، واشتغلوا بالزراعة وصاروا مزارعين . وكان جزء الدولة العباسية من الترك في مصر أن خرجوا عليها واستقلوا بها

✽ الرى والزراعة والتجارة ✽

كانت الأعمال الخاصة بهندسة الرى من كرى الخلجان وإقامة الأحواض والقناطر والجسور وتقدير الأقيية ونحو ذلك تقوم بشؤونها الحكومة نفسها في مبدأ الفتح ، ويتولى ذلك صاحب الخراج (صاحب المالية والأشغال) جرياً على النظام الذى كان متبعاً زمن الرومان ثم لما ضعف شأن الولاة أضيفت هذه الأعمال الى أصحاب الالتزام فأهملوها وقلّ بذلك العمران تدريجاً . وكان أكثر ربيها بالحياض النيلية فتقتصر على الزراعة الشتوية . وبعض أرض الفيوم والوجه البحرى تروى بالترع والسواقي فتخرج الزراعة الصيفية أيضاً . وكان يزرع بمصر الكتان والقمح وباقي الحبوب وكثير من الكروم والنخيل والفاكهة وكانت تجارة مصر الى الخارج في الحبوب والمنسوجات الكتانية التى كانت تضارع فيها وقتئذٍ أصنع أهل الدنيا ومما كان يساعد على انتشار التجارة بين مصر وغيرها البحران

الأحمر والأبيض ، ونهر النيل ، وكثرة الترع ، خصوصاً خليج أمير المؤمنين الذي كان يصل النيل بالبحر الأحمر ، وبقى الى صدر الدولة العباسية حتى ردمه المنصور

﴿ أهل البلاد ﴾

كان أهل مصر في أول الفتح هم جمهور الأقباط وبقايا الروم ومهاجرة العرب ، فكان القبط هم المزارعين وأرباب الوظائف الصغرى والوسطى . وكان العرب هم الحامية وأهل الحرب . ثم اشتغل العرب بعد نحو قرن بالزراعة . واسلم كثير من القبط وصاهروا العرب ، فضربت على العرب المزارعين الضرائب التي كانت تضرب على القبط فقبلوها إذ كانت معتدلة . ثم اشتط بعض العمال في زيادة الضرائب وجباية الرؤوس فكان ذلك سبباً في كثير من الفتن

وكان القبط حينئذٍ على حال عظيم من الرخاء ، ومما قيل في وصف ذلك ان عجوزاً منهم من أهل طاء النمل أضافت المأمون بجيوشه ثلاثة أيام ، وقدمت له هدية أربعة آلاف دينار من ضرب سنة واحدة*

﴿ أشهر الولاية وأهم الحوادث في هذا العهد ﴾

عمر بن العاص أول ولاية مصر من المسلمين فاتحها العظيم «عمر بن العاص» القرشي ولأه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ولاية مطلقة . وكان «عبد الله بن سعد ابن أبي السرح» عامله على الوجه القبلى . وبقى عمرو والياً على مصر ولواحقها

الحكاية مبسوبة في كتاب خطط المقرئ في فصل نزول العرب بمصر من الجزء الأول وفي غيره ببعض تغيير

قائماً بالعدل محبوباً عند القبط وجنود العرب ضابطاً لبلادهم أحسن ضبط
طول خلافة عمر . وقد قام في هذه المدة بكثير من الإصلاحات العظيمة ،
فنظم الإدارة وأصلح القضاء ورسم الخطة الأولى في جباية الخراج . ثم
انه عني كثيراً بالأعمال الخاصة بهندسة الري من كرى الخللجان وإصلاح
مقياس النيل وإنشاء الأحواض والقناطر والجسور ، فسخر في ذلك
١٢٠,٠٠٠ عامل لا يفتر عن العمل صيفاً وشتاءً وبذا تم كرى الخليج
القديم الموصل بين النيل والبحر الأحمر في أقل من سنة ، وسماه « خليج أمير
المؤمنين » فصار القمح يرسل الى المدينة بجرأ بعد أن كان يرسل بطريق
القوافل . ولم تلبه هذه الإصلاحات السلمية عن الواجبات الحربية ، فانه في
سنة ٢١ هـ (٦٤١ - ٦٤٢ م) . « ارسل عبد الله بن سعد » في عشرين ألف
مقاتل لاختضاع في بلاد النوبة . وفي سنة ٢٤ هـ (٦٤٥ م) أوائل ولاية
عبد الله بن سعد الآتي ذكره صد غارة للروم عن الاسكندرية ، وكان قائدهم
« منويل » فهزمهم شر هزيمة وهدم أسوار الاسكندرية . على ان أمير
المؤمنين « عمر بن الخطاب » كان يأخذ عليه قلة الخراج الذي يجنيه ، فإن
أكبر خراج جباه لم يزد عن ١٢,٠٠٠,٠٠٠ دينار

خليج
أمير المؤمنين

اختضاع النوبة
وصد الروم
بالاسكندرية

ثم لما ولى أمير المؤمنين عثمان بن عفان عزله وولى بدله « عبد الله
ابن سعد بن أبي السرح » فلم يقل عن عمر وكثيراً في ادارتها ، وجعل همه
الفتح ففتح بقية برقة وإفريقية . وفي سنة ٣١ هـ (٦٥٢ م) غزا بلاد النوبة
حتى « دُثْلَة » وفرض عليها جزية سنوية تشمل ٣٦٠ رأساً من الموالى ،
على أن يمدّم بمعونة من الحبوب وغيرها ، وبقي هذا الاتفاق نافذاً الى
عهد المماليك . وكسر الروم في البحر كسرة شنيعة بالاسكندرية سنة ٣٤ هـ

عبد الله بن سعد

(٦٥٥ م) وتعرف بغزوة ذات الصواري . وتشدد في أوجه الاقتصاد وتنمية الخراج حتى جباه ١٤٦٠٠٠٠٠٠٠ دينار فكرهه بعض القبط والعرب ، وبقي الى قبيل قتل عثمان . ثم حدثت فتنة عثمان فطرده عرب مصر ورحل منهم فريق الى المدينة اشتركوا في قتل عثمان وولى أمير المؤمنين « عليّ بن ابي طالب » والياً من قبله ثم صرفه وولى « محمد بن ابي بكر الصديق » فقتله جيش معاوية الداخل الى مصر بقيادة عمرو بن العاص

ثم تولى « عمرو بن العاص » ثانية بتنازل من معاوية له عن مصر بان تكون طعمة له ولولده من بعده في نظير نصرتة له على عليّ بن ابي طالب . فبقي والياً عليها وقواده يجدون في فتح أفريقية والمغرب الأقصى حتى مات سنة ٤٣ هـ (٦٦٣ م) ، ودفن بسفح المقطم ، وكان عمره إذ ذاك ٩٠ سنة . ومن آثاره مسجده العظيم بالقرب من مصر القديمة

وولى بعده ولده « عبد الله بن عمرو » فعزله معاوية بعد سنتين ، وولى مكانه أخاه « عتبة بن أبي سفيان » وكان خطيباً مفاوهاً ، فكث ستة أشهر . ثم ولى « عتبة بن عامر الجهني » المشهور بقبره بالقرافة ، فصُرف بعد سنتين وثلاثة أشهر وجعل أميراً للبحر ففتح « رودس » . وهو أول من وضع الأعلام على السفن من المسلمين . وولى بعده « مسلمة ابن مخلد » ، وفي امارته نزلت الروم البرُأس فطردهم الى البحر . وهو أول من بنى منارات المساجد . وتوفي بعد ولايته بخمس عشرة سنة وأربعة اشهر . وكان من خيرة الولاة علماً وقراءة وعدلاً وجهاداً . ثم ولى « سعيد بن يزيد » ثم « عبد الرحمن بن عتبة » من قبل عبد الله بن الزبير ،

ثم « عبد العزيز بن مروان » من قبل أبيه مروان بن الحكم ، ثم من قبل أخيه عبد الملك بن مروان فكانت ولايته قريباً من إحدى وعشرين سنة . وحدث في مدته طاعون في الفسطاط ، فسكن حلوان وجعل بها الأعوان وبنى بها الدور والمساجد وعمرها أحسن عمارة وغرس بها النخيل والكروم ، فكانت القاعدة الثانية للديار المصرية مدة من الزمان

ثم ولى « عبد الله بن عبد الملك بن مروان » وفي مدته نسخت دواوين مصر بالعربية بدل القبطية على يد « ابن يعفور الفزارى » . ثم تولى بعده عدة ولاه من قبل بنى أمية كان آخرهم « عبد الملك بن مروان ابن موسى بن نسير » ، وفي مدته هرب مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية الى مصر ، فالحقه « صالح بن علي بن عبد الله بن العباس وأبو عون عبد الملك ابن يزيد » يبحشهما فقتلوه ببوصير من إقليم الجزيرة . فكانت ولاية مصر منذ الفتح الى آخر بنى أمية ٢٨ والياً كلهم من العرب

انتهاء عهد بنى أمية

وتولى مصر « صالح » من قبل ابن أخيه ابى العباس السفاح سنة ١٣٣هـ (٧٥٠ م) وسكن الفسطاط وأقام بها سبعة أشهر . ثم استخلف أبا عون بها ، فانتقل الى مدينة بناها شمالى الفسطاط سماها « العسكر » موضع نزول عسكره* ، فكانت مقر الولاة العباسيين حتى بنى احمد بن طولون « القطائع » شرقيها

العسكر

ثم توالى ولاية بنى العباس على مصر فتم انتقالها من يد الأمويين الى يد العباسيين بدون صعوبة كبيرة ، بل ان كثيراً من العمال والموظفين

* ومحلها الآن أبنية خط فم الخليج وأبى السعود الجارحى والموردى وزينهم والبقالة الى طولون والصحراء قبال كيما البغالة وجبل قلعة الكباش

بقوا في مناصبهم واخلصوا للعباسيين في خدمتهم

كثرة الفتن

وفي عهد العباسيين كثرت الفتن والقلاقل في البلاد ، ولم يكن للأقباط يد فيها أكثر مما كان للمسلمين انفسهم بسبب الخلاف بين الشيعة والسنيين ، وكان بمصر لكل من العلويين والخوانرج طائفة تعززم ، وتفاقت العداوة بين الاثنين حتى أدت الى اضطراب مستمر . وساعدها على اضرار تلك النيران أهل « الحوف » ، وهم عرب من قبيلة « قيس » كان قد أنزطهم « عبيد الله بن الجَحَّاب » والى الخراج سنة ١٠٩ هـ (٧٢٧ م) في الحوف الشرقي (الأراضى التى شرقى فرع النيل) ليساعدوا على انتشار الإسلام في مصر

فمن ذلك ان الخوانرج ناروا سنة ١٣٧ هـ (٧٥٤ م) ، إذ كان أبو عون « في « برقة » لإخضاع البربر ، فاضطّر الى الرجوع الى مصر فقهر الثائرين وأرسل ثلاثة آلاف رأس من قتلاهم الى الفسطاط

ثورة الخوانرج
١٣٧ هـ

وفي سنة ١٥٠ هـ (٧٦٧ م) خرج الأقباط بجهة « سخا » وهزموا جيوش الحكومة وطرّدوا جبّة الخراج . وكانوا قد خرجوا قبل ذلك مراراً على بنى أمية بسمنود وبالصعيد فلم يفلحوا . ولكن أمرهم استفحل هذه المرّة حتى عمّت الثورة جزءاً عظيماً من الوجه البحرى ، واستمر الحال كذلك عدة سنوات . ثم سلكت معهم الحكومة مسلك الشدة والاضطهاد تأديباً لهم حتى انتهى الأمر بكبح جماحهم

خروج الاقباط
١٥٠ هـ

ومن الولاة الذين اتخذوا الشدة وسيلة لتوطيد الأمور « أبو صالح »

المعروف « بابن ممدود » ، وهو أول من ولى مصر من الأتراك ، وليها سنة ١٦٣ هـ (٧٧٩ م) ، فكان غاية في الشدة : ضرب على السرقة وقطاع

ابن ممدود اول
الولاة الاتراك

الطريق من عرب الحوف وغيرهم بيد من حديد حتى أصبح الناس يتركون منازلهم مفتوحة ولا يخشون عليها من سوء

وفي سنة ١٦٦ هـ (٧٨٢ م) حدثت فتنة سياسية كبرى بالصعيد ، فتنة ١٦٦ هـ فإن دحية بن مضعب الأموي ادعى الخلافة فانضم إليه معظم الوجه القبلي وهزموا جيوش الحكومة . واتهم عرب الحوف هذه الفرصة فخرجوا ، فانهزم جيوش الحكومة وقتل والي . ولم تزل الأحوال في اضطراب حتى ولي مصر « الفضل بن صالح » بن علي العباسي . فانه أتى بجيش من الشام فهزم الثائرين عدة مرات في الصعيد وقبض على المطالب بالخلافة ، ثم ضرب عنقه بالفسطاط وصلبه وأرسل رأسه للخليفة ببغداد ومن سوء الحظ ان « الفضل » خالجه الفرور ليمأ رأى من انتصاراته ، فعزله الخليفة « المهدي » . ومن بعده عاد الاضطراب وكثر عزل الولاة حتى انه في عهد « الرشيد » تولى مصر ١٦ والياً في اثني عشر عاماً

وفي هذا العهد كثر خروج عرب الحوف : ففي سنتي ١٨٦ و ١٩١ هـ عرب الحوف (٨٠٢ و ٨٠٦ م) ثاروا وامتنعوا عن دفع الضرائب وسلبوا أموال التجار والمسافرين ، ثم انضمت اليهم قبائل البدو النازلة على الحدود ، وأغاروا على الشام . ثم تجددت ثورتهم بعد وفاة « الرشيد » عند ما تنازع « الأمين » و « المأمون » بسبب الخلافة ، فرأى الأمين اكتفاء لشركهم أن يعين رئيسهم والياً على مصر ، فزادت بذلك شوكتهم وكبر شأنهم

•هاجرو
الأندلس

ومما ساعد على ازدياد قوتهم انه في سنة ١٨٢ هـ (٧٩٨ م) جاء الى الاسكندرية ما يزيد على ١٥,٠٠٠ رجل من الاندلس عدا أطفالهم ونسائهم ، طردهم من اسبانيا الأمير الأموي « الحكم » عقب فتنة كبيرة حدثت

بقرطبة . ولم يمضِ زمن طويل حتى تدخلوا في شؤون مصر السياسية ، وانضموا الى عرب « لخم » ، واستولوا على الاسكندرية سنة ١٩٩ هـ (٨١٥ م) . وما زالوا في حرب مستمر ، مع الحكومة تارة ، ومع الساخطين من عرب الحوف أخرى ، حتى أرسل اليهم « المأمون » سنة ٢١١ هـ (٨٢٦ م) قائداً من أعظم قواده وهو « عبد الله بن طاهر » * فاستولى على الاسكندرية بعد ان حاصرها أربعة عشر يوماً ، فخرجوا منها بنسائهم وأطفالهم ونزلوا بجزيرة « إقريطش » (كريد) سنة ٢١١ هـ (٨٢٧ م)

عبد الله
ابن طاهر

وكان ابن طاهر قد بدأ بقتال الوالى السابق فتغلب عليه وأخرجه من « الفسطاط » . ثم عمل على تنظيم الجيش ونشر الأمن حتى دانت له البلاد . وأراد « المأمون » مكافأته على ذلك فوهب له الجزية بأكلها سنة ، وكانت إذ ذاك ٣٠٠٠٠٠٠٠ دينار

وكان « عبد الله » من أحسن الحكام الذين ولوا مصر ، له ولع بالعلوم ، حريص على أكرام العلماء والشعراء . ومن أعماله انه جدد بناء جامع عمرو

ولم يكد يخرج من مصر ويذهب الى موطنه بخراسان حتى جدد أهل الحوف ثوراتهم وهزموا الحاكم الجديد بجهة المطرية . ثم جاء المعتصم أخو الخليفة فى ٤٠٠٠ مقاتل من الأتراك ، فبدد شمل العرب (سنة ٢١٤ هـ : ٨٢٩ م) وقتك بزعمائهم ، غير انه لم يمض على عودته الى بغداد أكثر من

* يقال ان نوع القنّاء المعروف بعبد اللاوى سُمى بهذا الاسم نسبةً الى عبد الله ابن طاهر لأنه أول من أدخل زرعه بمصر

خمسـة أشهر حتى تجددت ثورة العرب وخرج معهم القبط سنة ٢١٦ هـ
والقبط عامة (٨٣١ م) خروجاً عاماً

وبعد فتنة طويلة جاء المأمون بنفسه سنة ٢١٧ هـ (٨٣٢ م) وحارب
القبط وأنزلهم من حصونهم، فلم يجرّدوا بعدها سيفاً، وأخذوا يعتنقون
الإسلام أفواجاً. ومن ذلك العهد ابتداء الطور الحقيقي لانتشار الدين
الإسلامي في مصر حتى صبغت صبغة إسلامية محضة

وبقيت البلاد هادئة بعد مجيء المأمون لم يعكر صفوها شيء من
القتال، اللهم إلا اختلاف قليل بين العلماء ورجال الدين من المسلمين
أنفسهم. وبقيت ولاية بني العباس تتوالى على مصر من العرب والموالي
حتى ولي «عنبسة بن اسحق الضبي» سنة ٢٣٨ هـ (٨٥٢ م)، فكان
آخر أمير عربي ولي مصر، وآخر أمير صلي بالناس في المسجد الجامع.
وهو من أحسن ولاية مصر عدلاً، وأكثرهم فضلاً وأكبرهم ورعاً

عنبسة آخر
وال عربي

وفي مدته هوجمت مصر من جهتين، فدخل الروم دمياط سنة ٢٣٩ هـ
(٨٥٣ م)، فردّهم عنها وحصّنها بحصون منيعة كان لها الفضل الأكبر
في الحروب الصليبية. وفي سنة ٢٤٠ هـ (٨٥٤ م) أراد «علي بابا» ملك
النوبة أن يزحف على مصر، فهزمه «عنبسة» وحمله على دفع الجزية،
وإن كان قد أكرم مثواه وردّه معزّزاً إلى بلاده بعد أن زار الفسطاط
وبغداد. وعُزل «عنبسة» سنة ٢٤٢ هـ (٨٥٦ م) وخلفه من الموالى
والأتراك عدّة كان آخرهم «أرجوز بن اولغ طرخان» التركي، ثم صُرف
بأحمد بن طولون سنة ٢٥٤ هـ (٨٦٨ م)، فخرج على الخلافة واستقلّ
بملك مصر وأسس الدولة الطولونية

الفصل الثالث

الطولونيون والاختشيديون

(١) الدولة الطولونية

٢٥٤ — ٢٩٣ هـ (٨٦٨ — ٩٠٥ م)

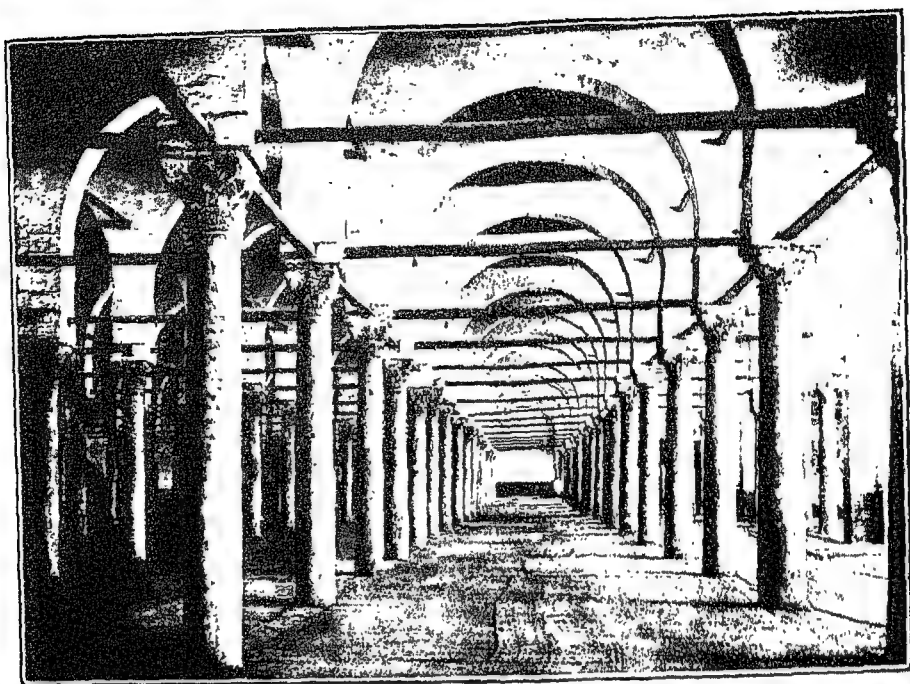
بقيت مصر بعد سنة ٢٤٢ هـ (٨٥٦ م) ولاية للعباسيين ، يتقلدها خلفاؤهم من أحبوا من الموالى والأتراك ، فيقيم هؤلاء ببغداد ويستخلفون عليها نواباً يحكمونها لهم ويرسلون الخراج اليهم

فاما كانت سنة ٢٥٤ هـ (٨٦٨ م) قدم اليها « أحمد بن طولون » التركي نائباً عن الأمير « باكباك » الذى قلّد مصر من قبل الخليفة . وأصل أبيه « طولون » مملوك للمأمون . فنشأ ابنه أحمد نشئاً حسناً ، فتعلم وتأدب وأحبّ الغزو ، وظهر فضله وشجاعته . فوقع اختيار « باكباك » عليه ، وخصّه بأعمال القصبة * (الفسطاط) بحيث لا يدخل فى دائرته الاسكندرية وغيرها

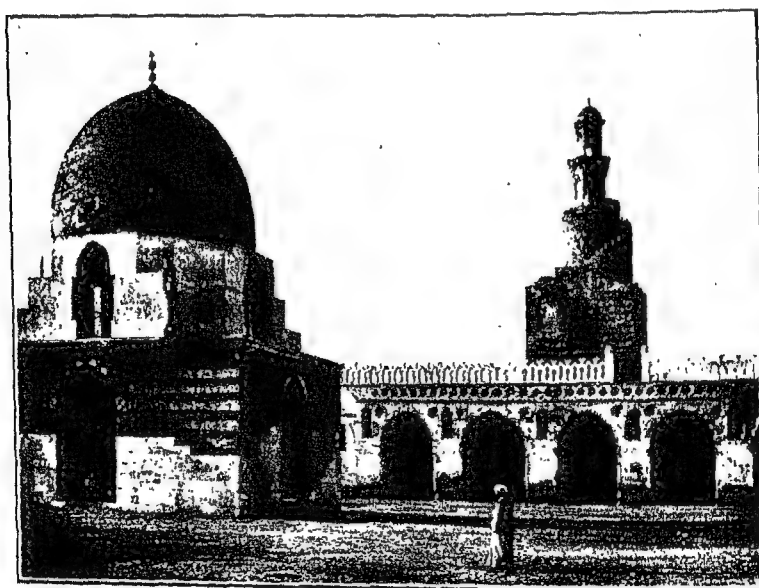
ابن طولون

وكان بمصر « أحمد بن المدير » والياً على الخراج ، وقد تحكم فى البلد . فما زال به حتى كفّ يده فعظم بذلك شأن ابن طولون ثم أخذ « ابن المدير » يشى بابن طولون ويطلب من الخليفة عزله فلم ينجح . ومن حسن حظ « ابن طولون » انه لمآمات « باكباك » وهبت

* قصبة الملكة حاضرتها الكبرى الأصلية



جامع عمرو (رسم محمد افندی علی سمودی)



جامع ابن طولون (رسم لکجیان)

مصر للأمير « ماجور » حمى* « ابن طولون » ، فأبقاه في منصبه وزاد على أعماله أعمال الاسكندرية وغيرها من الجهات التي لم تكن من أعماله وذلك سنة ٢٥٧ هـ (٨٧٠ م)

فعظم بذلك شأن ابن طولون ، وكثرت اعداؤه حتى انه لما انتهى تقليد ماجور سنة ٨٧٢ م أرادوا ان يوقعوا به ، وكاد « الموفق » أخو الخليفة وصاحب الكلمة اذ ذاك أن يعزله ، ولكنه تمكن بدهائه وماله من دفع ذلك ، وقويت شوكته وخشيته « ابن المدبر » وقبل بعظيم الارتياح نقلته الى منصب والي الخراج بالشام ، فخلا لابن طولون جو مصر

فاخذ في الإكثار من الجند والخدم والحشم . ولما رأى ان بيت الامارة بمدينة « العسكر » أصبح غير كاف لجميع ذلك بنى له مدينة جديدة القطائع تمتد من المقطم الى جبل الكباش ، وسماها « القطائع » لأنه جعل فيها لكل طائفة من اصناف خدمه « قطيعة » . وبنى قصره تحت « قبة الهواء » (القلعة الآن) ، واتخذ غريبه ميداناً عجيباً للعب الصوالة ومسابقة الخيل وبنى مسجده المشهور سنة ٢٦٤ هـ (٨٧٧ م) ، وهو من أقدم مساجد مصر . وبنى كذلك مارستاناً للمرضى ، وقرب العلماء والزهاد والقراء ورتب الصدقات والمبرات ، فكثرت بذلك نفقاته فتمنع ارسال الخراج الى « الموفق » ، فسير اليه « الموفق » جيشاً ليعزله فلم يصل الجيش . وعند ذلك ازدادت ثقة « ابن طولون » بنفسه وأراد توسيع نطاق ملكه ، فأغار على الشام سنة ٢٦٤ هـ (٨٧٨ م) ودانت له معظم مدنها ، وعاد منها بعد سنة بعد أن ثبت بها دعائم ملكه

فلما وصل الى مصر وجد أن ابنه « العباس » قد اتهمز فرصة غيابه وحاول الاستيلاء على الملك فتغلب عليه وسجنه باقى حياته وأراد « ابن طولون » الاستيلاء على مكة فلم يفلح ، ولعن بالمسجد الحرام . فزاد كل ذلك من كراهته للموفق ، فحذف اسمه من الخطبة سنة ٥٢٦٩ هـ (١١٨٣ م) فقطع بذلك كل صلة بالخلافة . « ومات ابن طولون » سنة ٥٢٧٠ هـ (١١٨٤ م) وله ملك لا يعدله ملك الخليفة ، يشمل الشام والجزيرة وبرة

وقد كان لقوة « ابن طولون » وسطوته خير أثر في مصر ، فسادت السكينة في البلاد ونمت ثروتها . وتوفي وخزائنه مفعمة بالأموال وكان مع ذلك طائش السيف : يقتل ويحبس بالظنة ، ولما اشتد عليه المرض قبيل وفاته غضب على أطبائه فاعدم كثيراً منهم وعذب آخرين وخلفه ابنه « خُمارويه » فسار سيرة ابيه في الاحسان ، وبالغ في العمارة وأنواع التف ، فجعل ميدان أبيه (مكان الرملة الآن) بستاناً لم يُسمع بمثله : جمع فيه غرائب الأشجار والأزهار ، واتخذ حظيرة للسباع والوحوش ، وأعد بقصره بحيرة عظيمة من الزئبق يبلغ مسطحها مائة قدم في مثلها

خمارويه

ولما ولي هذا الملك الشاسع استولى الحسد على أميري « الموصل » و « الأنبار » ووالى « دمشق » ، واتفقوا جميعاً على أن يخرجوا الشام من حوزته ويسلموها للخلافة . وكانت حجتهم في التعدي على « خمارويه » انه استولى على أملاكه بعد أبيه من غير أن يقلده الخليفة اياها . وساعدهم « أبو العباس » بن « الموفق » ، وأغاروا جميعاً على الشام ، فدخل « أبو العباس »

دمشق سنة ٢٧١ هـ (٨٨٥ م)، وبعد ان دارت بينهم وبين «خمارويه» عدة مواقع انتصروا في بعضها وهُزِموا في اخرى هزمهم «خمارويه» بجهة دمشق سنة ٢٧١ هـ (٨٨٦ م) في موقعة فاصلة، فدخل دمشق وساق أمير الموصل الى مدينة «سُرَّ من رأى» على نهر دجلة. وعند ذلك عقد صلحاً مع الموفق، وقلده الخليفة حكم مصر والشام وأطراف بلاد الروم مدة ثلاثين سنة. ثم وقع في مشاحنة مع أمير الموصل والأنبار، فكانت نتيجة ذلك أن نودى به في الخطبة حاكماً على الموصل والجزيرة. وفي سنة ٢٧٨ هـ (٨٩١ م) مات «الموفق» وتبعه الخليفة «المعتمد» بعد سنة واحدة، فحسنت العلاقات بين ابن طولون والخليفة، واتفق «خمارويه» ان يدفع الجزية ٣٠٠٠٠٠٠ دينار سنوياً، وتزوج الخليفة «المعتمد» ابنة خمارويه «قَطْر الندى» فجهزها خمارويه جهازاً يضرب به المثل، فلم يُبقَ نفيسة ولا تحفة من كل لون أو جنس الا حملها معها: فكان من جملة ذلك ٤٠٠٠ منطقة مرصعة وعشرة صناديق مملوئة بالجواهر والف هاون من الذهب. ولما فرغ خمارويه من جهازها أمر فُبني لها على رأس كل مرحلة تنزل بها قصر فيما بين مصر وبغداد، فاذا وافت المنزل وجدت قصرًا أُعدَّ فيه من أسباب الراحة والترف ما يصلح لمثلها في حال الإقامة. كل ذلك وما شاكله من أنواع الإسراف الأخرى التي تعودها أضعف حاله المالية وكاد يفضى بمخزائنه الى الخراب. ثم قتل خمارويه بدمشق، ذبحه بعض خدمه على فراشه، وحمل تابوته الى مصر فدفن فيها سنة ٢٨٢ هـ (٨٩٦ م)

ثم تولى بعده ابنه «ابو العساكر جيش»، فلم يحسن السيرة مع

اهله وقواده نخلعوه بعد ستة شهور، ومات بعد أيام في السجن
ثم خلفه أخوه « ابو موسى هرون » وفي أيامه ضعف نفوذ مصر
في الشام، فاغارت القرامطة عليها وحاصروا دمشق بعد أن حملوا الجيوش
المصرية خسائر كبيرة. ثم رأى الخليفة ان يدخل بينهم، فقهر القرامطة
وزاده هذا النصر إقداماً فاسقاً إلى مصر جيشاً واسطولاً. وجمع «هرون»
جيشه بالقرب من حدود الشام ابتغاء الالتحام بجيوش الخليفة، فقتله
عماه غدرًا في فراشه سنة ٢٩٢ هـ (٩٠٤ م)

فولى بعده « شيبان » عمه وقاتله، فبقي أيامًا. وخالفه القواد فكتبوا
الى « محمد بن سليمان » قائد الخليفة فدخل مصر بعسكر جرار، فهرب
« شيبان » وأخرج محمد بن سليمان بقية آل طولون الى بغداد، وهدم
القصر والميدان وخرّب البستان واحرق اكثر القطائع. وبذلك انقرضت
دولة آل طولون سنة ٢٩٣ (٩٠٥ م) بعد ان ملكت ٣٧ سنة

(ب) الدولة الإخشيدية

٣٢٤ — ٣٥٨ هـ (٩٣٥ — ٩٦٩ م)

بعد أن انقرضت دولة آل طولون عادت مصر ولاية عباسية يتوارد
عليها الولاة من بغداد مدة ٣٠ سنة كانت فيها في غاية من الارتباك
والاضطراب. وذلك لأن الخلفاء كانوا قد استولى عليهم الضعف وزال
بعض السلطة من أيديهم، وصارت القوة الحقيقية بيد الجند من الأتراك
فاصبحت الكلمة في مصر للجيوش التي ترسل من وقت لآخر لتوطيد
النظام. وازدادت الحالة حرجًا بتوارد غارات الفواطم على البلاد

وبينا البلاد تن تحت عبء هذه الفوضى ولى حكمها « محمد بن طنجج الإخشيد » سنة ٣٢٣ هـ (٩٣٥ م) . وهو من اسرة ملوك « فرغانة * »
القدماء الذين كان يطلق عليهم لقب « إخشيد » ، فمنحه الخليفة هذا اللقب تشجيعاً له ومكافأة له على جدته . وكان قد تقلد من قبل منصباً في مصر ، فابدى كفاءة كبيرة حتى انه عين حاكماً لدمشق سنة ٣١٨ هـ (٩٣٠ م) ولم يكده يدخل مصر سنة ٣٢٣ هـ (٩٣٥ م) حتى اخمد الفتن وسكن الخواطر . ثم التفت الى الفاطمية فأخرجهم من الاسكندرية ، ولم تأت سنة ٣٢٨ هـ (٩٤٠ م) حتى قبض على كل شيء ، وصار أشبه بملك مستقل شأن باقي الولاة اذ ذاك في الولايات الأخرى للدولة

وأهم غرض كان يرمى اليه « الإخشيد » حماية الشام من اغارة الولاة المجاورين . وأول ما حدث من ذلك ان « ابن رائق » أغار على « حمص » و « دمشق » ، ثم هزم جيوش الإخشيد سنة ٣٢٨ هـ (٩٤٠ م) وعقد معه صلحاً على أن يبقى شمالي الشام في قبضته . ولما مات « ابن رائق » بعد ذلك بسنتين استرد « الإخشيد » ما فقد ودخل دمشق دون أن يلقى مقاومة . وفي سنة ٣٣٢ هـ (٩٤٣ م) قلده الخليفة أيضاً حكم « مكة » و « المدينة » . وأراد الإخشيد أن يجعل ملكه وراثياً فاخذ البيعة من قواد مصر لابنه « أونوجور » من بعده . وفي سنة ٣٣٤ هـ (٩٤٥ م) أغار « الحمدانيون » (امراء الموصل وأعلى الجزيرة) على شمالي الشام ، فهزمهم « الإخشيد » وعقد معهم صلحاً على أن تبقى حلب وشمالي الشام بأيديهم ، وأن يدفع لهم اتاوة نظير نزولهم عن « دمشق » . ولعل السبب في تساهله هذا ان

* كانت بلدة عظيمة ببلاد التركستان ولها كورة تسمى باسمها

سنة كانت قد بلغت الرابعة والستين ، واصبح لا يقدر على مناوأة المزارحين له في شمالى الشام . ولم يلبث بعد ذلك سنة واحدة حتى مات بدمشق سنة ٣٣٤ هـ (٩٤٦ م) ودُفن ببيت المقدس

ولم يبق للآن شيء من آثاره بمصر يدل على حالة البلاد في عهده ، ولكننا نعلم انه أوجد في البلاد هدواً وسكينة لم تعهدهما منذ ثلاثين عاماً

وخلفه ابنه ابو القاسم أونوجور (٣٣٥ — ٣٤٩ هـ : ٩٤٦ — ٩٦١ م) ،

اونوجور

وكان صغيراً فأقيم الاستاذ « ابو المسك كافور الإخشيدي » الخصى الأسود قيما عليه . فقام مع رجال الدولة بتدبير الملك حتى مات أونوجور بعد ١٤ سنة :

سنة ٣٤٩ هـ (٩٦١ م) . ثم تولى بعده أبو الحسن على بن الإخشيد ، ولم

يقتصر الخليفة « المطيع » على توليته مصر والشام ، بل أضاف إليه ولاية

الحرمين . ولم يكن لأبى الحسن مع كافور من الأمر شيء ، ثم فسد ما

بينهما ، فنع « كافور » الناس من الاجتماع به ، فبقى كذلك حتى مات

سنة ٣٥٥ هـ (٩٦٥ م) ودُفن في القدس

فتولى الاستاذ ابو المسك كافور الإخشيدى بدله ، وجاءه التقليد

كافور

بولاية مصر والشام والحجاز . وأصله عبد حبشى خصى اشتراه الإخشيد

من بعض أهل مصر ثمانية عشر ديناراً ، فما زال يتقدم عنده لعقله وحسن

رأيه وشجاعته إلى أن صار من اكبر القواد الذين أسسوا له دولته . ولم

يبلغ أحد من الخصيان ما بلغه كافور هذا : ملك أنفس ممالك الإسلام ،

وخدمه كبار العلماء ، ومدحه المتنبي (وكان قد طمع أن يوليه منصباً ، فاما

لم يحقق أمله هرب من مصر وهجاء) . وولى كافور الملك سنتين ، ومات

سنة ٣٥٧ هـ (٩٦٨ م) . فولى أهل مصر « أبا الفوارس أحمد بن على بن

الإخشيدي» وهو صغير، فأقام شهوراً حتى أتى «جوهر الصقلي» قائد جيوش
المُعزّ الفاطمي، فدخل مصر بلا قتال، وانزعها من الدولة الإخشيدية
سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٩ م) بعد أن ملكت ٣٤ سنة

الفصل الرابع

الدولة الفاطمية (*)

٣٥٨ — ٥٦٧ هـ (٩٦٩ — ١١٧١ م)

لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم بويع أبو بكر بالخلافة، وامتنع
عليّ ونفر قليل عن بيعته مدة لاعتقادهم أنه أولى منه بها لقربته وصهره
من رسول الله، ثم لم يلبث عليّ أن بايع ودخل فيما دخل فيه المسلمون.
ثم لما انتهت خلافة أبي بكر وعمر وعثمان وجاءت نوبة خلافة عليّ ثارت
عليه عواصف الفتن والدسائس وانقسم المسلمون: طائفة معه (وسميت
شيعة عليّ) وطائفة عليه (وسميت شيعة بني أمية). ثم انتهى الأمر بقتله
غيلة، ثم بموت ابنه «الحسن» وقتل أشياخ بني أمية ابنه «الحسين»
المطالب بالخلافة بعد أخيه، فحُرّم نسله من الخلافة. فكان ذلك سبباً
في استفحال العداوة بين شيعة عليّ وشيعة أمية التي انضمت إليها جماعة
المسلمين. فاضطرت شيعة عليّ أن تعمل في السر لإعادة الخلافة للعلويين،
وغلا أكثرهم حتى ادّعى أنها لم تصح ولن تصح لغير أهل البيت من أولاد

(*) وتسمى أيضاً الدولة العبّيدية نسبة إلى رأسها عبيد الله المهدي، والدولة

المصرية، ودولة المصريين، ودولة العلويين المصرية

على ، فانكر عليهم بقية المساميين ذلك ، ولا يزال بين الفريقين خلاف كبير في الرأي والمذهب الى الآن . واختص الفريق الأول باسم الشيعة والثاني بأهل السنة والجماعة . ولما عجز العلويون عن الاستحواذ على السلطة من طريق السياسة والقوة ، لقتل من خرج من أئمتهم ، التمسوها من طريق الدين ، فقالوا ان الله لا يترك خلقه بدون إمام حق ، واعتقدوا بأن ذلك الامام هو المهدي المنتظر الذي يُبَيِّد المعتصبيين ويحيي مجد بيت رسول الله ، وعملوا على نشر هذه العقيدة بين الناس بكل الوسائل (*)

منشأ الفاطميين في سنة ٢٨٠ هـ (٨٩٣ م) ذهب أحد دعاة الشيعة المدعو «أبا عبد الله الشيعي» الى بلاد البربر (شمال افريقية) داعياً لعبيد الله بن محمد من نسل جعفر الصادق ، فنجح في دعوته وطرده الأمير الأغلب الحاكم لتلك البلاد التابع للدعوة العباسية سنة ٢٩٦ هـ (٩٠٨ م) . ثم أعلن أن الخليفة الحقيقي للمساميين ورئيس دينهم المنتظر هو إمامه «عبيد الله» المذكور الملقب بالمهدي . ولما كان «عبيد الله» يقول انه من نسل السيدة «فاطمة» بنت رسول الله سُميت سلالته بالفاطميين ، وإن كان بين المؤرخين خلاف كبير في صحة نسبه

عبيد الله فحضر «عبيد الله» الى بلاد المغرب وحكمها أربعة وعشرين عاماً (٢٩٧ — ٣٢٢ هـ : ٩١٠ — ٩٣٤ م) كان الأمر فيها كله بيده ، وأخضع قبائل العرب والبربر ، ودان له الحاكم المسلم الوالى على جزيرة «صقلية» . وكان من أهم شواغله العمل على نشر الدين الصحيح ، فلم يذر مجهوداً في

(*) وكان من بين هؤلاء الشيعة طائفة تعرف بالقرامطة سنأتى على بعض اخبارها فيما بعد

سبيل إبادة البدع والإباحات التي ظهرت إذ ذاك في تلك الجهات . ولما قويت شوكته وخشى ان ينازعه « أبو عبد الله » في السلطة فتك به ، مع انه هو الذى أتى به الى تلك البلاد . وكان من اكبر أمانيه فتح مصر ، فأرسل لغزوها ثلاثة جيوش على مرات اثنان منها بقيادة ابنه « أبي القاسم » ، فخال دون نجاحه عدة أمور ، منها مجاعة في المغرب سنة ٣١٦ هـ (٩٢٨ م) ووباء فشا في أحد هذه الجيوش وانتقل منه بالعدوى بعد عودته الى أهل المغرب . وشغل « عبيد الله » بالأمر الداخلية باقى حياته

القاسم

وفي سنة ٣٢٢ هـ (٩٣٤ م) خلفه ابنه الأكبر « القاسم بأمر الله أبو القاسم محمد » ، فبذل غاية همته في توسيع نطاق ملكه ، فأرسل أسطولاً أغار على شواطئ إيطاليا وفرنسا والأندلس ، وأرسل جيشاً الى مصر هزمه الإخشيد . ثم صرف باقى أيامه فى التغلب على « أبي يزيد » الخارجى الذى ثار عليه وأراد أن ينزع الملك منه

وخلفه « المنصور اسماعيل » سنة ٣٣٤ هـ (٩٤٦ م) ، فقهر ذلك الخارجى سنة ٣٣٦ هـ (٩٤٧ م) ، غير انه لم يحاول الاستيلاء على مصر

المعز

ثم تولى الخليفة الرابع ابنه « المعز لدين الله » أبو تميم معد سنة ٣٤١ هـ (٩٥٣ م) ، فكانت أيامه مبدأ عصر جديد فى تاريخ الفاطميين . وهو يمتاز عن سالفه بتربته العالية وبلاغته النادرة ، وكانت له دراية عظيمة بكثير من اللغات : يتكلم اللغات البربرية والسودانية والإغريقية ، وقيل انه تعلم اللغة الصقلية أيضاً . وكان يقول الشعر العربى ، وكان سياسياً كبير الدهاء كريماً حريصاً على العدل شديد التمسك بالدين

اتبع « المعز » فى سياسته خطة أسلافه ، فبدأ بتوطيد الأمور فى

بلاده حتى دانت له جميع رؤساء القبائل المغربية ، وخضعت له مراكش
بأكملها حتى شواطئ المحيط الأتلنتي

غزو مصر

ثم صرف همه لفتح مصر ، خفر الآبار وبنى أماكن للاستراحة في
الطريق الموصل إليها . وكانت مصر وقتئذٍ في اضطراب لحقها عقب وفاة
« كافور » ، ولم يكن في وسع خلافة بغداد مساعدتها لاشتغالها بصد
غارات « القرامطة » . فسار « المعز » لغزوها أكبر قواده « جوهـر الصـيقلـي »
(وهو رومي الأصل) في مائة ألف مقاتل ، وأعدهم بأخـر العدد ، ووضع
تحت تصرف « جوهـر » ٢٤٠٠٠٠٠٠٠٠ دينار . فدخلوا مصر بلا ضرب
ولا طعن ، وسلمت لهم « الاسكندرية » و « الفسطاط » سنة ٣٥٨ هـ
(٩٦٩ م) . ومن ذلك العهد ابتدأت دولة الفاطميين في مصر . وشرع « جوهـر »
في الحال في توطيد الأمور في مصر . وكانت قد فشت بها مجاعة ، فأرسل
« المعز » إليها سفناً محملة بالقمح ليخفف وطأتها على الناس ، وأمر بأن
لا يبيع تجار القمح شيئاً إلا بإشراف الحكومة

انشاء القاهرة

وخط « جوهـر » في ليلة نزوله شمالي الفسطاط مدينة جديدة على
نحو ميل من النيل بين « الفسطاط » و « عين شمس » وسماها « القاهرة » .
وموقعها الآن وسط مدينة القاهرة الحالية . ثم وضع على كل مصلحة من
مصالح الحكومة موظفين أحدهما مصري والآخر مغربي ، ليكفل بذلك
المساواة بين الناس . وبنى بالقاهرة « الجامع الأزهر » العظيم سنة ٣٥٩ —
٣٦١ هـ (٩٧٠ — ٩٧٢ م) و « القصرين » استعداداً لقدم الخليفة
« المعز » ، فزادت بذلك القاهرة جمالاً وبهاءً ، وفتحت العمارة مورد رزق
للعمال العاطلين

ثم خضعت بلاد النوبة للخليفة الفاطمي ، فدفعت الجزية ، ودانت له مكة والمدينة ، واعترف له الأمير الحمداني الوالي على شمالي الشام بالسيادة على « حلب » . وأرسل « جوهر » أحد قواده للاستيلاء عنوة على « دمشق » ، وكان أهلها شديدي الكراهة للشيعة منذ خلافة معاوية ، فاستولى عليها ونشر عقيدة الشيعة فيها كرها

وبينما الفاطميون تزدد شوكتهم داخل مصر وخارجها اذ ألتم بهم خطر كاد يقضى عليهم سنة ٣٦٠ هـ (٩٧١) . وذلك ان زعيم « القرامطة » كان يأخذ ضريبة من « دمشق » ، فنعت منه باستيلاء الفاطمية على المدينة . فغضب لذلك ، ولم يمنعه اتفاقه مع الفاطمية في العقيدة من الإغارة على المدينة وإخراجها من يد الفاطميين . ثم سار بجيشه الى مصر فهزم أمام القاهرة وفر هارباً

عند ذلك رأى « المعز » انه قد حان وقت قدومه الى مصر ، فسار اليها في موكب حافل ومعه بنوه واخوته وعشيرته وجشت أسلافه ، ووصل إلى القاهرة سالماً سنة ٣٦٢ هـ (٩٧٣ م) ، فأقنع النسابة من سلالة علي بصحة نسبه

وفي سنة ٣٦٣ هـ (٩٧٤ م) زحف « القرامطة » على مصر ثانية ، وطاردوا جيوش « المعز » الى داخل القاهرة ، فاستمال « المعز » أحد رؤساء حلفائهم من البدو بالمال (وكان اكثره زائفاً) ، فانتصر بذلك على القرامطة وردهم على أعقابهم . وفي سنة ٣٦٥ هـ (٩٧٥ م) مات « المعز » خلفه ابنه « العزيز »

وكان عهد « المعز » على قصره من أزهى عصور مصر ، وازدهارها زهاء عصر المعز

وزادت فيه ثروة البلاد زيادة كبيرة . وكانت القاهرة اذ ذاك تسمى « المدينة » ، وكانت في الحقيقة عبارة عن قصرين عظيمين ولواحقهما : بهما من السكان ٣٠.٠٠٠ نسمة ، وكان بين القصرين ميدان عظيم يكفي لاستعراض ١٠.٠٠٠ جندي ، وكانت ثروة الاسرة المالكة زمن المعز وبعده فوق ما يتصور ، فإن إحدى بناته ماتت وتركت وراءها ما يعادل ٢.٠٠٠.٠٠٠ دينار ، واخرى تركت خمسة أكياس من الزمرد ومقادير وافرة من الأحجار الكريمة الأخرى علاوة على ٣.٠٠٠ إناء فضي مطعم . وقد بذل « المعز » غاية وسعه في استجلاب محبة الناس واحترامهم له بعدله وحسن إدارته والتفاته الى جميع دقائق شؤونهم . فكان يرأس بنفسه حفلة قطع الخليج ، وزاد من محبتهم له ارساله كسوة فاخرة للكعبة كل عام . ومنع جنده من البقاء في المدينة بعد الغروب اجتناباً لما عساه أن يحدث من الهياج ، وألغى نظام جباية الخراج بواسطة الملتزمين ، للخسارة التي كانت تلحق البلاد من وراء أرباحهم الباهظة ، وبذلك زاد الخراج بدون أن يضر بمصلحة المزارعين . وكان « المعز » شديد التسامح مع الأقباط ، ولقد كثيراً من رجالهم مناصب راقية في الحكومة

بهذه الطريقة ثبتت قدم الفاطميين في مصر ، وإن كانت تقاليد الشيعة لم ترق يوماً ما في أعين السواد الأعظم من المصريين

ولى « العزيز بالله أبو منصور نزار » (٣٦٥ - ٥٣٨٦ : ٩٧٥ - ٩٩٦ م)

العزيز

بعد وفاة أبيه ، فظهر من الرفق ولين العريكة ما أَرْضَى العباد . وكان العزيز شهياً عظيماً الجسم مولعاً بالصيد ماهرّاً فيه ، وكان قائداً شجاعاً وحاكماً مدبراً ، وكان مثل أبيه شديد التسامح مع المسيحيين ، وكثيراً

ما كان يجلس للمناقشة معهم في الأمور الدينية . وجدّد لهم كنيسة «أبي سيفين» خارج الفسطاط بعد ان كانت مستترة في شكل مخزن للبضائع . ومن تسامحه في الدين أن كان أكبر وزرائه «يعقوب بن كليس» و «عيسى بن نسطورس» ، وأولهما اسرائيلي أسلم والآخر مسيحي . وكان كل شيء في قصره نفماً من حاشية وموائد ودواب ، وقد قيل : «إن خيوله كانت تُكسى الزرد المطعم بالذهب ، وتغطى بأقمشة مرصعة بالجواهر ومعطرة بالعنبر» ، الى غير ذلك من أنواع الفخامة والترف . وبذل «العزیز» الكثير من المال على إقامة المباني وحفر الترع وانشاء الجسور (الكبارى) ومرافئ السفن . وبدأ بناء الجامع الذي يعرف بجامع «الحاكم» (لأن الحاكم هو الذي أتمه) بجوار باب الفتوح . وهو أول من سار في موكب الى الجامع في كل يوم جمعة من رمضان للصلاة بالناس ، وأول من استخدم من الخلفاء الفاطمية جند الترك . وسادت في عهده السكينة في البلاد ، فبرهن بذلك على مقدرته في الادارة . أما مملكته فيكنى في وصفها أنها كانت تمتد من المحيط الاطلنطي الى شرقى الحجاز ، ومن اليمن الى أعلى الفرات وخلفه ابنه «الحاكم بامرالله أبو علي منصور» (٣٨٦—٤١١ هـ :

الحاكم

٩٩٦—١٠٢١ م) وعمره ١١ سنة ، فنشأ مطلق الأمر في آرائه وتصوراته . وتعلم علوم الشيعة فعلا فيها ، كما تعلم علوم الفلسفة والنجوم فكان له بها ولع شديد . وكان على طرفي الغلو في كل أعماله : فاذا عاقب أفرط وسفك الدماء وقتل الأعوان والأقارب والعلماء ، واذا أثاب أو أحب بذل ما لم يبذله ملك . وكانت أعماله متناقضة ، يفعل اليوم ما ينقضه غداً ، اشتدت به غيرته على النساء فمنعهن من الخروج الى السوق والحمام والتطلع من

بوافد البيوت ، وقتل منهم في ذلك كثيراً ، وعاقب على شرب الخمر أشد العقاب ، ثم غلا وقلع جميع الكروم في أرض مصر ، واضطهد النصراني واليهود فهتّم كنائسهم ، ثم أعادها . وانتهى به الأمر ان صار يخبر بالمغيبات من جواسيس كانت تطلعه على الأخبار ، فاغتر به قوم واعتقدوا أن روح الله حلت فيه ، وألّف رجل منهم كتاباً في ذلك ، فثار به الناس فخرج الى الشام ، ولا يزال اتباعه بها الى الآن . وكان مع سفاهته ونزقه شديد العناية بجمع الكتب ومعاودة العلم ، وأتمّ الجامع الحاكى (بين باب الفتوح وباب النصر) . ولما استطار شره ركب حماره يوماً وخرج على عادته الى جبل المقطم بناحية حلوان للخلوة بنفسه ولرصد الكواكب فلم يعد ، ووجدوا بعد أيام ثيابه مضرجة بالدماء وحماره مجروحاً ، فعلموا انه قد قتل ، وقيل ان اخته عملت على قتله وذلك سنة ٤١١ هـ (١٠٢١ م)

الظاهر

فتولى مكانه ابنه «الظاهر لإعزاز دين الله ابو الحسن على» (٤١١ — ٤٢٧ هـ : ١٠٢١ — ١٠٣٢ م) ، وكان صبياً لا يتجاوز السادسة عشرة من عمره ، فلم يكن بالرجل الذى يقدر على انتشال البلاد مما أصابها من جرّاء أعمال والده . وكان في أول أمره في قبضة عمته ، فدام ذلك أربع سنوات ، ثم غلب على أمره بعد ذلك ثلاثة شيوخ حكموا البلاد باسمه زمناً . وفي سنة ٤١٥ هـ (١٠٢٥ م) حصلت مجاعة كبيرة في البلاد ، وكاد المصاب يكون أليماً لولا ارتفاع النيل في سنة ٤١٧ هـ (١٠٢٧ م)

قوة الوزراء

ومن ذلك العهد أخذت قوة الخلفاء الفاطميين فى الاضمحلال ، وتحوّلت جميع السلطة الى الوزراء . وكان هؤلاء كلما مات خليفة اختاروا مكانه من أسرته من كان اكثرهم ليناً وأقرب الى التشكل فى أيديهم

حسب أهوائهم . وفي عهد « الظاهر » قامت على الحاكم الفاطمي لمدينة « قيسارية » عدة فتن في أنحاء الشام ، فتغلب عليها جميعاً وازدادت إلى أملاك الفواطم « حلب » ومعظم شمالي الشام

ثم خلفه ابنه « المستنصر بالله أبو تميم معد » (٤٢٧ — ٤٨٧ هـ : المستنصر ١٠٣٦ — ١٠٩٤ م) وعمره سبع سنين فاقام في الخلافة ستين سنة لم يقمها ملك غيره في الاسلام . وكان حكمه هذا على طوله عهد تدهور سريع في الدولة الفاطمية ، قضى أوله في مشاحنات بين عدة وزراء قبضوا على زمام الامور بالتوالي (٤٢٧ — ٤٤٢ هـ ١٠٣٦ — ١٠٥٠ م) ، وفي مدتهم خرجت ولايات شمالي افريقية من يد الفاطميين ورفضت التشيع وعادت سنية . وخرجت عليهم الولايات السورية ، وانقسمت الى ولايات عديدة وقعت غنيمة باردة للأتراك السلجوقيين سنة ٤٦٩ هـ (١٠٧٦ م) . ومن الغريب ان الدعوة الفاطمية في عهده بلغت أقصى العراق فخطب له ببغداد نحو أربعين خطبة وهرب خليفها العباسي . ثم آلت في عهده أيضاً الى ما ذكرنا

وكانت مصر ذاتها بالرغم من ذلك في رخاء وسعة ، وكان القصر الماسكي بها من أنخم وأعظم ما عُرف في الاسلام ، يُعلم ذلك من قول سائح فارسي يصف القاهرة في ذلك العهد : « يضم القصر بين جدرانته ٣٠٠٠٠٠ نسمة ويحرسه كل ليلة ألف حارس ما بين فارس وراجل . ويبلغ عدد المساكن نحو ٢٠٠٠٠ بيتاً متقنة البناء يفصل بعضها عن بعض الحدايق والبساتين ويبلغ عدد الحوانيت ما يقرب من ذلك ، ويدخل متحصلاً الجميع للخليفة . ويمشي في موكب الخليفة يوم فتح الخليج نحو ١٨٠٠٠٠ من الجنود والأعوان من أجناس مختلفة ، وكثيراً ما كان يوجد بين حرس الخليفة الأمراء

وأولاد الملوك من أقاصى البلاد حتى من الهند »

اضطراب البلاد ثم هدأت حالة البلاد نحو ثمانية أعوام بعد سنة ٤٤٢ هـ (١٠٥٠ م)،

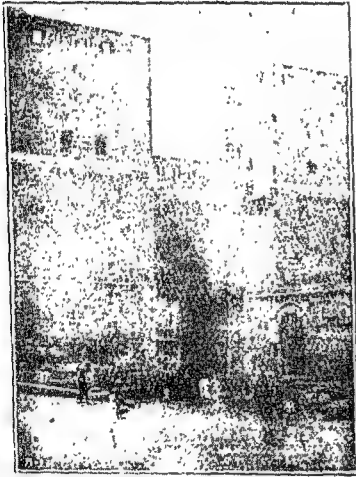
وكان القابض فيها على زمام الأمور وزير عامل يدعى « اليازورى » فقام باصلاحات عديدة ، ولكن الحال رجعت بعده الى ما كانت عليه من الفوضى والنزاع بين الوزراء ، وزادت الفتن بين الجند السودان والأتراك حتى كان لذلك أسوأ أثر في البلاد . وبالف « ناصر الدولة » القائد العام للجيش في الظلم والاستبداد حتى خرج عليه بثو جلده من الأتراك ، ففر من القاهرة ولكنه عاد اليها ومعه ٤٠٠٠٠ مقاتل من العرب والبربر ، فافسدوا الترع والجسور في الوجه البحرى ومنعوا الزاد عن القاهرة والفسطاط وصادف ذلك خطأ كان قد بدأ بالبلاد سنة ٤٥٧ هـ (١٠٦٥ م) بسبب انخفاض النيل . فمنع هذا الهياج المزارعين من مزاولة اشغالهم ، فاستفحل أمر القحط حتى استمر سبع سنوات (٤٥٧ — ٤٦٥ هـ : ١٠٦٥ — ١٠٧٢ م) مات فيها الناس جوعاً وأكل بعضهم بعضاً ، وحدث من الويلات ما يضيق المقام عن ذكره . ولم يقدر الخليفة على دفع الأذى عن نفسه ، إذ اضطره قواد حرسه من الأتراك الى بيع تلك القناطير المقنطرة من النفائس التى ورثها عن آبائه وأجداده مما لا يدخل تحت حصر ، فقسموا بعضها على أنفسهم وباعوا الآخر بالبخس الأثمان . ولم يُجد ذلك نفعا بل انه بقى محاصراً بالقاهرة يتكبد آلام الفاقة حتى فتح « ناصر الدولة » المدينة ، فوجد رسوله الخليفة فى قصره جالسا على حصير بال ولا قوت له سوى رغيفين اجرتهما عليه كل يوم احدى المحسنات

القحط الهائل

دخل « ناصر الدولة » القاهرة سنة ٤٦٦ هـ (١٠٧٣ م) ، ولكن لم

بدر الجمالى

يلبث ان حقد عليه مناظروه وقتلوه، فاستراح منه الخليفة. ثم أرسل الى « بدر الجمالى » الأزمنى الأصل حاكم « عكا » يسأله القدوم الى مصر لتنظيم أمورهما واصلاح ما فسد فيها. فقبل « بدر الجمالى » رجاءه ودخل مصر فى جيش من أهل الشام، ففتك بالقواد الأتراك. ثم انصرف الى اصلاح البلاد وإخضاع الخارجين من أهلها، فساد الأمن وازداد الخراج وعم الخير جميع الناس. وبنى حول المدينة سوراً جديداً وشيد فيه ثلاثة



(باب النصر)

أبواب ضخام لا تزال الى الآن موضع إعجاب الناظرين، وهى باب النصر وباب الفتوح (سنة ٤٨٠ هـ : ١٠٨٧ م) وباب زويلة (المتولى) (سنة ٤٨٤ هـ : ١٠٩١ م). وأعجب الخليفة به كثيراً فلقبه بأمر الجيوش. ومات فى سنة واحدة مع الخليفة (سنة ٤٨٧ هـ : ١٠٩٤ م) بعد ان قضى فى مصر عشرين عاماً امتلأت فيها البلاد هدواً وسلاماً

وتولى الخلافة من بعد « المستنصر » ستة وهم :

- (١) « المستعلى » (٤٨٧ — ٤٩٥ هـ : ١٠٩٤ — ١١٠١ م)
- (٢) « الأمر » (٤٩٥ — ٥٢٤ هـ : ١١٠١ — ١١٣١ م)
- (٣) « الحافظ » (٥٢٤ — ٥٤٤ هـ : ١١٣١ — ١١٤٩ م)
- (٤) « الظافر » (٥٤٤ — ٥٤٩ هـ : ١١٤٩ — ١١٥٤ م)

(٥) « الفائز » (٥٤٩ — ٥٥٥ هـ : ١١٥٤ — ١١٦٠ م)

(٦) « العاضد » (٥٥٥ — ٥٦٧ هـ : ١١٦٠ — ١١٧١ م)

وكلمهم كانوا في شدة الضعف : ولّوا الخلافة جميعاً وهم أطفال ما عدا « الحافظ » فإنه وليها وعمره ٥٧ سنة . وكان الوزراء في عهدهم هم الحكام الحقيقيين للبلاد ، ولذلك كان شأنهم في التاريخ أهم من شأن الخلفاء أنفسهم . ولما كان تاريخ مصر في هذا العهد مندمجاً كل الاندماج في تاريخ النزاع بين المسامين والإفرنج في الاستيلاء على الشام والأراضي المقدسة ، مما أفضى الى تأسيس دولة اسلامية جديدة هي الدولة الأيوبية ، رأينا أن نورد كل ذلك في فصل واحد فنقول :

الفصل الخامس

تأسيس الامارات الصليبية بالشام

وعلاقتها بمصر

٤٨٩ — ٥٦٧ هـ : (١٠٩٦ — ١١٧١ م)

✽ مبدأ الحروب الصليبية ✽

بينما الدولة الفاطمية آخذة في التدهور في أيام المستنصر كانت

السلجوقيون

✽ يطلق هذا الاسم على عدة حروب شنها مسيحيو اوربا على المسلمين لأخذ بيت المقدس من أيديهم . واستمرت نحو مائتي سنة من ٤٨٩ الى ٦٧٠ هـ (١٠٩٦ — ١٢٧٢ م) . وسميت بالحروب الصليبية لأن المسيحيين الذين قاموا بها اتخذوا الصليب شعاراً لهم ورسموه على ملابسهم وأعلامهم

الأخطار قد أحدثت أيضاً بالدولة العباسية . وذلك ان الأتراك السلجوقيين واصلوا زحفهم غرباً حتى استولوا على جميع العراق وأرمينية والشام حتى حدود الدولة الرومانية الشرقية ، ولم يبقوا للخليفة العباسي ببغداد سوى الزعامة الدينية . وكان هؤلاء الأتراك شديدي التمسك بالاسلام عظيمي الغيرة على مذهب أهل السنة ، يعدّون التشيع بدعة يجب القضاء عليها ، ولذلك لم يألوا جهداً في استئصال شأفة الفواطم مما بقي بأيديهم من الشام ، بل كادوا يغزون مصر ذاتها . واستولت فرقة من هؤلاء الأتراك في هذه النهضة على معظم آسيا الصغرى سنة ٤٧٤ هـ (١٠٨١ م) وكونوا لهم فيها دولة عظيمة سميت « مملكة الروم » لأنها كانت من قبل جزءاً من بلاد الروم فساء ذلك قيصر الرومان وخاصة لقرب عاصمتهم « نيقية » من

القسطنطينية حاضرة دولته ، فلجأ الى البابا رئيس النصرانية يستصرخه ^{بابا} قيصر يستصرخه على صد هؤلاء الأعداء ، فلم يقصر هذا في اجابته ، ورأى في ذلك فرصة لبسط نفوذه على ملوك اوربا وامراتها اذا هم اشتركوا في حركة أساسها الدفاع عن النصرانية واخراج بيت المقدس الذي هو مهد المسيحية من يد المسلمين . ومن أهم الأسباب التي استفزت أهل اوربا الى تحقيق هذه الأمنية ما كانوا يسمعون من حُجاجهم عند عودتهم من الإهانة التي يلاقونها من الأتراك ، والضرائب الباهظة التي يؤدونها لهم ، والهوان الذي فيه مسيحيو الشرق ، وغير ذلك من الأقوال المبالغ فيها التي كان ينشرها رجال الدين في اوربا بسرعة لشدة تعصبهم وقضاء مآربهم

وأول من هاج القلوب واخرج هذه الرغبات من القول الى العمل بطرس الناسك راهب متعصب فرنسي يدعى « بَطْرُس النَّاسِك » ، فطاف باوربا باشارة

البابا يستنفر القوم الى استنقاذ بيت المقدس من الأتراك . وكان بليغاً مؤثراً ، فأثارهم وملاًهم حماسة وحققاً على المسلمين . وعند ذلك جمع البابا أمراء أوروبا وحرصهم على اعلان حرب دينية على المسلمين ، فلبى نداءه الألوف من الناس ، وقد أخذت الحمية منهم كل مأخذ . وخرجت لذلك من أوروبا سنة ٤٨٩ هـ (١٠٩٦ م) جيوش عظيمة بها كثير من أمراء اوربا وفرسانها وقوادها العظام . وكانت بغية الكثير منهم الغنى والمملك في البلاد الذاهبين لفتحها

الحرب الصليبية
الاولى

صادف هذا الوقت فترة ضعف في شوكة الأتراك جاءت بين النهضة التي ساقتهم الى تلك البلاد والنهضة الجديدة التي أعقبت غارة الصليبيين وذلك لضعف امرائهم في ذلك الحين . فانقضت جيوش الصليبيين على « مملكة الروم » فهزموا سلطانها وردوا الى قيصر الرومان ما يقرب من نصف آسيا الصغرى* وعند ذلك نقل سلطان الروم السلجوقي مقر سلطنته الى « قونية » . وترك الصليبيون قيصر الرومان يفصل لنفسه مع سلطان الروم ، ومضوا الى سورية . فوصلوا اليها بعد أن مات عدد عظيم منهم ومن دوابهم جوعاً وظماً

✽ تأسيس الإمارات اللاتينية ✽

وجد الصليبيون في فتح البلاد ، فاستولوا على كثير من مدن آسيا الصغرى والشام وكوتوا لهم فيها إمارات سُميت بالإمارات الصليبية أو

* وكان اتفاقه معهم على ان ترد اليه جميع البلاد التي كانت في قبضته قبل استيلاء الترك عليها



بحر المشرق

أو البحر المتوسط الأبيض

الأمارات اللاتينية في سورية
(بعد)
الحروب الصليبية الأولى
وتم الشرح من قبل الشيخ محمد خير الدين الذي درس في مدرسة المعلمين العالية

« الإمارات اللاتينية » نسبة الى الأجناس اللاتينية التي كان يتألف منها الصليبيون

وأول ما أسس من هذه الإمارات إمارة « آذاسا » (الرُّها)^(١) الرها وانطاكية
بوادى الفرات سنة ٤٩٠ هـ (١٠٩٧ م) ثم أنطاكية سنة ٤٩١ هـ (١٠٩٨ م)
وفي هذا الوقت كان المصريون قد انتزعوا « بيت المقدس » من
يد الأتراك السلجوقيين . وذلك ان الوزير « الأفضل » بن « بدر الجمالي »
لما شعر بقدوم الصليبيين أمل خيراً وظن أنه إن اتحد معهم يفوز على
أعدائه الأتراك ، فسار في جيش الى فلسطين وأخذ بيت المقدس من
السلجوقيين سنة ٤٩١ هـ (سبتمبر سنة ١٠٩٨ م) ، غير ان أعمال الصليبيين
خيبت عليه ظنه ، فانهم ما كادوا يعلمون بخروج بيت المقدس من يد
حُماته البواسل (السلجوقيين) حتى انقضوا عليه وافتتحوه وغنموا منه غنائم
لا تحصى ، وقتلوا من أهله نحو ٧٠٠٠٠ مسلم وأتوا معهم من المنكرات
والفظائع الوحشية ما لا ينساه التاريخ . ثم كَوَّنوا به إمارة لاتينية أخرى
تُعرف بمملكة بيت المقدس سنة ٤٩٢ هـ (١٠٩٩ م)

الأفضل
والصليبيون

ومن ذلك العهد بقى « الأفضل » في حروب مستمرة مع الصليبيين ،
ووقعت بينهم عدة وقائع صغيرة انتهت بتراجع المصريين من الشام
تدريجاً ، حتى لم يبق لهم فيها سوى « عسقلان » . وفي سنة ٥١١ هـ (١١١٧ م)
أغار « بلدوين » (بَدْوِين)^(٢) ملك بيت المقدس على مصر ذاتها فأحرق
« الفرما » ووصل الى « تَبَّيس » ، ثم لحقه مرض فرجع ومات . ومن ذلك
الوقت اكتفى الفاطميون باتباع خطة الدفاع عن مصر

(١) موضعها الآن « أَرْفَة » (٢) ويكتب في التواريخ العربية أيضاً « بَدْوِين »

وفي سنة ٥١٥ هـ (١١٢١ م) أمر الخليفة الفاطمي بقتل «الأفضل»
حسداً له وجباً في القبض على السلطة ، ولكنه لم يستطع ادارة شؤون
الدولة وحده ، فكرهه الناس وقتلوه سنة ٥٢٤ هـ (١١٣٠ م)

﴿ حالة الإمارات اللاتينية ﴾

لما حلّ الصليبيون بالشام لم يكونوا لهم مملكة واحدة تجمع كلتهم ،
بل أسس كل قائد منهم إمارة له انفصلت بمضى الزمان تمام الانفصال
عن نظائرها . ومن أهم هذه الإمارات « الرُّها » و « انطاكية » و « بيت
المقدس » و « طَرَابُلس » . وكانت كل إمارة تسعى وراء مصلحتها الخاصة
بدون مراعاة لمصلحة الجميع ، فجرّ ذلك عليهم الضعف بالتدريج
وبقي الصليبيون (على اختلافهم وبعدهم عن المدد من أوروبا) ثابتي
الأقدام ، اذ كان الترك أنفسهم لا يزالون متفرقين . ولكن في سنة ٥٢١ هـ
(١١٢٧ م) ولى « عماد الدين زنكى » من قبيل الدولة السلجوقية حاكماً
لأعلى الفرات والموصل . وكان رجلاً قوياً ، فعمل على توحيد جميع ولايات
سورية الاسلامية تحت كلمته ، ولم يلبث ان بسط سلطانه على « حلب » ،
وكان أهلها قد استغاثوا به من الفرنج . وفي سنة ٥٢٤ هـ (١١٣٠ م) فتح
حصن « الأثارب » (بالقرب من حلب) بالرغم من مقاومة الصليبيين .
وفي سنة ٥٣٠ هـ (١١٣٥ م) حاول الاستيلاء على دمشق فلم يتيسر له
لاستنجاد حاكمها بالصليبيين . غير انه استولى في هذه الجهة على « بعلبك »
سنة ٥٣٤ هـ (١١٣٩ م) وعين « أيوب بن شاذى » أحد قواده العظام
حاكماً عليها . وفي سنة ٥٣٩ هـ (١١٤٤ م) استولى على « أذاسا » (الرُّها)

زنكى

عنوة بعد قتال شديد ، فكان لذلك أسوأ وقع على الصليبيين . ولم يعيش « زَنْكى » طويلاً لاستتمام فتوحه ، فقتل غيلة بعد ذلك بعامين ، وتُقسمت دولته بعد مماته

انقسم دولة « زَنْكى » بعد مماته ولدان له : أخذ أكبرهما « الموصل » ، نور الدين وأخذ الأصغر (وهو نور الدين) ولاية « حلب » . فاتهز « مجير الدين أبى ابن محمد » حاكم دمشق فرصة انقسام الدولة واسترد « بعلبك » ، والتحق « أيوب بن شاذى » واليها بخدمته ورُقى بعد قليل الى مرتبة قائد جيوشه . ووجه « نور الدين » همته للدفاع عن « أذاسا » ، وكان الفرنج قد حاولوا استرجاعها ، وخرجت لحمايتها من أوروبا قوة حربية جديدة تحت قيادة « كُنْزاد » امبراطور المانيا و « لويس السابع » ملك فرنسا . فرأوا أن يبدأوا بالإغارة على « دمشق » (سنة ٥٤٣ هـ : ١١٤٨ م) ولكنهم اختلفوا وعادوا الى بلادهم بالفشل (١١٤٩ م) . وتُعرف هذه الحملة « بالحرب الصليبية الثانية » ، ولم يكن من ورائها سوى إضعاف آمال الصليبيين في سورية . ولما أنس « نور الدين » من نفسه القوة ورأى ان « أيوب بن شاذى » (صديق والده القديم) نافذ الكلمة في دمشق ، وأنه أخو « شيركوه » أحد قواده الكبار ، عمل على فتحها . ولم يظهر جيشه أمام المدينة حتى سلّمت له (سنة ٥٤٩ هـ : ١١٥٤ م) فدانت له بذلك سورية الاسلامية . ثم عين « نور الدين » « أيوب بن شاذى » حاكماً على مدينة « دمشق » ، وعين أخاه « شيركوه » حاكماً على ولايتها (دون المدينة)

الحرب الصليبية
الثانية

﴿ مصر والصليبيون ﴾

بينما كان «عماد الدين زنكي» وابنه «نور الدين» من بعده يجدّان في الاستيلاء على الشام كان الفاطمية في مصر يعولون على الاكتفاء باتّباع خطة الدفاع . وكان وزراءهم قد جمعوا كل السلطة في أيديهم حتى ان «رضوان» وزير «الحافظ» تلقّب «بالمليك» سنة ٥٣٢ هـ (١١٣٧ م) وتبعه في ذلك جميع وزراء القواطم من بعده . فاصبح بذلك منصب الوزارة موضوع تنافس كبار الرجال في مصر . وكانت «القاهرة» دائماً مشهد مذابح ومعارك بتفاقم العداوة والبغضاء بينهم وحلول بعضهم محل بعض . وكثرت هذه الويلات في عهد الظاهر ، فاجترأ أحد الوزراء على الخليفة وقتله ، وأجلس مكانه ابنه الفائز وهو طفل لا يتجاوز الخامسة من عمره (٥٤٩ هـ : ١١٥٤ م)

كثرة الفتن
بمصر

وفي هذه السنة قبض على أزمّة الوزارة رجل قوى يدعى «المليك الصالح» طلائع بن رزّيك . وكانت مصر اذ ذاك في حاجة الى حازم مثله ، خصوصاً ان «عسقلان» آخر أملاكها في سورية كانت قد سقطت في يد افرنج بيت المقدس سنة ٥٤٨ هـ (١١٥٣ م) . وبات كل من «نور الدين» و «صاحب بيت المقدس» يتطلع للاستيلاء على مصر ذاتها ، ولم يمنع أحدهما من الاغارة عليها الا خوفه من الآخر . عند ذلك ارسل «المليك الصالح» وفداً الى «نور الدين» يطلب اليه محالفته على الصليبيين ، فلم يجبه «نور الدين» الى طلبه إماماً خوفاً منه واما كراهة للشيعة . فاكتفى «المليك الصالح» بالدفاع عن مصر وصيانة حدودها الشمالية الشرقية من

طلائع
بن رزّيك

تعدّى الأعداء . وكان عهده عهد هدو وسكينة في البلاد

ولما قتل سنة ٥٥٨ هـ (١١٦٣ م) تولى الوزارة ابنه العادل رزّيك شاور وضرغام بوصية من أبيه ، ولكن ذلك لم يسكن عواصف الفتن ، فقام نزاع كبير بشأن تقلّد الوزارة أدّى أخيراً الى انقراض الدولة الفاطمية . وذلك ان « شاور » بن مجير السعدى الذى كان والياً على قوص ثار على العادل رزّيك بن طلائع وقبض عليه وقتله وأجلس نفسه وزيراً مكانه ، وبقي في الوزارة حتى ثار عليه « ضرغام » أحد القواد المحبوين ، فقرّ « شاور » الى دمشق ، وطلب من « نور الدين » مساعدته على الرجوع الى منصبه ، ووعده بدفع جزية سنوية اليه إن تمّ له ذلك ، فتردّد « نور الدين » . وبينما هما فى أخذ وردّ قام خصام بين « ضرغام » و « أمّلىك » (مَرى) ملك بيت المقدس بشأن جزية سنوية كان قد اتفق من قبله من الوزراء على دفعها لأمّلىك . فاغار « أمّلىك » على مصر فى الحال وهزم « ضرغاماً » فى « بلبس » . ثم رجع بعد ان أرضاه « ضرغام » وحالفه خوفاً من شرّه واستعانة به على « شاور » و « نور الدين » لواتفقا . فعلم بذلك « نور الدين » وبادر بإرسال جيش من الأتراك بقيادة « أسد الدين شيركوه » ومعه صلاح الدين ابن أخيه ، وصحبهم شاور فدخلوا القاهرة بعد ان هزموا الجيوش المصرية بلبس . وانفضّ الناس من حول « ضرغام » ، ثم قتلوه

ولم يتمّ الأمر لشاور حتى شرع فى التخلّى عن حلفائه وناصريه ونقض شيركوه بمصر جميع عهوده معهم . فاتقلبوا عليه ، وارسل « شيركوه » ابن أخيه « صلاح الدين » للاستيلاء على بلبس . فاستغاث « شاور » بأمّلىك . ولما قدمت

الجيوش الصليبية صدها « صلاح الدين » بيليس نحو ثلاثة أشهر . ثم خاف « أمريك » على مملكته بالشام من غارات « نور الدين » ، فأراد العودة إليها . وكان « شيركوه » نفسه قد سئم البقاء بمصر ، فعقد هدنة وخرج بجيشه تاركاً مصر للجيش المصرية وحلفائهم من الفرنج ولم تأت غارة « شيركوه » هذه بالفائدة المقصودة ، ولكنها مكنته من الوقوف على حالة البلاد ، فوصفها لنور الدين عند عودته ، وهوّن عليه أمرها وطلب إليه ان يرسله في جيش آخر لفتحها ، فرضى بذلك نور الدين مع ما طبع عليه من الحرص والحيلة

خرج « شيركوه » الى مصر لشانى مرة سنة ٥٦٢ هـ (١١٦٧ م) فاسرع « امريك » بالقيام وراءه لينجد حلفاءه المصريين . فوصل « شيركوه » الى النيل قبل خصمه ، فعبر النيل جنوبى القاهرة بنحو ٤٠ ميلاً . فلم يكده يعبره حتى وصل « مرى » الى الشاطئ الشرقى . وسار الجيشان شمالاً أحدهما أمام الآخر حتى عسكر « مرى » بالقرب من الفسطاط ، وعسكر « شيركوه » أمامه بالجيزة ، وبقي الجيشان يرقب بعضهما بعضاً . وعند ذلك رأى « مرى » قبل أن يبدأ فى الدفاع عن مصر أن يعقد تحالفاً رسمياً مع الخليفة نفسه مخافة أن يُزعزع « شاور » ويصبح تحالفه معه بلا جدوى . فسمح الخليفة بذلك وقابله بعينه مندوبان من قبل « مرى » ، وتمّ التحالف على أن يدفع له الخليفة ٤٠٠.٠٠٠ دينار نظير دفاعه عن مصر وصد الأعداء عنها . وعند ذلك عبر « مرى » بجيشه شمالى القاهرة ، فراجع « شيركوه » الى الصعيد ، فلحقه الصليبيون بجهة يقال لها « البابان » بالقرب من المنية فانتصر عليه السوريون أصحاب شيركوه (وهم الفا فارس)

شيركوه
وامريك بمصر

انتصاراً باهراً سنة ٥٦٣ هـ (١١٦٧ م) . وفي هذه الموقعة أبدى « صلاح الدين » كفاءة عظيمة . ثم سار « شيركوه » الى الاسكندرية فدخلها من غير مقاومة ، وترك فيها « صلاح الدين » في نصف الجيش ، ورجع هو بالنصف الآخر لإتمام فتح الصعيد والاستيلاء على القاهرة والفسطاط . فسار الفرنج وحاصروا الاسكندرية براً وبحراً فدافع عنها « صلاح الدين » أحسن دفاع (وكان هذا أول عهده بالرياسة) ، وانتهى الأمر باتفاق « شيركوه » و « مرى » على ان يخلي كل منهما البلاد وان يتركوا مصر للمصريين

ولكن الصليبيين طمعوا في مصر ، فابقوا لهم فيها شحنة احتلت اسوار القاهرة . ولم يلبث « مرى » ان رجع بجيش آخر (يريد غزو البلاد هذه المرة لا الدفاع عنها) . ففتح بليس سنة ٥٦٤ هـ (١١٦٨ م) وذبح من أهلها ما لا يحصى ، فاثار بذلك حقد المصريين . وخاف « شاور » ان يأخذ « الفسطاط » فأمر أهلها بالجلأ عنها الى القاهرة وأحرقها سنة ٥٦٤ هـ (١١٦٨ م) كي لا يأوى اليها الصليبيون . وكانت اذ ذاك مدينة عظيمة فبقيت النار مشتعلة فيها أربعة وخمسين يوماً . وما زالت آثار الحريق تشهد الآن في اطلال « الفسطاط » بالقرب من مصر القديمة الحالية . وجاء الفرنج فحاصروا القاهرة ، فاخذ « شاور » يعدهم بالمال ويماطلهم . واستغاث « العاضد » أثناء ذلك « بنور الدين » ، فلم يتردد وارسل لثالث مرة جيشاً كبيراً بقيادة « أسد الدين شيركوه » مقصده الحقيقي غزو مصر لا مساعدة المصريين ، وخرج معه « صلاح الدين » وهو كاره . فأرسل « مرى » جيشاً لمنع انضمام « شيركوه » الى الجيوش المصرية ، ولكن

صلاح الدين

عودة امريك الى مصر

احراق الفسطاط

شيركوه بمصر
لثالث مرة

« شيركوه » فاقه في حركاته وانضم الى جيش « شاور » سنة ٥٦٤ هـ
(يناير سنة ١١٦٩ م) . فلم يقدم « مري » على القتال ورجع الى الشام
بمخفى حنين

✽ دخول « شيركوه » مصر وانقراض الدولة الفاطمية ✽

فدخل « شيركوه » القاهرة ظافراً ورحب به الناس ، وخلع عليه
الخليفة حلة ، أكراماً له واعترافاً بجميله . وشك « شيركوه » والخليفة معاً
في اخلاص « شاور » فقتلوه . وعيّن « شيركوه » وزيراً فلم يتولّ المنصب
أكثر من شهرين ثم توفي . خلفه في الوزارة ابن أخيه « صلاح الدين »
ولقب بالملك « الناصر » ، فكفّ يد « العاضد » عن كل شيء بالتدريج .
ثم قطع الخطبة للعاضد وهو مريض ، ودعا للمستضيء العباسي . ثم مات
العاضد سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) ، وبموتة انقرضت الدولة الفاطمية . واستولى
« صلاح الدين » على مصر مع تابعيته للخليفة العباسي أولاً ولنور الدين
ثانياً تابعية اسمية

صلاح الدين في
منصب الوزارة

✽ مزايا الفاطميين وأسباب سقوط دولتهم ✽

كانت دولة الفاطميين على شذوذها وابتداعها من أعظم دول
الإسلام مُدْكَاءً ، وأشدّها للعلم أزرأ ، وأطولها على الناس عائدةً وفضلاً ،
وأرقاها حضارةً وأدباً ، وأنبليها ترفاً وتمتّعاً
وهم الذين أحدثوا في مصر كثيراً من المواسم والأعياد والحفلات
الوطنية ، كما ابتدعوا عادة الاحتفال بموالد أهل البيت وبأحياء بعض الليالي
المباركة ، وبقي أغلب هذه الاحتفالات الى وقتنا . وكانوا في تلك المواسم

الاعیاد
والحفلات عند
الفاطميين

والموالد يادبون المآدب الجامعة لجميع الطبقات كل على حسب مرتبته ، فتقدم الموائد الكثيرة المزخرفة بالذهب والفضة والعاج واللوان الأصباغ ، عليها من الأطعمة الفاخرة وأنواع الحلوى اللذيذة ما لا يكاد يصدق العقل كثرةً وتنوعاً ، وكثيراً ما تُقدم معها أصناف الكسوة الثمينة والهدايا والدنانير والدرهم لأرباب الدولة والخواص ثم للخدم والجند . فمن المواسم موسم أول العام ، ويوم عاشوراء ، ومولد النبي صلى الله عليه وسلم ، ومولد عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه ، ومولد الحسن ، ومولد الحسين رضي الله عنهما ، ومولد فاطمة الزهراء رضي الله عنها ، ومولد الخليفة الحاضر ، وليلة أول رجب ، وليلة نصفه ، وليلة أول شعبان ، وليلة نصفه ، وغرة رمضان وإحياء ليالى رمضان بالقراءة ، ومدّ أسمطة السّجّور ، وليلة ختم رمضان (ليلة ٢٩ منه) ، وعيد الفطر ، وعيد النحر ، وقافلة الحج ، وفتح الخليج ، وعيد النيروز القبطي ، وعيد الميلاد المسيحي ، وليلة الغطاس ، وخميس العهد ، (وهذه المواسم القبطية معروفة قبل الفاطمية إلا أن عنايتهم بها كانت شديدة)

وكان تأتّمهم بجمع التحف والذخائر النفيسة من آنية الذهب والفضة والأحجار الكريمة والتماثيل الحيوانية والنباتية المرصعة بفصوص الجواهر المعجزة بالذهب والفضة ما لم يُسمع بمثله في الملة الإسلامية . ولئن كانت مخالفتهم لأهل السنة في المذهب أبعدتهم عن علومهم وآدابهم لقد فاقوهم في العلوم الآليّة والفنون الجميلة . ولذلك تقدمت في زمنهم الصناعة العربية من الصياغة والحياكة والتطريز والعمارة والزخرفة تقدماً بقي أثره الى الآن ، وما زالت دور الآثار بانحاء العالم مملوءة باحسن النماذج الدالة على فوقانهم

فى ذلك . وكانت للقاهرة والاسكندرية فى ذلك العهد شهرة فائقة فى صناعة الحرائر الدقيقة ، واشتهرت اسيوط والبهنسا بالأصواف ، ودمياط بنسيج يعرف بالدمياطي و«تنيس» بنسيج آخر دقيق يسمى «أبا قلمون» يصنع لاستعمال الأسرة الملكية خاصة

دور الكتب

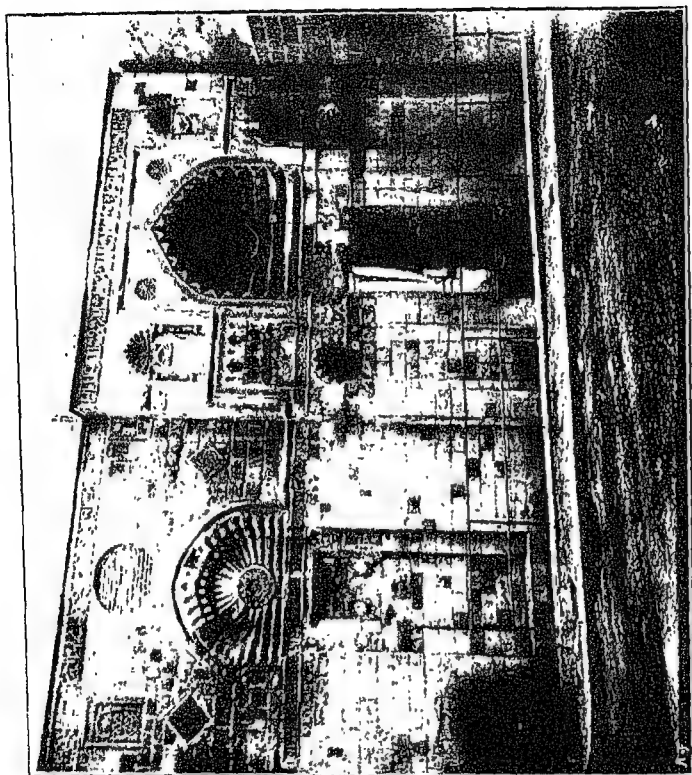
وكانت لهم دور كتب عديدة جمعت اكثر من ستمائة ألف مجلد مفتحة أبوابها للخاصة والعامة ، وبها القوام والمغترون والنساخ ، ومن أشهرها دار الحكمة التى كانت بين القصر الغربى والأزهر (ما بين السكة الجديدة والصناديقية الآن) . وكان تعظيمهم للعلماء والأدباء والأطباء يحل عن الوصف . وكان لهم المراصد العديدة على جبل المقطم وجبل الكباش وظاهر القاهرة

وأُنشئوا القصور والبساتين والمناظر على ضفاف النيل وحوالى القاهرة . وكانت سفن اسطولهم فى أول دولتهم تعد بالآلاف وتقلع الى السفر من منظر المقس (قرب جامع أولاد عنان الآن)

وجملة القول ان الدولة الفاطمية كانت ذات عظمة وتأثير صبغ مصر بصبغة لا تزال بقيتها الى اليوم ، ولا عجب أن كانت تسمى «دولة المصريين» . ومن آثارها الباقية مدينة القاهرة المعزية ، وباب زويلة وباب النصر والفتوح والجامع الأزهر ، وجامع الحاكم ، والجامع الأقمر (بالنحاسين) وأسباب زوال هذه الدولة ترجع الى عدة أمور منها :

اسباب سقوط
الفاطمين

(١) استهانة خلفائها بجماتها الأولين وأهل الدعوة والعصبية لها من العرب والبربر ، واستعاضتهم عنهم بماليك الترك والدَّيْلَم والسودان والأرمن والصقالبة ، مما أوقع المنافسة بين جميع هذه الطوائف وأثار بينها الحروب

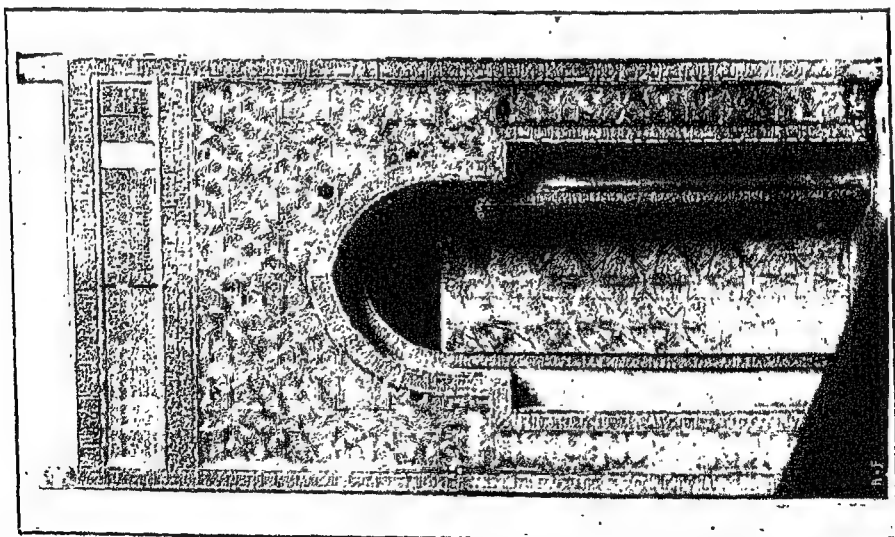


(١) الجامع الاقصر

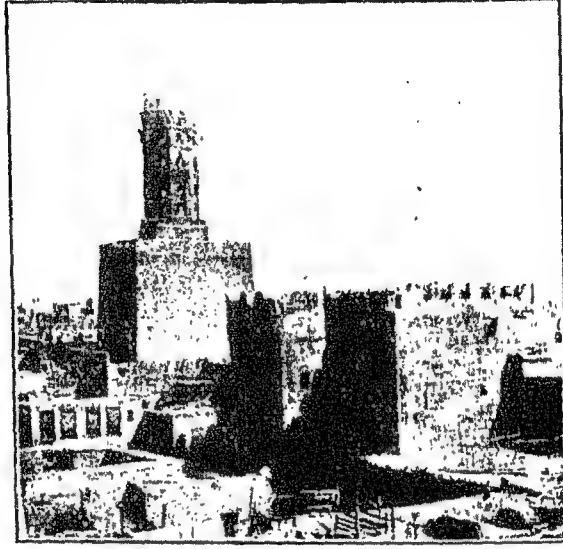
(٢) محراب من خشب من مسجد السيدة رقية

محفوظ بدار الآثار العربية

(رسم محمد افندي غنى سعودى)



الداخلية التي خربت البلاد، وأهلكت العباد، وعطّلت المرافق، وأذلت الخلفاء في قصورهم. وهي الغلطة التي غلطها العباسيون من قبلهم



(منارة جامع الحاكم وبُرجا باب الفتوح)

(٢) تهاون أهل الحل والعقد في اختيار الخلفاء الاكفاء واغضائهم على البيعة للأطفال بالخلافة، مما سهّل على الوزراء والحجّاب وأمرأ الجيوش الاستبداد بالملك، ونشأ من ذلك تحاسد أرباب الدولة وتزاحمهم على المناصب وحدثت المعارك بين أشياعهم

(٣) تغالى الفاطميين في التشيع وإحداث البدع فيه، حتى اعتلت عقائدهم، وخالفوا في بعضها جمهور المسلمين، فنفرت عنهم قلوب أهل السنة بل كثير من معتدلة الشيعة، وناذتهم الممالك المجاورة لهم وعملت على محو دولتهم، واستقلت عنهم بعض أطراف بلادهم

(٤) مصادفة خروج الصليبيين لأيام ضعفهم ، واشتداد المجاعات والطواعين في أيامهم

(٥) غفلة وزرائهم ، باستعانة بعضهم بالصليبيين على بعض ، وتكالب الصليبيين عليهم ، مما أوجب تدخل نور الدين في أمر مصر وإرساله الجيوش مع أسد الدين شيركوه وابن أخيه يوسف صلاح الدين إليها ، فقصوا على البقية الباقية من استقلالهم

الفصل السادس

كلمة

في الحضارة العربية * بالشرق

قد أشرنا فيما سبق أن جاهلية العرب كان لها بعض حضارة وعلوم مناسبة لحالة بلادها ، ولا سيما ما كان منها في اليمن وعمان والبحرين وسقي الفرات والشام . ونشرح هنا حال حضارة العرب بعد اسلامها وبسط سلطانها على أنفس ممالك العالم القديم فنقول :

﴿ الآداب ﴾

حفظت العرب بعد اسلامها لغتها وشعرها ، حرصاً على بقاء قرآنها مفهوماً ، وشرعها معلوماً . فوضعوا النحو والصرف ومثنى اللغة والبلاغة

* تقصد بالعرب هنا كل من كان لغة العرب ودينها وآدابها تأثير في طبيعته الوجودية ولو لم يكن عربى الأصل . فمثلاً حضارة الأمة المصرية في عهد المماليك عربية الصبغة

والعروض والقوافي ، وجمعوا دواوين الشعر والخطابة وأخبار جاهليتهم ،
وألّفوا فيها ألوف الألوف من الكتب والرسائل ، فخدموا بذلك لغتهم
وأدبها خدمة قلّما تُعهد في غيرها . وقد مضى على انقراض قدمائهم
وفصحائهم أكثر من اثني عشر قرناً وما زالت لغتهم تُقرأ وتُكتب بين
أكثر من مائتي ألف ألف نفس

﴿ علوم الشرائع والقوانين ﴾

ولا تقلّ براعتهم في حفظ شريعتهم وعلوم قرآنهم عن حفظ لغتهم
وأدبهم ، بل ان عنايتهم بعلوم اللغة والأدب لم تكن إلا وسيلة الى حفظ
الشريعة المستنبطة من القرآن الكريم والحديث الشريف . فوضعوا
الأصول والأقيسة لأن يستنبطوا منها ألوف الألوف من الأحكام العامة
والشخصية ، مما ملأ دور الكتب في أنحاء العالم . على ان الباقي منها ليس
إلا نقطة من بحر مما أحرّقه الصليبيون والتتار والاسبان . ويعرف المطلّع
على الشريعة أن المسامين لم يقفوا في فهم شريعتهم عند حد ما أُجمل في
قرآنهم وسنة رسولهم ، بل استعملوا ذكاءهم العظيم واجتهادهم المطلق في
استخراج ما يناسب الشعوب وأحوال الزمان والمكان ، غير مُفتاتين على
الدين ، ولا خارجين عن أصوله

﴿ العلوم الآلهية والحِكْمِيَّة ﴾

استخرج العرب أصول دينهم واعتقادهم من الكتاب والسنة ، ثم
لما دخل في الإسلام كثير من أهل الملل والنحل المختلفة ، اعتقاداً أو
خدعة ، شاع في الإسلام بعض الشبه ، خصوصاً بعد ما أطلق العباسيون

الحرية للشعوب الأعجمية ، فخرّاهم ذلك على مناوأة الإسلام ومجادلة اهله بالأقيسة والبراهين العقلية . فأمر الخليفة المهدي العباسي بوضع الكتب في علم الكلام والجدل بطريقة الاستدلال بالأدلة العقلية ، فخرّ ذلك علماء المسلمين الى مناظرتهم من جنس كلامهم ، فترجموا كتب اليونان والفرس والهنود زمن الرشيد والمأمون والواثق ، وتقلوا المنطق والفلسفة ، ومزجوا مباحثهما بمباحث علم الكلام والدين ، فنبت منهم أئمة أعلام أربوا على سقراط وافلاطون وارسططاليس . وافترقوا في ذلك عدة فرق ، أشهرهم « المعتزلة » و « أهل السنة » و « الفلاسفة »

فمن الأولى : أبو الهذيل وثمامة بن أشرس والنظام والجاحظ والجبائي ومن الثانية : أبو الحسن الأشعري والباقلاني والفخر الرازي والغزالي . ومن الثالثة : الكندي وأحمد بن الطيب وأبو زيد البلخي والفارابي وابن سينا

بعض فلاسفة
المسلمين
وأئمة دينهم

﴿ العلوم الرياضية والفلكية ﴾

أخذ العرب هذه العلوم عن الكتب اليونانية في العصر الذي لم يكن الروم سلاسل الإغريق يعرفون منها الا قليلاً . وكذلك أخذوا عن الهنود الأرقام الحسابية ، ولكنهم لم يقتصروا على القليل المنقول ، بل توسعوا في الحساب والهندسة . واخترعوا الجبر : اخترعه « محمد بن موسى الخوارزمي » ولم يُعرف منه قبلهم الامبادئ أخذت عن اليونان والهنود في استخراج القوى ، فوصل العرب فيه الى حل معادلات الدرجة الثالثة ، ووصلوا في القرن الرابع الى نهاية حساب المثلثات الكروية

علم الجبر

وعن العرب اخذت أوروبا هذه العلوم . ولا تزال أرقام حسابهم هي

الأرقام العربية . وبقاء اسم الجبر عندهم بلفظه العربى شاهد انه من عمل العرب

أما الفلك والهيئة فللعرب اليد الطولى فى تهذيبهما وتحقيق مسائلهما الفلك والهيئة فقد كان عصر المأمون والوائق وغيرهما من خلفاء بغداد والملوك التى اشتقت من الدولة العباسية عصور ازدهاء وعناية عظيمة بهما ، فنقلوا فى زمن الرشيد والمأمون كتب اليونان من القسطنطينية ، وحققوا مسائلها ، وأصلحوا خطأها . فعملت الأرصاد والأزياج الفلكية ، ورصدوا الاعتدالين الربيعى والخريفى ، وقدروا ميل منطقة فلك البروج ، وقاسوا الدرجة الأرضية ، فمسحوا الكرة الأرضية وعرفوا مقدار قطرها . ومراصدهم فى بغداد والقاهرة وغيرهما مشهورة

ونبغ فى هذه العلوم ابناء موسى بن شاكر والفرارى والحوارزمى . بعض الرياضيين والفلكيين والبلخى وأبو معشر الفلكي وثابت بن قرة وابن يونس المصرى ، ثم البتاني والبيرونى والطوسى وابن الهيثم الرياضى وكثيرون

﴿ الجغرافيا والتاريخ ﴾

وبرع العرب فى اكثر أنواع الجغرافيا ، فكُتِبَ «المسالك والممالك» الجغرافيا لا يزال منها كثير مطبوعاً فى أوربا وغيرها ، ومنها المكتبة الجغرافية الشهيرة . ووضعوا بأنفسهم جغرافيا بلادهم ، وترجموا عن بطليموس وغيره آراءهم ، فصنعوا المصورات والكرات الأرضية على المعادن والورق والجص والثياب ، وكان لهم سياحات عظيمة فى القارات القديمة . وكفى دليلاً على اهتمام العرب بأحوال الأرض وسلوكها واستعمارها ان الأوربيين لما ذهبوا

الى شرق افريقية وجنوبها والى جزائر الأوقيانوسية وجدوا العرب قد سبقوهم اليها من مئات السنين

بعض الجغرافيين ومن أشهر جغرافي العرب ابن حوقل والإصطخري وابن خردادبة

والمسعودى وأبو الفداء والشريف الإدريسي

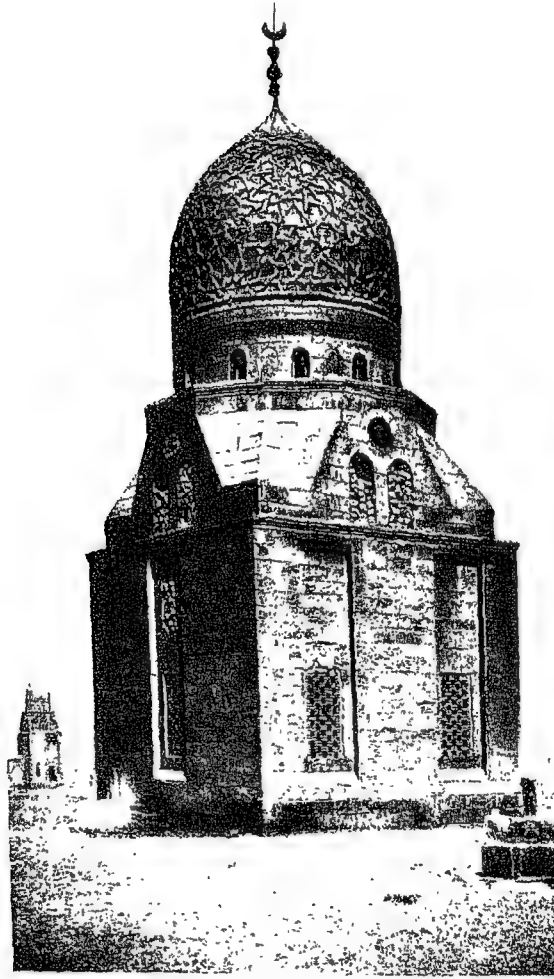
ولم تتفنن أمة فى التاريخ ما تفنن العرب ، فكتبوا تاريخ الدول ، وتاريخ الأنبياء ، وتاريخ الأفراد من العلماء والشعراء والكتّاب والوزراء والمفسرين والمحدثين ، وتاريخ البلدان فأفردوا لكل بلد تاريخاً . وكتبوا فى آخر دولهم فى فلسفة التاريخ ، فرسموا بذلك خطتها للأوربيين الذين برعوا فيها

بعض المؤرخين ومؤرخو العرب لا يُحصىون كثرة ، من أشهرهم الطبري والمسعودى وابن الأثير وابن خلكان وابن شاكر والخطيب البغدادى وابن خلدون

﴿ العلوم الطبيعية ﴾

أما العلوم الطبيعية فلا تُجحد أعمالهم العظيمة فيها ، فانهم فوق استطهارهم ما عرفوه من اليونان زادوا فيه مسائل تستحق الذكر ، فكشفوا كثيراً من قوانين تناقل الأجسام ، وجعلوا لها الجداول الدقيقة ، وقوانين الضوء ، وأظهروا براعة فائقة فى الأمور العملية الخاصة بالسوائل المتحركة (الإيدزوليك) ، مثل حفر الآبار وانشاء الخزانات وحفر الترع ووضع الأقنية والبرابنج وما شاكل ذلك ، مما لا تزال آثاره باقية فى العراق والجزيرة والشام ومصر وشمالي إفريقيا والأندلس . كما عرفوا علم السوائل الثابتة (الايدروستاتيك)

الطبيعة



قبة من حجر النحت — مثال من دقة فن العمارة العربية
(رسم محمد افندي علي سعودي)

ولا ينكر الأوريون أن علم الكيمياء الحقيقى هو من نتائج بحث
العرب وتجاربهم. ويسمى العرب الكيمياء الحديثة « صنعة جابر » (جابر
ابن حيان) ، إشارة الى ان جابر هو الذى زاو لها وكشف مفرداتها ومركبها .
واكثر إطلاقا لفظ « الكيمياء » اليونانى عندهم كان على الكيمياء الكاذبة
التي نقلوها عن اليونان ، وهى استخراج الذهب من غير معدنه . وهم
الكاشفون لزيت الزاج والماء الملوكى وروح النشادر والزاج الأخضر
وحجر جهنم والراسب الأحمر والغول (الكحول) وملح البارود وملح
الطرطير والسليمانى والزرنيج . وهم المهتدون لأكثر طرق الترشيح والتقطير
والإذابة والتصفيد . نعم ان الأوربيين كشفوا العناصر البسيطة ، واستنبطوا
التقسيم والتحليل والتركيب باعتبار الذرات ، فسهلوا دراسة هذا العلم وطرق
الاختراع ، الآن ذلك لا يمنعنا من الاعتراف بأن الفضل للمتقدم .
ومن أشهر الكيميائيين جابر والكندى والرأزى

أما الطب فأخذوه عن اليونان والهنود ثم زادوه بتجاربههم وبحوثهم
فهم أول من استعمل أغلب السكاويات المعروفة الآن ، وأول من اشتغل
بعلاج الجذام والحصبة والجذري وأول من كشف عملية قذح العين
(الكتركتا) ، وأول من استعمل السكر فى الأدوية بدل العسل ، وأول
من وصف الأمراض الجلدية الدورية وصفاً علمياً . ولئن كانت الجراحة
عندهم ليست فى التقدم على ما هى عليه الآن لإحجامهم كثيراً عن تشريح
الآدميين لقد وضعوا فيها كثيراً من آلات وحسنوا أخرى
ولم يكن علمهم بالنبات وخواصه وعلم العقاقير والصيدلة أقل منه
بالكيمياء

وقد أداهم نشاطهم وإقدامهم الى الوصول الى معظم الحيل (الميكانيكا) المستخدمة الآن في أصعب الصناعات . والعرب هم المخترعون للرقاص (البندول) وبيت الإبرة (البوصلة)

﴿ الصناعة ﴾

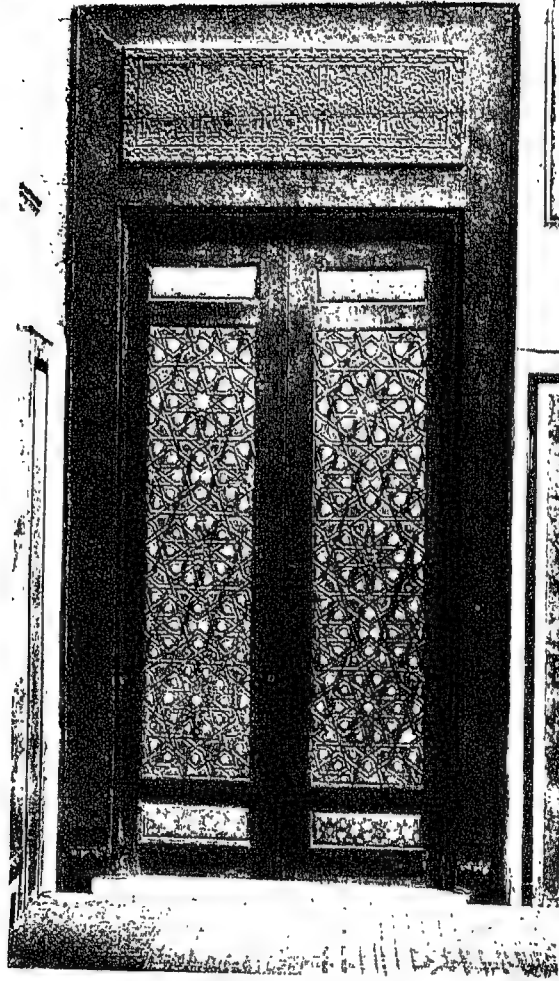
وللعرب فضل عظيم في تقدّم الفنون الصناعية ، فتفننوا في صناعة المعادن ، وبرعوا في طلاؤها بالمينا ، وعالجوا عمل الصلب الصناعي . ولم تعرف الدنيا في تلك الأزمان سيوفًا تفوق سيوف دمشق ، ولا نحّاسين فاقوا نحّاسي بغداد ، ولا صاغة خيراً من صاغة عُمان ، ولا نسّاجاً أحذق من نسّاج تينيس . ونجارتهم العربية الدقيقة لا تزال موضوع تنافس الأوربيين في اقتنائها . ونشاهدتها في الأبواب والمنابر والمشربات . وهم الذين أدخلوا صناعة الحرير والقطن والورق بأوروبا

﴿ التجارة ﴾

أما تقدمهم في التجارة فلا تزال آثاره شاخصة الى الآن ، فتجارة أواسط أفريقية بيد العرب . وكانت قوافلهم تصل في الشمال الى الأصقاع القطبية : يدل على ذلك ما وُجد من آثارهم ودنانيرهم فيها . وسفنهم تبلغ الصين واليابان والأوقيانوسية قبل كشف البخار بأكثر من ألف سنة

﴿ فن العمارة ﴾

تقل العرب أكثر فن العمارة من مباني البوزنطيين والفرس ، ولكنهم ما لبثوا ان غيروا فيها تغييراً ممتازوا به كما امتازوا في غيره . فهم المخترعون



مثال من دقة فن النجارة العربية

(رسم محمد افندي على سعودي)

للعقود ذات الزوايا . ومما أكسب المباني العربية جمالاً ورونقاً القباب
الشاحخة المزينة ، والمنارات الشاهقة ، والأبواب العالية مع صغر المدخل ،
ثم رونق النقوش والزخرفة العربية ، مما سنده

﴿ الفنون الجميلة ﴾

لما كان من المحرم أو المكروه عند المسلمين تصوير الأحياء وجهاً الرسم والزخرفة
عنايتهم الى إبداع رسوم جميلة خالية منها ، مكوّنة من أشكال نباتية غير
حقيقية متداخل بعضها في بعض ، وأشكال هندسية مركبة من خطوط
مستقيمة ومنحنية . فكانت أبدع ما صنع الإنسان
ومن أهم ما استعانوا به في الزخرفة أيضاً تأليف الألوان وكتابة آي
القرآن الحكيم بأنواع الخطوط الكوفية والثُلُثِيَّة المختلفة الأشكال ،
وصناعة الفُسَيْفِساء والخَزَف المِطْلِي (القاشاني) والزجاج الملوّن ، والزخرفة
بالجِص . ومبانيهم بالقاهرة والشام والاندلس ورسومهم في جلود الكتب
أوضح دليل على نبغهم في ذلك

الموسيقى

وبالرغم من تحريم دينهم العكوف على المِلاهي وعزف آلات الطرب
لم يقصروا في إجادة فن الموسيقى إجادة جعلت الموسيقى العربية ضرباً
مستقلاً متميزاً بزايا جميلة . وآلاتهم الموسيقية على خشوتها وسذاجتها
تأتى من النغم بما هو جدير بالإعجاب ، بل منها ما لم يستطع الأوروبيون
أن يحاكيوه في تميم أجزاء النغم . وكان لعصر الرشيد والأمين والمأمون
والوائق والمتوكل أثر عظيم في تقدم صناعة الغناء والموسيقى عندهم
وجملة القول ان علوم العرب وآدابهم وفنونهم هي الحلقة الموصلة بين

حضارة الأقدمين والحضارة الحديثة . ومما يلاحظ ان ما كانوا ينشرونه من التمدن في البلاد التي يفتتحونها يبق وراءهم فيها زمناً طويلاً . وللعرب الفضل (بالذات أو الواسطة) في إحياء العلوم والفلسفة في أوروبا : أخذت ذلك عنهم شرقاً أثناء الحروب الصليبية وغرباً من الأندلس . وللعرب من كرم الأخلاق ، ورقة العواطف ، والرحمة ، والرفق بالحيوان ، نصيب لم يقل عن أنصباء الأمم الفاضلة

فصل السابع

الدولة الأيوبية

٥٦٧ — ٦٤٨ هـ (١١٧١ — ١٢٥٠ م)

(١) صلاح الدين الأيوبي

هو « الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب » مؤسس الدولة الأيوبية الكردية . ولد بتكريت من بلاد الكرد سنة ٥٣٢ هـ (١١٣٧ — ٨ م) والتحق بخدمة « نور الدين » أسوةً بأبيه وعمه . فبقى خاملاً الى الخامسة والعشرين من عمره ، شديد الميل الى الانزواء والعزلة . ثم رافق عمه « شيركوه » في الحملتين الأوليين الى مصر سنتي ٥٥٩ و ٥٦٢ هـ (١١٦٤ — ١١٦٧ م) فكان له في موقعة « البابين » وفي الدفاع عن الاسكندرية ما اشتهر امره ولم يرافقه في الحملة الثالثة إلا بعد إحجام واعتذار (لمظلم مالاقي في حصار الاسكندرية) مع ان هذه الخرجة كانت فاتحة لتأسيس مملكة

منشؤه

وتكوين مجده . وربما لم يُقلِّده المصريون منصب الوزارة في مصر بعد
عمّه الا لما كان يدلّ عليه ظاهره من سهولة اتقياده

ولى « صلاح الدين » وزارة مصر سنة ٥٦٤ هـ (١١٦٩ م) فقام بها
أحسن قيام . ولما رأى انه صار وزيراً للخليفة الفاطمى الشيعى وعاملاً
لنور الدين صاحب دمشق السنّى فى وقت واحد ، دعا لهما معاً فى الخطبة
وبذلك مهّد الطريق للقضاء على ما بقى من السلطان للخليفة الفاطمى .
وعمل على استجلاب محبة أهل مصر ليشتدّ بهم ازره فى الانسلاخ من
« نور الدين » ، وفى التغلّب على الفاطميين وتكوين دولة مستقلة له بمصر ،
ف عزل من المناصب الكبيرة من يخشاهم من المتشيعين للعاضد ونصب
مكائهم اخوته ووالده . وثار عليه جند الخليفة السودان وكتبوا الصليبيين
يستنصر ونهم ، فعجل صلاح الدين باخذ ثورتهم وطردهم الى الصعيد . ثم
أغار الصليبيون على « دمياط » فاسرع الى صدّهم فرجعوا خائبين الى بيت
المقدس . فكان ذلك ابتداء طور جديد فى تاريخ النزاع بين مصر والفرنج ،
فبعد ان كانوا يوالون الغارات على مصر فى عهد الفاطمية أصبحوا ولا حيلة
لهم الا الدفاع عن إمارة بيت المقدس . اذ قد أتبع صلاح الدين هذا
الفوز باغارة على « فلسطين » غنم بها مغنم كثيرة فاحبّه الناس وأحلّوه
فى قلوبهم محل المدافع عن الدين الآخذ بناصره . ولذلك لم يجد صعوبة فى
حذف اسم الخليفة الفاطمى العاضد من الخطبة والدعاء للخليفة العباسى
مكانه . وكان « العاضد » قد احتجب فى قصره منذ قدوم صلاح الدين ،
وكان عند حذف اسمه فى مرض الموت فجُلس عنه الخبر حتى مات . ولم
يأخذ صلاح الدين لنفسه شيئاً من خزائنه ونفائسه بل أرسل جانباً منها

تقلده وزارة
مصر وانقراض
الفاطميين

الى « نور الدين » واهدى بعض خزانة الكتب الى وزيره « القاضى
الفاضل » وباع الباقي على ذمة بيت المال . ولم يتخذ لنفسه قصرًا من قصور
الخلفاء ، بل بقى بمنزله وأنزل القصور رؤساء جيشه ، فبانت تلك القصور
الجميلة بعيدة عن عناية الملوك ، وتسرب اليها الخراب حتى لم يبق لها
أثر الآن

ويمكن تقسيم ما بقى من سيرة « صلاح الدين » الى ثلاثة اطوار :
(١) تحصينه لمصر وتوطيد ملكه فيها

لما أن تمَّ الأمر لصلاح الدين أخذ في تحصين مصر ليأمن شرَّ
غارة الأعداء ، فعزم على بناء سور عظيم يضمّ القسطنطينية والعسكر والقطائع
والقاهرة وتشيد قلعة منيعة على جبل المقطم تشرف على الجميع ، فبدأ في
بناء السور ولكنه لم يتم قط

طور تحصين
مصر

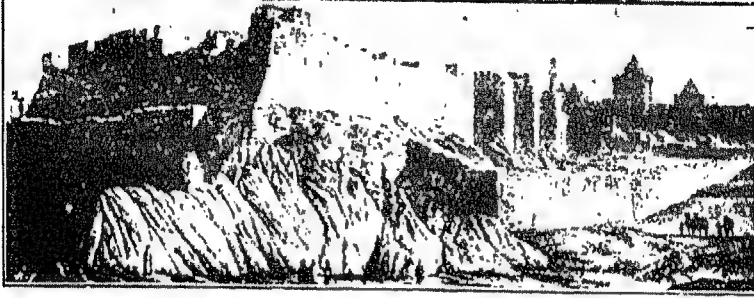
وأرسل « صلاح الدين » عدة جيوش الى البلاد المجاورة لمصر ،
قيل : كان الغرض منها حفظ مكان تتراجع اليه جيوشه اذا طاردها
الصلبيون أو نور الدين نفسه (وقد كان صلاح الدين لم يُبق له سوى
سيادة اسمية خنق عليه) ، فوجه احد هذه الجيوش الى سواحل افريقية
الشمالية ، والثانى الى السودان والثالث الى بلاد العرب حيث أخضع اخوه
جميع بلاد اليمن وأسس بها دولة حكمت هنالك نحو خمس وخمسين سنة
ثم تأمر جماعة الشيعة بمصر على الوثوب بصلاح الدين ، فلم يفلحوا
وفتك بزعمائهم . وكان الفرنج قد عزموا على مساعدة الثائرين ، فهاجموا
الاسكندرية باسطول من « صقلية » أواخر سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٤ م)
فرّدوا عنها بالفشل

وفي هذه السنة مات « نور الدين » ، فخلاً لصلاح الدين الجوّ ، وفاة نور الدين وعمد الى بسط نفوذه على جميع الممالك الإسلامية وتكوين دولة واحدة عظيمة منها ، حتى اذا توحّدت كلمة المسلمين عمل على استئصال شأفة الصليبيين من الشرق

(٢) توسيع نطاق دولته

ترك « نور الدين » ملكه لطفل صغير ، فاستحوذ على السلطة نفر من الأمراء . فاتهم صلاح الدين هذه الفرصة وذهب الى « دمشق » وملكها باسم ابن سيده نور الدين . ثم سار الى « حلب » فأقفلت أبوابها في وجهه ، وأرسل صاحب الموصل (ابن أخى نور الدين) جيشاً لينضم الى جيش حلب ، فسار الجميع للقاء صلاح الدين ، فانتصر عليهم انتصاراً باهراً بجهة « قُرُون حَمَاة » سنة ٥٧٠ هـ (١١٧٥ م) . وانتصر في موقعة اخرى في السنة التالية ، فاعترف له بالسيادة على جميع انحاء الشام من مصر الى قرب الفرات

ثم قضى « صلاح الدين » ست سنين (من ١١٧٧ الى ١١٨٢ م) قلعة الجبل في ضبط نظام املاكه ومواصلة تحصين القاهرة . فبدأ في سنة ٥٧٣ هـ (١١٧٧ م) بناء « قلعة الجبل » على سفح المقطم ، وبنى فيها قصراً لسكنه ، وحفر فيها بئراً عميقة تعرف الآن ببئر يوسف أو « الخازون » . ولم يتمّ بناء القلعة الا بعد موته . وقد عدّل بناؤها وزيد عليه بعد أيامه مراراً حتى أخذت شكلها الحالى في عهد المرحوم « محمد على باشا » رأس الأسرة العلوية الكريمة . ولا يزال جزء من بناء صلاح الدين باقياً بها الى الآن



(القلعة قبل عهد محمد علي باشا)

وبذل صلاح الدين عنايته في هذه المدة أيضاً باصلاح أعمال الري ونموها بمصر ، واكثر من انشاء المدارس لنشر مذهب الامام الشافعي ومحو مذهب الشيعة من مصر . ولم يمسك اثناء ذلك عن الحرب جملة ، بل حدثت بينه وبين الفرنج بعض مناوشات رجع منها الى القاهرة بكثير من الأسرى سخرهم في بناء القلعة

وما زال يعمل على توحيد كلمة المسلمين وبسط نفوذه عليهم ، حتى لم تأت سنة ٥٨٢ هـ (١١٨٦ م) إلا وقد ضم الى دولته شمالي العراق وبلاد الكردستان . وبذلك تم له ما أراد ، وصار امراء المسلمين من كل جانب رهن اشارته ، يمدونه بالخيول والرجل اذا قام بدعوتهم الى حرب دينية لسحق الصليبيين وإعلاء كلمة الإسلام

(٣) صلاح الدين والصليبيون

كانت بين صلاح الدين والصليبيين هدنة في هذه المدة ، ولكنها كانت هدنة ظاهرة فكان كلا الفريقين في اثنائها ساهراً على الاستعداد للحرب للأخذ بناصر دينه . وقامت باوروبا نهضة جديدة لتأييد المسيحيين

بالشام ، ولم يبقَ إلا ظهور شرارة صغيرة تلهب بها نيران حرب دينية عظيمة . فأوقد هذه الشرارة القيم على ملك بيت المقدس (وكان ملكها طفلاً صغيراً) بتعرضه لاحدى قوافل صلاح الدين وسلبها ، فنشبت الحرب ودامت خمس سنوات (٥٨٣ - ٥٨٨ : ١١٨٧ هـ - ١١٩٢ م)

واكتسح صلاح الدين في أول الأمر كل شيء أمامه فقهروا جيوش مرونة حطين بإمارة بيت المقدس في موقعة فاصلة بجهة « حِطِّين » لم يُنكب الصليبيون منذ خرجوا الى الشام بمثلها . ثم توغل في فلسطين ، ففتح « عسقلان » وكثيراً من الحصون والمعازل وفادى أسراها بالمال ومبادلة الرجال ، فأنحازت طائفة منهم الى « بيت المقدس » وطائفة الى « صور » . ورأى صلاح الدين ان الفرصة قد حانت لاستنقاذ بيت المقدس فنزل عليه بجيوشه في منتصف رجب (سنة ٥٨٣ هـ : ١١٨٧ م) ، وكان محصناً تحصيناً منيعاً ، فدافع الفرنج مستبسلين ، وجدّ المسلمون في الزحف فاجتازوا الخنادق وتقبوا الأسوار ، ولما رأى الفرنج انهم أشرفوا على الهلاك اتفقوا مع صلاح الدين أن يساموا اليه المدينة ويخرجوا منها بأموالهم وأولادهم وأثقالهم نظير فدية بضعة دنانير على كل انسان ، فقبل ذلك صلاح الدين ولم يعاملهم بمثل ما عاملوا به المسلمون عندما فتحوه زمن الفاطمية من الفظائع . وفي سنة ٥٨٤ هـ (١١٨٨ م) هادن صاحب « انطاكية » وفتح « الكرك » وجميع مدن الساحل شمالي « صور » . وفي سنة ١١٨٩ م لم يبقَ بأيدي الصليبيين سوى « صور » و « بَلْفُرت » * . وقضت مكارم صلاح الدين أن يسمح لحامية البلاد التي فتحها بالتراجع الى « صور » بعد ان أقسموا

* وتسمى في كتب العرب « شَقِيف أَرْنُون » : كانت قلعة بين دمشق والساحل

له أن لا يجردوا عليه سيفاً ، ولكنهم تجمعوا هنالك وكونوا قوة جديدة ،
ثم حملوا عليه

فبدؤوا بحصار « عكّا » ، وساق صلاح الدين عليهم جيشاً ليحاصرهم
سنة ٥٨٥ هـ (١١٨٩ م) . وبقي الحال كذلك سنة ونصفاً الى أن أتى
« فلب » ملك فرنسا و « ريكارد قلب الأسد » ملك الانجليز بمدد كبير
لالصليبيين ، فسامت لهم المدينة سنة ٥٨٧ هـ (١١٩١ م) . ثم وقع الخصاص
بين الصليبيين أنفسهم ، فتسرّب اليهم الفشل وعاد « فلب » الى بلاده .
وسار « ريكارد » الى « بيت المقدس » فلم يستطع الاستيلاء عليها . وكان
الفريقان قد سئما القتال وشرعا يتخبران في الصلح . وفي سنة ٥٨٨ هـ
(١١٩٢ م) أصاب « ريكارد » مرض ، وحدثت في بلاده أمور تستدعي
عودته ، فعقد صلحاً بجهة « الرملة » مع صلاح الدين على أن يبقى الساحل
بين « صور » و « يافا » بأيدي الصليبيين ، وأن يُسمح للمسيحيين بحج
البيت المقدس بلا ضريبة

نتائج حروب
صلاح الدين

هذه هي نتيجة الحرب التي قام بها صلاح الدين على الصليبيين مدة
خمس سنوات . فبعد ان كان المسلمون لا يملكون قبل موقعة « حطين »
في سنة ١١٨٧ م شبراً من الأرض غرب نهر « الأزدن » أصبحوا بعد
معاهدة « الرملة » (سنة ١١٩٢ م) يملكون جميع البلاد عدا ساحل ضيق
يمتد بين صور ويافا . رأى صلاح الدين كل ذلك ، ورأى انه قد وحد
كلمة المسلمين ما بين صحراء لوية وجبال الكردستان ، ونصر بهم الاسلام ،
فطاب خاطره وتم له ما أراد . وكانت قد أنهكت صحته الحروب المستمرة
فأصيب بحمى وتوفي بدمشق سنة ٥٨٩ هـ (١١٩٣ م)

صفت
صلاح الدين ويعتبر صلاح الدين من أعظم رجال التاريخ ، فقد كان قائداً عظيماً
وسائلاً محنكاً جمع بين الشجاعة والمروءة وعلو الهمة ، وبين الشدة
والتواضع والتقوى والزهد والورع والعدل والرحمة . وكان الفرنج يُعجبون
بأخلاقه ويمدونه مثل الشهامة الشرقية . وفي مقدمتهم في ذلك « ريكارد »
ملك الانجليز الملقب بقلب الأسد ، فإنه وإن لم يقابله قط كان يعجب
بشهامته كل الإعجاب

بعض اعوان
صلاح الدين وقد ساعد صلاح الدين في ادارة شؤون دولته الشاسعة جماعة من
النبغاء ليسوا بالقليل ، منهم والده (وهو صاحب الفضل في تمكين العلاقة
بينه وبين نور الدين) ، ومنهم أخوه « العادل » ، ووزيره « بهاء الدين
قراقوش » ، ووزيره « القاضي الفاضل » عبد الرحيم اليبساني صاحب اليد
الطولى في الأدب والحكمة ، ثم « عماد الدين » الكاتب وكانت له شهرة
فائقة في البلاغة

(ب) خلفاء صلاح الدين من الأيوبيين

لما توفي صلاح الدين تولى أولاده حكم الثلاثة الأعمال العظيمة من
دولته وهي دمشق وحلب ومصر . وتولى الأعمال الأخرى العادل وبنو أخوته
العزیز نخلفه في مصر ابنه السلطان الملك « العزيز » عماد الدين ، إلا أنه
حدثت بينه وبين أخيه « الأفضل » ملك دمشق منازعات وحروب
اتهمت بنفي الأفضل عن دمشق وتولاها « العادل » سيف الدين أخو
صلاح الدين الذي كان وقتئذ حاكماً على الجزيرة . وكان « العادل » من
أكثر الناس سياسة وحزمًا ، فبعد أن قبض على أزمة الأمور بدمشق

أسرع لتنظيم شؤون أملاكه بالجزيرة، فدانت له جميع البلاد السورية .
والجزرية . ثم مات « العزيز » سنة ٥٩٥ هـ (١١٩٨ م) ، فحضر « العادل »
الى مصر وتغلب على ابني صلاح الدين وعزل « المنصور » بن العزيز من
مصر (وكان طفلاً صغيراً) وتولى هو ملكها . ودانت له معظم دولة
صلاح الدين (٥٩٦ هـ : ١٢٠٠ م) ، وصارت مصر صاحبة الشأن الأكبر
في هذه الدولة . ووقع بمصر في زمنه (٥٩٧ — ٥٩٩ هـ : ١٢٠١ — ٢ م)
حقت شديد ثم وباء عظيم أضعفا شأن المملكة . إلا أن « العادل » لم يفتقر
عن توطيد دعائم ملكه ، وجمع كلمة المسلمين وجعلهم يداً واحدة ليستعين
بهم على استئصال شأفة الصليبيين

المنصور

العادل

وكان الصليبيون أثناء اشتغال العادل بتثبيت ملكه بالشام قد
جاءتهم امداد من ألمانيا سنة ٥٩٣ هـ : ١١٩٧ م ، وأرادوا أن ينتهزوا فرصة
تفرق المسلمين للاستيلاء على بيت المقدس ، فانتصروا على العادل واخذوا
منه « بيروت » . ولكنهم تفرقوا بعد ذلك وعقد العادل معهم صلحاً بالتنازل
لهم عن « يافا » و « الرملة » اعتقاداً منه أن الصالح خير له لتعزيز قوته .
وفي سنة ٦٠٥ هـ (١٢٠٨ م) منح « العادل » أهل مدينة « البندقيّة »
مزايا تجارية بالنيل وبالإسكندرية نظير تعهدهم بمساعدته على صد غارات
الصليبيين على مصر

وفي سنة ٦١٤ هـ (١٢١٨ م) نهض الصليبيون نهضة جديدة ، وبدا
لهم أن يحولوا رجلي الحرب الى مصر قلب دولة المسلمين ، فقصدوا « دمياط »
وكانت حصينة ، فملكوها بعد قتال شديد . وكان العادل في الشام فمات
في رجوعه كدأ عليها . وكان العادل من أنبل الناس وأكبرهم حرصاً على

الاسلام : خدم صلاح الدين باخلاص نحو ٢٥ سنة (من ١١٦٨ الى ١١٩٣ م) وجمع كلمة دولته بعد موته ، فكان اكبر واقف بعده في وجه الصليبيين

ثم تولى السلطان الملك « الكامل » (٦١٥ — ٦٣٥ هـ : ١٢١٨ — الكامل
١٢٣٨ م) ، فعمل على طرد الصليبيين من دمياط قاتلهم عليها ليلاً ونهاراً ،
إلا أنه وصلت اليهم امداد جديدة كثيرة ، فعرض عليهم الصلح على ان
يرد اليهم إمارة بيت المقدس كما كانت قبل الحرب التي شنها عليهم
صلاح الدين في سنة ١١٨٧ م نظير جلائهم عن دمياط ، فاغراهم البابا
برفض هذا العطاء الجليل ، فكان نصيبهم الفشل بعد ذلك . فإن اختلافهم
وجهاهم حال البلاد الجغرافية حالا دون تقدمهم . ولما شرعوا في الزحف نحو
القاهرة في شهر يولييه سنة ١٢٢١ م اعترضتهم الترع من كل جانب واضطروا
الى محاربة المساميت بمكان كان قد حصّنه الكامل بالقرب من المنصورة
وجمع اليه الجيوش والامراء من جميع انحاء الدولة الأيوبية . ولما علا النيل
هدم المسلمون السدود ، فانطلقت المياه على موقع الأعداء وأحاطت بهم
من جميع الجهات ، ولم يبق لهم منفذ سوى ممر ضيق يفرون منه الى
دمياط . وبينما هم يهيمون بالفرار ليلاً انقض عليهم المسلمون من كل جانب
وأخذوا يحصدونهم حصداً . ثم أمر الكامل أن يكفّوا عنهم ، وأطلق
سراحهم بعد ان عاهدوه على أن يخلوا دمياط ويحلوا عن الديار المصرية ،
وان لا يجردوا على المسلمين سيفاً مدة ثمانى سنوات . فخلوا عن مصر في
شهر سبتمبر سنة ١٢٢١ م (٦١٨ هـ) بعد أن قضوا فيها أربعين هلالاً
وفي سنة ٦٢٥ هـ (١٢٢٨ م) خرج الإمبراطور « فريديك الثاني »
من اوربا في بضع مائة من الفرسان يطالب بملك إمارة بيت المقدس ، وكان

على وشك الخروج مع جيوش أوربية ، إلا أنه أغضب البابا وغيره من أولى الشأن من المسيحيين لاستقلاله عنهم في الرأي فتركوه يخرج وحده لجهاد المسلمين . وكان « فردريك » قليل التعصب الديني يميل الى المسلمين حتى ظن البابا انه دخل في دينهم . وكان « الكامل » قد خشي ازدياد قوة اخيه « المعظم » صاحب دمشق ، فعقد محالفة مع « فردريك » على ان يتنازل له عن بيت المقدس وعن طرق حجاجه المؤدية الى عكا ويافا ، وان يطلق سراح الأسرى من الفرنج ، ويقوم فردريك نظير ذلك بمساعدته على رد كل مهاجم ولو كان مسيحياً ، وان يمنع المدد عن أمراء الصليبيين الآخرين في الشام مدة عشر سنين ونصف . فاخذ « فردريك » بيت المقدس بلا ضرب ولا قتال ، فعد المسلمون ذلك من أشنع غلطات الكامل ، فان طعمه في بلاد إخوته واقاربه وشفاء غل صدره منهم حمله على التنازل عن بيت المقدس وهو بيت القصيد من كل هذه الحروب الشعواء التي أريقت فيها دماء مئات الالوف من الطائفتين . وبمهادنة الكامل لفردريك وحد قواه لا تنزع املاك أقاربه حتى تمت له السيادة على جميعها ، ولم يبق له منازع من آل ايوب . وعاش نحو تسع سنين لم يحارب فيها احداً من الصليبيين . وآخر عهده بالحروب انه خرج سنة ٦٣٥ هـ (١٢٣٧ م) للاستيلاء على دمشق فتم له النصر ، الا انه مات بعد الواقعة بقليل على أثر تعرضه للبرد في ميدان القتال . فعاد النزاع بين ملوك بني أيوب الى أشد ما كان عليه في اقتسام البلاد

وكان « الكامل » يحسن الإدارة والسياسة ، ولا يفتر عن العمل . وتقدمت مصر في عهده كثيراً بفضل ما قام به من الأعمال لإصلاح

الرى وتحسين حال الزراعة . وأتمَّ « الكامل » بناء قلعة صلاح الدين ،
وأسس كثيرا من المعاهد العلمية . وكان كعظم أفراد أسرته يحب العلم
والعلماء ويجلس اليهم في ليالى الجمعة لسماع حديثهم والمناقشة معهم
نخلفه ابنه السلطان الملك « العادل » سيف الدين أبو بكر الثانى
فاشتغل باللوعن التدبير ، فانكر الأمراء ذلك وخلعوه بعد سنتين
وولى اخوه السلطان « الملك الصالح » ايوب سنة ٦٣٧ هـ (١٢٣٩ م)
فكان من خيرة السلاطين : دبر المملكة أحسن تدبير ، وأخذ الفتن .
وبنى قلعة الروضة (بجزيرة الروضة) ، ونزلها وحشد فيها الممالك من الترك
وبالغ في شرائهم (فكان ذلك من أكبر غلطاته ، فانهم سلبوا الملك من
أولاده كما سلبوه من أولاد المعتصم العباسى) . وكان عمه « الصالح اسماعيل »
من أكبر أعدائه ، فانه استولى على دمشق واتحد مع الصليبيين وتنازل لهم
عن بعض المواقع ، فاستعان « الصالح ايوب » بقبائل الخوارزمية وهزم
الأعداء واعاد « بيت المقدس » للمسلمين سنة ٦٤٢ هـ : سبتمبر سنة ١٢٤٤ م
وما زال ملكاً لهم الى الآن ، واسترد أيضاً دمشق سنة ٦٤٣ هـ : ١٢٤٥ م
وعسقلان سنة ٦٤٥ (١٢٤٧ م) ، ورجعت دولته الى ما كانت عليه فى
عهد جده . وفى آخر مدته (٦٤٧ هـ : ١٢٤٩ م) نزل الصليبيون فى أكثر
من مائة الف الى « دمياط » فلكوها بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا
وكان من أبطال الصليبيين . فربط الملك الصالح بالمنصورة ومرض مرض
الموت ، فأرسلت سُرِيَّتَه السيدة أم خليل « شجرة الدر » الى ولده « توران
شاه » بالجزيرة تستدعيه . ومات الصالح فأخفت السيدة موته واصدرت
الأوامر بما يشبه توقيعه ، وجمعت قواد الجيش وارباب الدولة وزعمت أن

السلطان يأمرهم بالبيعة لولده توران شاه ففعلوا . ووقع الفرنج في نفس الخطأ الذي وقعوا فيه في عهد « الكامل » ، فانهم بدل أن يأتوا مصر من طريق صحراء سيناء مارين بالفرمان شأن الفاتحين قبلهم أتوها من طريق دمياط والمنصورة حيث تعترضهم الترع والخلجان ، فزحفوا على المنصورة سنة ٦٤٨هـ :

توران شاه

١٢٥٠ م وكادوا يملكونها ، فحضر « توران شاه » وقت اشتباك الحرب ، فقاتل الفرنج ودارت عساكره حولهم فاستولى على أكثر مراكبهم وأخذتهم السيوف من كل جانب وقتل منهم نحو ٣٠ ألفاً ، وغرق كثير في النيل وأسروا ملكهم « لويس التاسع » وسجن في دار ابن لقمان (ولا تزال باقية بالمنصورة إلى الآن) ، ثم فدى نفسه وبقيّة أهله وعساكره بمبلغ ١٠٠٠٠٠٠٠٠ فرنك وخرج من دمياط . وكانت واقعة المنصورة سنة ٦٤٨هـ (١٢٥٠ م) ، وتعتبر من الوقائع الفاصلة بين المسلمين والصليبيين . وكان الملك الصالح من أعظم بني أيوب ملكاً وأحزمهم أمراً وأكثرهم عمارة وأشدّهم استقلالاً بالدولة ولما ولي السلطان الملك المعظم « توران شاه » وفرغ من الصليبيين طالب السيدة بمال أبيه وتهنّدها وتهدّد المماليك ، فقتلوه بعد سبعين يوماً من ملكه ، وولّوا مكانه الملكة أم خليل « شجرة الدر » . ولم يل المسلمين امرأة قبلها ، فأقامت في المملكة ثلاثة أشهر وعزلت نفسها . واتفق المماليك أن يولّوا « الأشرف موسى » من بيت الملك ، فلّكوه وعمره ٨ سنوات ، وجعلوا « عز الدين أيبك التتر كمانى » أحد مماليك الصالح قيماً عليه ، وتزوج شجرة الدر ولم يلبث أن خلع الأشرف واستبد بالملك ، وانتهت دولة آل أيوب من مصر . وبقيت دول منهم بالشام دخلوا بعد في طاعة المماليك مع نوع استقلال

شجرة الدر

﴿ مزايا الدولة الأيوبية ﴾

وأسباب سقوطها

كانت الدولة الأيوبية دولة فتح وجهاد من مبدئها الى منتهائها .
فمؤسسها صلاح الدين وآخرها توران شاه كملت حياتهما بالانتصار الباهر
على الصليبيين ، وكان بينهما ملوك لم يقصروا عنهما في رد غاراتهم ، فكان
هذه الدولة وجدت لتكون عقبة في سبيل تغلب أوربا على الشرق أو
لتأخير ذلك أكثر من ستمائة سنة وعوده بشكل آخر ، وكأنها كانت
برفقها وقلة تعصبها ووفائها استاذاً ناصحاً أرشداً خلاف الصليبيين الى حسن
معاملة البشر والتظاهر بالتسامح الديني ونبتد التعصب الوحشي الذميم
وتنقض العهود والغدر القبيح . ولولا وقوف الدولة الأيوبية في وجه أوربا
المسيحية (المتعصبة في ذلك الوقت) لاتقرض الإسلام من جميع بقاع
الشام والجزيرة ومصر وشمالي أفريقية كما اتقرض من الاندلس . والفضل
في ذلك للواقعيتين الفاصلتين اللتين قامت بهما هذه الدولة ، وهما واقعة
حِطِّين (وبطلانها صلاح الدين) وواقعة المنصورة (وبطلانها توران شاه) .
وكان أكثر عمارات الدولة ومصانعها الضخمة هي القلاع والحصون التي
منها قلعة الجبل بالقاهرة ، وأسوارها المنيعة ، ويليها أبنية المدارس للشافعية
والمالكية . وأخلد عمل قامت به فوق ذلك نسخ مذهب غلاة الشيعة من
مصر والشام ونشر مذهب الامام الشافعي وعلوم السنة فيها . وقد تقدمت
البلاد في عهدهم باهتمامهم بالزراعة وسهرهم على نشر العدل وتوطيد النظام
وأسباب سقوط هذه الدولة ترجع الى عدة أمور منها :

- (١) تقسيم صلاح الدين المملكة العظيمة التي افتتحها بين أولاده
واخوته وأقاربه ، فأوجب تنافسهم وتحاسدهم وتباغضهم وتعدي بعضهم
على بعض ، فتفككت عصبيتهم وأصبح بأسهم بينهم شديداً
(٢) العهد بالملك الى الصغار منهم ، مما أوجب اقامة أوصياء عليهم
من أقوياء رؤساء الجند والوزراء
(٣) الاستكثار من اتخاذ المماليك التركية أنصاراً وأعواناً وتنازلهم لهم
عن كل شيء في الدولة حتى تدبير القصر ، وتغاليهم في جلب هؤلاء وهجر
الأكراد أصول الدولة والعرب اهل البلاد

الفصل الثامن

دولتنا المماليك

٦٤٨ — ٩٢٢ هـ (١٢٥٠ — ١٥١٧ م)

(١) — دولة المماليك البحرية

٦٤٨ — ٧٨٤ هـ (١٢٥٠ — ١٣٨٢ م)

منشأ المماليك انقضت الدولة الأيوبية بقتل « توران شاه » ودخلت مصر بعدها
في حوزة ممالك هذه الدولة . وكان خلفاء الدولة المباسية قبلهم قد
اعتادوا استخدام عدد كبير من المماليك في الجند والحرس ليحتموا بهم من
قبائل العرب وبخاصة أنصار العلويين والأمويين منهم ، وليخضعوا بهم
حكام الاقاليم اذا استفحل أمرهم . فأخذت قوة هؤلاء المماليك تزداد شيئاً
فشيئاً حتى صاروا بالنسبة الى الخلفاء أقرب الى السجان منهم الى الحراس

واقتمدى بالعباسيين نور الدين وصلاح الدين فى استخدام الممالىك وعُنِيَا بتدريبيهم واعدادهم . وبقى ذلك فى عهد الأيوبيين حتى ولى الملك «الصالح أيوب» ، فاشترى عدداً كثيراً من أشداء الممالىك وبالغ فى تدريبيهم وأنزلهم فى قلعة الروضة التى شيدها بجزيرة الروضة ، فسموا لذلك «الممالىك البحرية»

ووصلوا فى آخر أيام الدولة الأيوبية الى درجة عظيمة من البأس . ولما أغضبهم توران شاه قتلوه واستولوا هم على الملك فبقى فى أيديهم نحو مائة وثلاثين عاماً

وعددهم ٢٤ سلطاناً أولهم السلطان عز الدين «أيك» التركمانى :
أبيك
ولى سنة ٦٤٨ هـ (١٢٥٠ م) وتزوج الملكة شجرة الدر ، ثم سلب منها كل سلطة واضطهدها . فقتلها أمرت مماليكها بخنقه سنة ٦٥٥ هـ (١٢٥٧ م)

فقتلها ابنه وتولى الملك بعده ولقب بالملك «المنصور» وهو صبي لا يزيد عمره على ١١ سنة ، فقام بأمر الدولة الأمير سيف الدين «قُطز» فوقعت فى مدته (سنة ٦٥٦ هـ : ١٢٥٨ م) النكبة العظيمة وهى سقوط بغداد فى يد التتار وزوال الخلافة العربية . فجمع «قطز» القضاة وكبار العلماء لذلك ، فأفتوه بخلع السلطان الصبي وولوه مكانه

فتولى سنة ٦٥٧ هـ (١٢٥٩ م) ولقب بالملك «المظفر» ، فجمع الممالىك
قطز
تحت كلمته وصاروا كلهم وقبائل العرب بمصر معه يداً واحدة على التتار الزاحفين على مصر . فالتقى بهم على « عين الجالوت » بفلسطين ثم لاقاهم أيضاً ببيسان فانتصر عليهم فى معركة هائلة . وكان ذلك بحسن قيادة

الأمير زكن الدين « بيارس » الذي طاردهم حتى أخرجهم من دمشق وحلب وانتزع أكثر امارات الشام من أيدي بني أيوب ، فوعده « قطز » بولاية حلب ، ثم أخلف وعده . فقتله بيارس وهم عائدون الى مصر ، واختاره زملاؤه سلطاناً مكانه

بيارس

تولى السلطان الملك الظاهر زكن الدين « بيارس » البندقدارى (٦٥٨ - ٦٧٦ هـ - : ١٢٦٠ - ١٢٧٧ م) عرش مصر فكان اشهر سلاطين المماليك البحرية ، فبدأ بتنظيم أمور الدولة وإصلاح الجيوش وإنشاء الأساطيل . فكان بوضع انظمته الملكية الثابتة المؤسس الحقيقي لدولتي المماليك اللتين استمرتتا ٢٦٧ سنة بالرغم من تشاحنهم وتنازعهم . ثم عني بتخصيص الشام وإنشأ بريداً سريعاً بالحمام الزاجل بين دمشق والقاهرة وكان « بيارس » يرمى الى بلوغ ما بلغه صلاح الدين وإلى استئصال شأفة الصليبيين مما بقي في أيديهم بالشام . ولكي يعزز زعامته للإسلام دعا الى مصر أحد أولاد الخلفاء العباسيين الذين فروا من وجه التتار من بغداد وبايعه بالخلافة ولقبه بالمستنصر ، ثم استمد سلطة الملك منه نائباً عنه سنة ٦٥٩ هـ (١٢٦١ م) . ثم ان « المستنصر » هذا ذهب لمحاربة التتار فقتل وجاء عباسي آخر يسمى أحمد وبويع بالخلافة ولقب بالحاكم بأمر الله ، وهو جد الخلفاء العباسيين بمصر

التتار

وكان أكبر خطر يهدد مصر في ذلك الوقت إغارة المغول ، وكانوا قد اتخذوا « فارس » مقراً لهم . الا ان منهم طائفة تعرف بالطائفة الذهبية نزلوا على نهر « الوُجْلا » (إيزل) واعتنقوا الاسلام وصاروا من أعداء تتار فارس . فاتحد « بيارس » معهم ومع قيصر الروم وعمل على مقاومة تتار

فارس والقضاء على الصليبيين ، فحارب هؤلاء محاربة شديدة نحو عشر سنوات من ٦٥٩ الى ٦٧٠ هـ (١٢٦١ - ١٢٧١ م) : شتت فيها شملهم وهدم « يافا » و « انطاكية » حتى صارتا اطلالا بالية (سنة ٦٦٧ هـ ١٢٦٨ م) . ثم أخضع قبائل « الباطنية » من الاسماعيلية النازلين في الشام والمسمين عند الافرنج بالحشاشين بعد أن كانوا آفة على ملوك مصر منذ أيام صلاح الدين . وأغار على آسيا الصغرى ، وكان التتار قد استولوا على مملكة الروم السلجوقيين ، فقهرهم وجلس على عرش « قيسارية » * ودان له أهلها (سنة ٦٧٦ هـ ١٢٧٧ م)

ولم تلبه غزواته في الشمال عن الالتفات للأقاليم الجنوبية ، فارسل جيشاً الى بلاد النوبة سنة ٦٧٤ هـ (١٢٧٥ م) فاخضع أهلها وأعاد جزية العبيد بعد ان امتنعوا عنها

ومات « بيبرس » سنة ٦٧٦ هـ (١٢٧٧ م) وقد بلغ أقصى درجات المجد وحلّ منزلة كبيرة بين جميع من جاوره من الملوك والأمراء وكان شجاعاً عاملاً عادلاً في الجملة حسن السيرة ، لا يشوب سياسته الا شيء من القسوة والميل الى الغدر ، ساد في أيامه الأمن وانتشرت العلوم والمعارف . ولم تشغله الحروب وتنظيم الجيوش وبناء الأساطيل وتحصين البلاد عن اصلاح الري والزراعة وانشاء المساجد والمدارس . ولم يغال في فرض الضرائب مع كثرة حروبه ، بل خفضها الى أصغر حد كاف للقيام بمشروعاته العظيمة . وما زال له الذكر الحسن عند المصريين . ومن المساجد

* تسمى بهذا الاسم مدينتان احدهما بفلسطين والثانية هي كرسى مملكة السلجوقيين بآسيا الصغرى . وبعض المتأخرين يكتب الأخيرة (قيسرية)

التي شيدها مسجده الكبير بالحسنية المعروف بجامع الظاهر
وبعد وفاة « بيبرس » حدثت منازعات بشأن تولي الملك (شأن
المماليك عند وفاة أحد ملوكهم) ، خلفه ولدان أحدهما بعد الآخر ، ولم تطل
مدتهما . وانتهى الأمر بتولي السلطان الملك المنصور سيف الدين « قلاؤن »
الصالحى (٦٧٨ — ٦٨٩ هـ : ١٢٧٩ — ١٢٩٠ م) ، فبقى الملك فى بيته
أكثر من مائة سنة . وبعد أن تمّ له الأمر عقد هدنة مع الصليبيين لمدة
عشر سنوات على أن يُسمح للسفن المصرية بدخول الموانئ المسيحية بالشام ،
وأن لا يقوم الصليبيون بأى تحصين جديد فى مدنهم . ومن ذلك يُعلم
مقدار ما وصلوا اليه اذ ذاك من الضعف والهوان

وقد كان عقد الهدنة مع الصليبيين من الحكمة اذ ان التناز كانوا
يتأهبون للإغارة على مصر مرة اخرى ، فخرج اليهم « قلاون » سنة ٦٨٠ هـ
(١٢٨٢ م) فى جيش عظيم وهزمهم فى موقعة فاصلة فى « حمص » اسكتهم
عن مصر ١٧ سنة

وقضى « قلاون » باقى أيامه فى محاربة الصليبيين بالرغم من مهادتهم
فيما سبق ، واستولى على « طرابلس » عنوة سنة ٦٨٨ هـ (١٢٨٩ م) .
ومات سنة ٦٨٩ هـ (١٢٩٠ م) وهو يتأهب لغزو « عكا »

وساد فى عهده العدل والسكينة . ومن مبراته الحسان انشاؤه
البيمارستان الكبير بين القصرين (المسمى بمستشفى قلاون الآن بالنجاسين)
وبجانبه المدرسة العظيمة والقبّة التى دُفن بها ، ووقف عليهما الأوقاف
الكثيرة وشرط فى وقفه كثيراً من أنواع البر والخير مما لم يسبقه اليه
أحد من الملوك

ثم خلفه ابنه « الأشرف خليل » وكان شجاعاً مقداماً مظفراً في الأشرف خليل الحروب عادلاً في الرعية قاسى القلب على من يتوهم مزاحمتهم له في الملك ، ففتك بكثير منهم فكان ذلك سبباً في اغتياله وقتله بعد ثلاث سنين . وقام باعداد الجيش الذى كان يعدّه والده لفتح « عكا » آخر مدينة حصينة بقيت بأيدي الصليبيين ، وهناك جمع الصليبيون فلول جيوشهم للدفاع عنها ، إلا أنهم اختلفوا حسب عاداتهم ، ففتح جند الأشرف المدينة سنة ٦٩١ هـ (١٢٩٢ م) ودمروا حصونها وفتكوا بكثير من الصليبيين . ثم سقطت باقي مدن الصليبيين في أيديهم وانقرضت دولهم بالشام

ثم خلفه أخوه الملك « الناصر » محمد بن قلاوون (٦٩٣ - ٧٤١ هـ : الناصر ١٢٩٣ - ١٣٤١ م) ، تولى وهو صغير وخُلع في هذه المدة مرتين : الأولى سنة ٦٩٤ هـ (١٢٩٣ م) مدة خمس سنوات والثانية سنة ٧٠٨ هـ (١٣٠٩ م) مدة سنة واحدة . وفي مدته أغار التتار مرة أخرى على الدولة سنة ٦٩٩ هـ (١٣٠٠ م) وهزموا المماليك واستولوا على « دمشق » . إلا أن المسلمين هزموهم في موقعة فاصلة بالقرب من دمشق سنة ٧٠٢ هـ (١٣٠٣ م) وأسروا منهم ١٠.٠٠٠ نفس ، فكانت هذه رابع مرة صُدّ التتار فيها عن الديار المصرية وزادت في عهده ثروة البلاد كثيراً . ومما ساعد على ذلك أنه فرض ضريبة على جميع التجارة التى تمر من مصر بنسبة ١٠ ٪ من ثمنها ، وكانت تجارة أوروبا مع الهند تمر من هذا الطريق

وكان « الناصر » يعنى بشؤون البلاد الداخلية ، فضبط الموازين والمقاييس ، وحدّ الأثمان في أوقات الشدة ، وألغى كثيراً من الضرائب الضارّة بالفقراء من الرعية واستعاض عنها بزيادة الضرائب على كبار

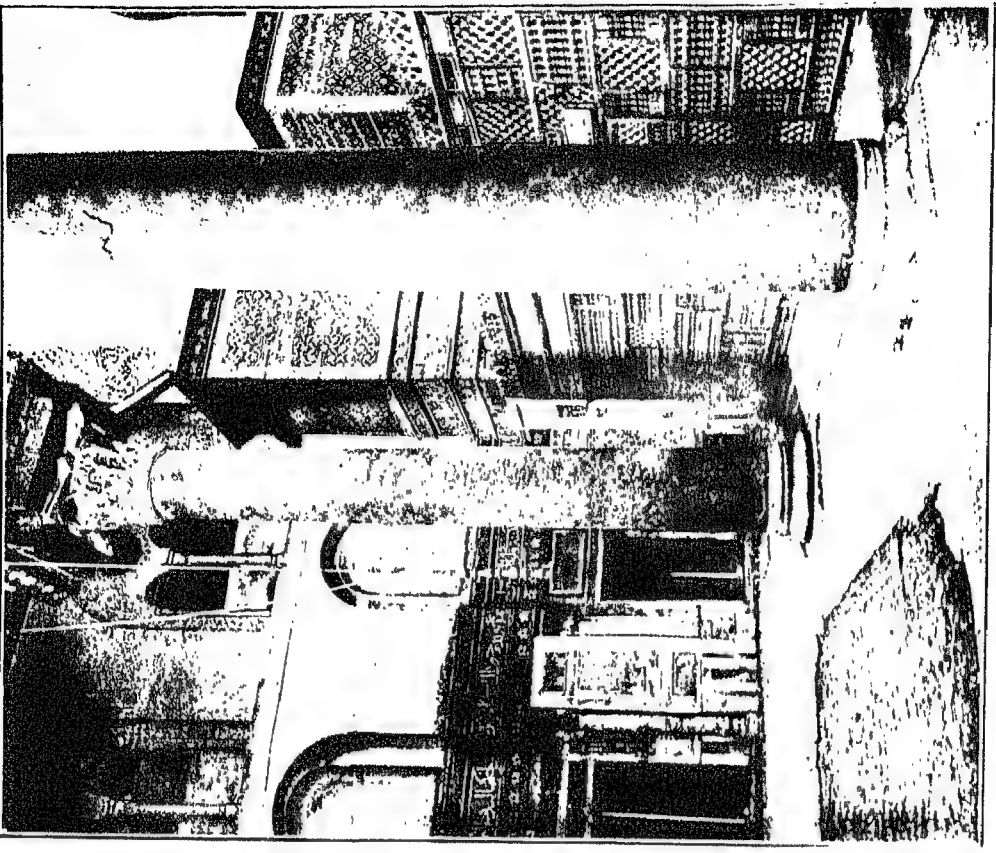
الموسرين . ثم منع شرب الخمر ، وتشدد في حفظ الآداب ، وعمل على معاضدة العلم ونشر المعارف . وفي مدته بلغ فن المبانى والنقوش العربية أقصاه . إذ اتضح ان أكثر الآثار العربية الجميلة التى فى دور تحف العالم هى من صنع هذا العصر

وقد شيد هو وأمراء دولته من المبانى الفخمة ما لا يدخل تحت حصر . وهو المنشئ لقناطر المياه الموصلة بين القلعة والنيل ، وإن كانت قد نُسبت خطأ الى صلاح الدين . ووصل بين النيل والاسكندرية بترعة ، وأنشأ طريقاً عظيماً بجانب النيل أفاد فائدة الجسور وقت الفيضان وكان « الناصر » ضئيل الجسم ، أعرج ، أعور ، إلا أنه بالرغم من ذلك كان قوى البأس ، شديد البطش ، ذا رأى سديد ، وعزيمة من حديد . وكان عصره بفخامة ملكه وعظم مبانيه وجمال ذوقه أرقى عصور الحضارة المصرية

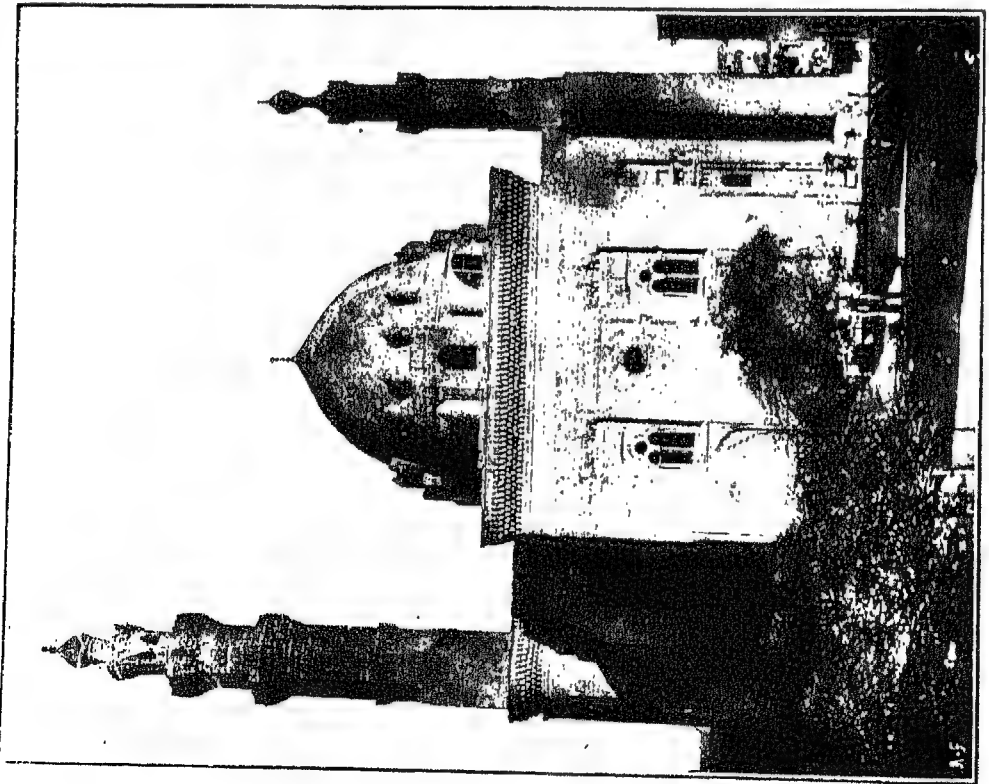
ومات سنة ٧٤١ هـ (١٣٤١ م) ولم يترك خلفاً يقدر على القيام بعبء الملك ، ف وقعت البلاد فى فوضى مدة ٤١ سنة تنازع الملك فيها ملك بعد ملك من أولاده

السلطان حسن وأذوهم أثراً الى الآن ابنه السلطان حسن ، وهو باني المدرسة العظيمة التى لم يخلف السلاطين أعظم منها بناء ولا أتقن صناعة ، وهى المشهورة الآن بجامع السلطان حسن (بجوار قلعة القاهرة) وانتهى الأمر باتقراض هذه الدولة واستيلاء المماليك الشراكسة على الملك

دخا حومه قلاوون (رسم تخطيطي)



جامع القطر في حرس (رسم تخطيطي)



﴿ فشل الحروب الصليبية ونتائجها ﴾

استولت الممالك البحرية على آخر ما بقي بأيدي الصليبيين بالشام وبهذا انتهت الحروب الصليبية بعد ان استمرت نحو قرنين، ولم يتم للصليبيين شئ من بغيتهم مع ما أُريق فيها من الدماء وبُدد من الأموال . وفشلهم هذا عدة أسباب منها :

أولاً اختلاف ماوكلهم وامرائهم فيما بينهم وتظاهر بعضهم على بعض ، مما أدى كثيراً الى وقوع القتال بينهم
ثانياً وجود عدد عظيم من اللصوص والمجرمين والمتشردين بين جيوشهم ، فجر ذلك الى الاختلال وقلة النظام
ثالثاً اتحاد المسلمين وائتلافهم في أكثر أزمان الحروب الصليبية وخاصة زمن صلاح الدين وما بعده

رابعاً - حسن نظام الجيوش الاسلامية وشجاعتها
ولا شك أن الحروب الصليبية أضرت كثيراً بالشرق والمغرب معاً لما أزهقت من أرواح وأفنت من أموال ، ولما استغرقت من وقت ثمين لو صرف في الأعمال النافعة لعاد على العالم بالخير والبركات ، غير أنها مع كل هذا كان لها في أوروبا بعض نتائج حسنة ربما كانت تتم بدونها مدى الأيام ، ولكنها تنسب الى الحروب الصليبية لظهورها عقبها
ومن أهم نتائج الحروب الصليبية للاوربيين ما يأتي :

أولاً . وقف الغربيون على أحوال الشرق بعد جهلهم به وأدركوا ان به حضارة تفوق حضارتهم ، فالتسعت أذهانهم وتولدت فيهم روح الاستطلاع والاستكشاف

ثانياً — أَدَّى اختلاط الغربيين بالشرقيين نحو قرنين من الزمان الى اقتباسهم شيئاً كثيراً من الحضارة الشرقية، مما أَدَّى الى ارتقاء العلوم والآداب والفنون والصنائع باوربا

ثالثاً — أُوْجِدت شيئاً من الائتلاف بين الأمم الأوربية المختلفة وأُزِيلَت ما بينهم من النفور مدة من الزمن، وذلك لاشتراكهم في غرض واحد وقتاً طويلاً

رابعاً — أُوْزِلَت الفرق العظيم الذي كان بين طبقات الأشراف وغيرهم باوربا، لعملمهم جميعاً ككتف في ميدان القتال، وبذلك قضت على النظام الذي كان يُعرف في أوربا بنظام « الإقطاعات »

خامساً — كانت سبباً في اتساع نطاق التجارة والملاحة بين المشرق والمغرب، وذلك ان السفن العديدة التي كانت تأتي بالصلبيين من اوربا كانت تعود اليها بالبضائع الشرقية، فقوّت روح التجارة في الشرقيين والغربيين معاً وساعدت في نموّ بعض المدن التجارية العظيمة مثل « جنوة » و « البندقية »

سادساً (وهذه في اعتبار الغربيين نتيجة سيئة) — زادت من نفوذ البابا باوربا. وذلك لأنه كان المحرك للملوك أوربا وأمرائها نحو قرنين من الزمان بسبب ذلك الغرض الديني، فقوى نفوذه حتى صار فيما بعد سبباً لمشاكل عظيمة باوربا

(ب) - دولة المماليك الشراكسة

أو « المماليك البرجية »

٧٨٤ - ٩٢٢ هـ (١٣٨٢ - ١٥١٧ م)

منشأ المماليك
البرجية

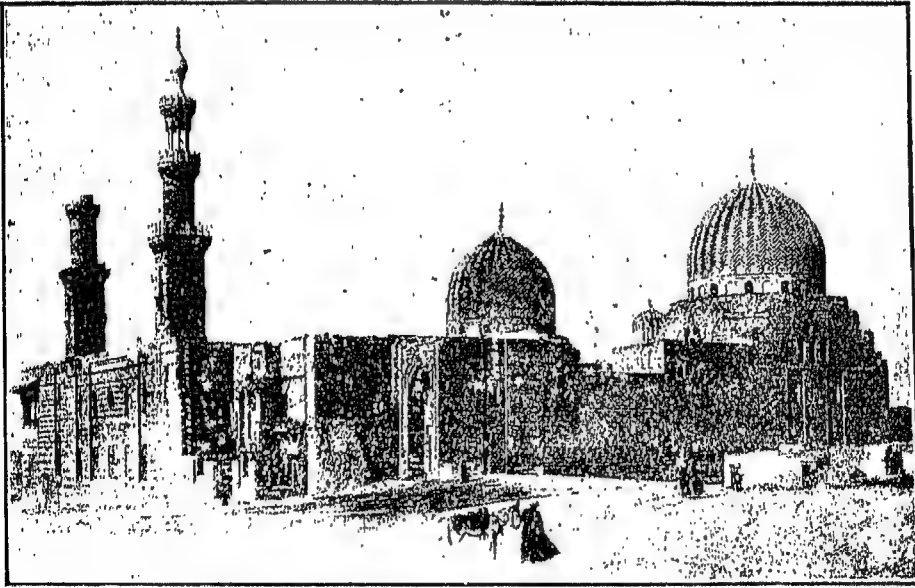
منشأ هؤلاء المماليك ان المنصور « قلاوون » اكثر من شرائهم وجعاهم في أبراج القلعة فسُموا « البُرْجِيَّة ». وهم يختلفون في الجنس عن المماليك البحرية لأن معظمهم من الشراكسة وأولئك من الترك . ولم يكن الملك فيهم وراثياً قط كما كان في بيت قلاوون ، بل كان استيلاء كل ملك من ملوكهم على الدولة متوقفاً على شهرته الحربية ومقدرته على استجلاب مودة زملائه من الأمراء . وعدد ملوكهم ثلاثة وعشرون ، حكم تسعة منهم مدة ١٢٥ سنة وحكم في تسع السنوات الأخرى أربعة عشر

وقد كان لكثير من ملوك هذه الدولة وامرائها ولع بالعلوم ، واشتهروا بالتنافس في بناء القصور الفخمة والأربطة والجوامع والمدارس والسُّبُل وغير ذلك من المعاهد الخيرية . واكثر ما نراه اليوم في القاهرة من المباني العظيمة من آثارهم . إلا أنهم كانوا يميلون الى الظلم والعسف ، فائقوا كاهل الأمة بالضرائب ، وتسرب الخلال في عهدهم الى جميع فروع الحكومة فاصبح العدل فيها يُشرى ويباع . وكثرت الثورات والفتن في البلاد حتى ضج الناس من شر الجنود وعبثهم بالأمن . على أنهم بالرغم من شقاقهم فيما بينهم كانوا على الأجنبي يداً واحدة ، فحفظوا البلاد من الغارات الأجنبية نحو قرن ونصف من الزمان

برقوق

واشهر ملوكهم وأولهم هو الملك الظاهر سيف الدين « برقوق » ، خلع آخر المماليك البحرية وتولى الملك ، ثم ثار عليه المماليك وخلعوه وأعادوا

الى الملك أحد حفدة الناصر بن قلاوون . فاشتغل باخذ فتنهم وجلس على كرسى الملك ثانية . ولم يفرغ من ذلك حتى تهدد البلاد خطر إغارة التتار يقودهم قائدهم العظيم « تيمورلنك » . وكانوا قد استولوا على « بغداد » سنة ٧٩٥ هـ (١٣٩٣ م) وخضعت لهم « الجزيرة » بأسرها سنة ٧٩٦ هـ (١٣٩٤ م) . فارسلوا كتابا الى مصر يطلبون منها التسليم اليهم ، فامتنع « برقوق » واتحد مع امراء شمالى الشام وسلطان العثمانيين . ثم مات برقوق سنة ٨٠١ هـ (١٣٩٩ م) قبل الشروع فى الحرب ، فترك ذلك لابنه الناصر « فرج » ولبرقوق مبان عظيمة ومبرات جليلة ، منها مدرسته العظيمة بين القصرين بالنحاسين الشهيرة بجامع برقوق . أما المدفن ذو القبتين بالجبانة



(جامع برقوق بالصحراء)

الشرقية خارج القاهرة المعروف أيضاً بجامع برقوق فمن انشاء ابنه فرج .

وفي سنة ٨٠٣ هـ خرج السلطان فرج الى الشام لمحاربة تيمورلنك الذي خرب حلب وزحف على دمشق، فوقع بين الجيشين بعض مناوشات بالقرب من دمشق كان الغلب فيها للمصريين، فطلب تيمورلنك من السلطان الصلح فاجابه اليه. وبينما هما يتفاوضان أثار المماليك فتنة في المعسكر وتسلاوا منه راجعين الى مصر، فانزعج السلطان واضطر ان يعود مع بقيتهم مسرعاً اليها وتوكل دمشق يدافع عنها أهلها، فدخلها تيمور وفعل الفظائع بأهلها كما فعل بحلب من قبل. ثم خلع المماليك « فرجا » سنة ٨٠٨ هـ (١٤٠٥ م) وولوا أخاه. ثم عاد للملك فخرج في عدة غزوات الى الشام لتوطيد السكينة بها واخضاع الثائرين من الأمراء

والاستفحل أمر اثنين من هؤلاء الأمراء وهما « شيخ » و « نوروز » فتغلب « شيخ » على « فرج » في خروجه السابعة الى الشام، ووافق الخليفة العباسي بمصر على قتله وانتهى الأمر باستيلاء « شيخ » على الملك، فسمى « المؤيد شيخ ». وهو باني الجامع المعروف بجامع المؤيد بجوار باب زويلة ثم تتابع بعده عدة ملوك فلم يكن لهم أثر في حالة مصر سوى أن المماليك لم يعبئوا بهم، فساءت حالة الناس، واضطربت الحكومة، وبقي الحال كذلك حتى ولي الملك « الأشرف . برنسباي » سنة ٨٢٥ هـ (١٤٢٢ م)

حكم « برنسباي » نحو ١٦ سنة (٨٢٥ - ٨٤١ هـ : ١٤٢٢ - ١٤٣٨ م) فبالغ في إقبال كاهل الأمة بالضرائب الباهظة وأنواع الاحتكار في التجارة إلا أنه لقوته وشدة بأسه لم تحدث في البلاد فتن في عهده. وكان لصوص البحر قد أكثروا الإغارة على مصر من جزيرة « قبرس »، فارسل « برنسباي » اسطولاً لغزوها، فاستولى عليها وأتى بملكها « رجنس »

أسيراً الى مصر، وأتى كذلك بكثير من سكان الجزيرة فبيعوا في أسواق القاهرة . وبقيت « قبرس » خاضعة لمصر الى أن انتهت دولة المماليك سنة ٩٢٢ هـ (١٥١٧ م) ، فكان الاستيلاء عليها من مميزات عصر « برسباى » على عهد غيره من المماليك الشراكسة . ومما امتاز به عصره أيضاً اهتمامه بالضرائب الخاصة بالتجارة وجعلها مورداً كبيراً لخزائنه . وعنى بامر تجارة الهند حتى صارت السفن الواردة منها تفرغ بضائعها في « جُدَّة » (وكانت تابعة لمصر) بعد أن كانت تفرغها في « عدن » ، فازداد بذلك مورد الحكومة . ثم احتكر تجارة كثير من المواد مثل السكر والفلفل والأخشاب وغيرها . وبالف في الكسب حتى ضجّ التجار الأجانب بمصر وهمت حكومة « البندقيّة » باستدعاء جميع تجارها من القطر ، فخاف على تجارة البلاد من الخسارة ونظر في مطالبهم ، وقد جمع من هذه الاختكارات أموالاً طائلة . وحدث الطاعون بمصر في زمنه مرتين ، فهلك كثير من . ومات برسباى سنة ٨٤١ هـ : ١٤٣٨ م ، واختلط عقله قبل موته فامر بقتل طبيبيه ثم ولى الملك بعده ابنه ثم عدة سلاطين لم يكن لهم كبير شأن ، حتى ولى الأشرف « قابتبباى » سنة ٨٧٣ — ٩٠٢ هـ : ١٤٦٨ — ١٤٩٦ م) وهو أطول ملوك هذه الدولة حكماً ، كان في أول أمره مملوكاً اشتراه « برسباى » بخمسين ديناراً ، فما زال يرقى بجدده ومواهبه حتى بلغ هذا المبلغ . وكان شجاعاً قوى الجسم والروح يحبه قواده فثبتت بهم قدمه . إلا ان حروبه الكثيرة اضطرتة الى زيادة الضرائب زيادة كبيرة وإلى ابتزاز الأموال من أثرياء اليهود والنصارى وكان أكبر شاغل له هو ازدياد قوة آل عثمان الذين صاروا بعد

قابتبباى

استيلائهم على القسطنطينية سنة ٨٥٧ هـ (١٤٥٣ م) مصدر خطر لمن جاورهم من الأمم. وكثيراً ما تعدوا على حقوق مصر بالشام، وأهمها منعهم تجارة الرقيق من الممالك الشراكسة وغيرهم عن مصر فساءت العلاقة بينهم وبين المصريين، وتفاقم الأمر بين الفريقين بعد ما أجار قايتباي أخا «بايزيد الثاني» وخصمه، واکرم مشواه، فحنق بايزيد على قايتباي، ونشبت بين الفريقين عدة حروب لم تكن لها نتيجة تذكر، وانتهى الأمر بمهادنة الاثنين سنة ٨٩٦ هـ (١٤٩١ م)

وفي سنة ٨٩٧ هـ (١٤٩٢ م) أصاب البلاد وباء شديد أعقبه قحط، وقامت فتنة كبيرة بين طائفتين من الممالك، فزن قايتباي ومرض مرض الموت، فخلعه أرباب الدولة وبايعوا ابنه الناصر، فمات قايتباي بعد ذلك بيوم واحد (سنة ٩٠١ هـ : ١٤٩٦ م)

وكان قايتباي محباً للعمارة: بنى ورمم كثيراً من المساجد والمدارس والحصون والطرق، ولا يضارع عصره في المباني وفرة وجمالاً سوى عصر «الناصر» بن قلاوون. ومن أعجب بنائه تربته التي بناها في الصحراء وتعرف الآن بجامع قايتباي

ثم تولى بعده عدة سلاطين كان من أشهرهم السلطان الأشرف الغوري قانصوه «الغوري» سنة ٩٠٦ - ٩٢٢ هـ : ١٥٠١ - ١٥١٦ م). وكان داهياً شجاعاً عالماً محباً للعمارة على عسف وتجبر فيه. ومن بنائه جامع الغوري ومدرسته بالغورية.

ولى الغوري الملك وعمره ٦٠ سنة فوجد خزائن الحكومة خالية، بسبب الاضطراب الذي أعقب وفاة قايتباي، فعمل على ملئها، فشدد

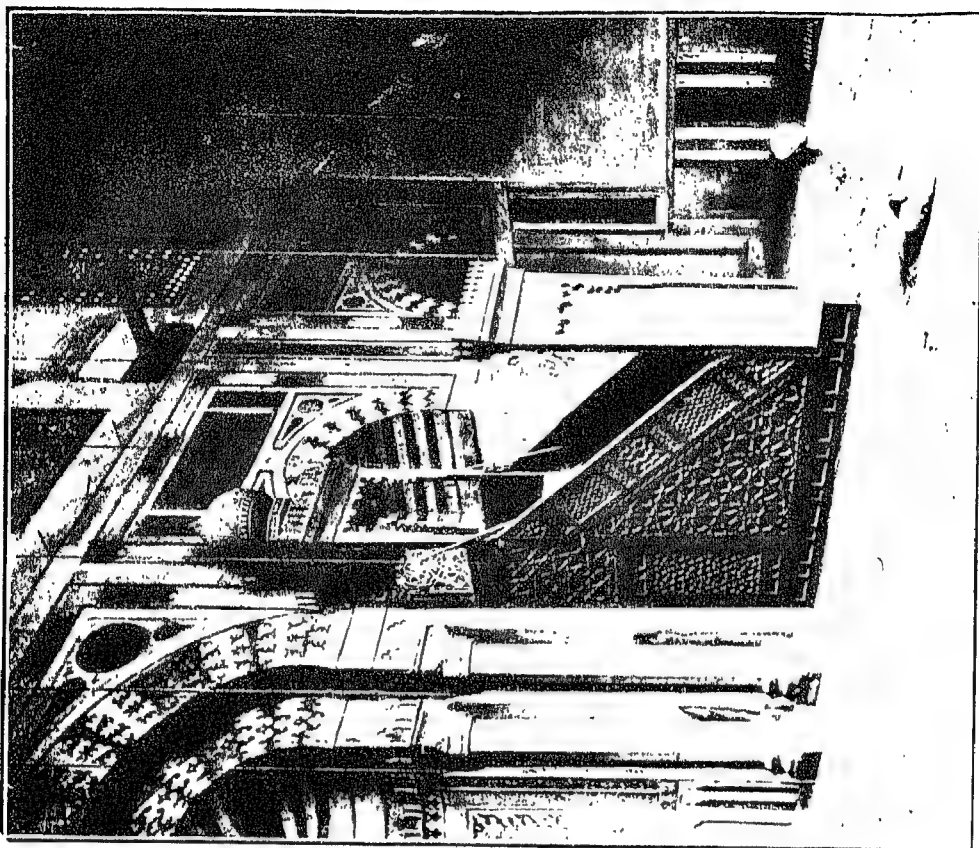
على الرعية وجمع ضرائب عشرة شهور دفعة واحدة ، حتى عظم يؤس الناس .
وسادت بالرغم من ذلك السكينة بالبلاد في أوائل عهده

البرتقال والتجارة
المصرية

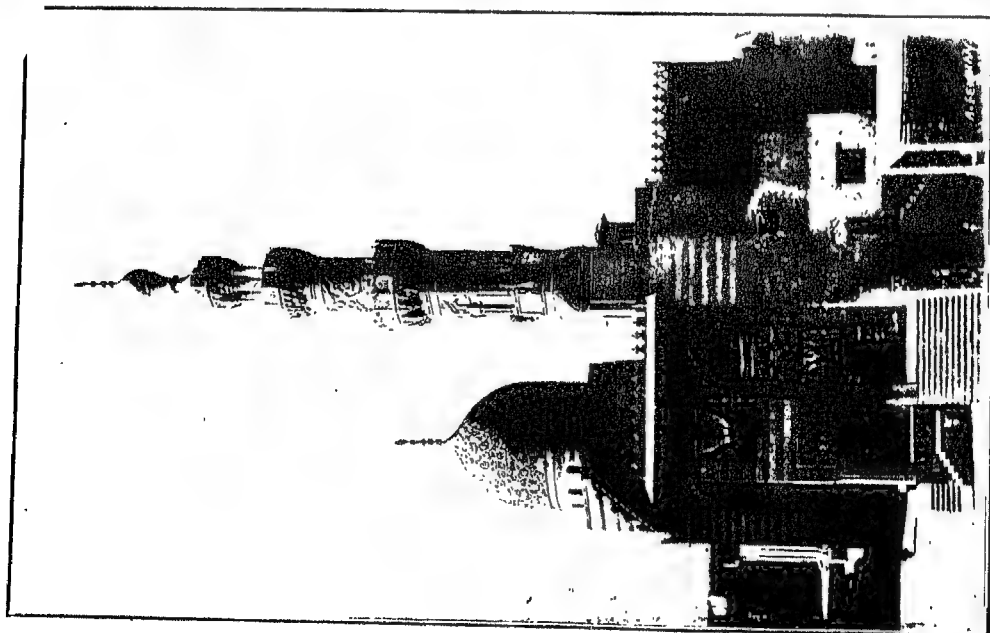
ولم يعكر صفوه سوى نزاع قام بينه وبين البرتقال بشأن تجارة الهند
وذلك ان « فاسكو دى جاما » لما كشف الطريق الى الهند عن طريق
رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٩٧ م تحولت معظم التجارة الهندية عن طريق
مصر وتقص بذلك وارد الحكومة نقصاً كبيراً . ولم يكتف البرتقال بانتقال
معظم هذه التجارة الى أيديهم ، بل شرعت سفنهم بالبحر الأحمر تقبض
على كل سفينة مصرية تبغى التجارة في تلك الجهات . ووقع بين الفريقين
بعض مناوشات لم تكن لها نتيجة قاطعة ، اذ شغل الماليك بخطر آخر
أكبر من ذلك وهو إغارة العثمانيين التي لم تذهب بما بقي من تجارتهم فقط
بل انتهت بالقضاء على ملكهم

الفتح العثماني

وذلك انه في سنة ٩١٨ هـ (١٥١٢ م) ولى ملك آل عثمان السلطان
« سليم خان الأول » ، وكان مولعاً بالحروب شديد الرغبة في توسيع نطاق
الدولة العثمانية ، فعمل على محاربة الماليك لأقل سبب ، فاتّهم « الغورى »
بمالة الفرس عليه (وهم يومئذ أعداؤه الأشداء) ، وبأن بلاد الغورى
صارت مأوى للعصاة والفارين من وجهه سليم : فأدرك « الغورى » نيّاته ،
وجرد جيشاً خرج به الى الشام بالرغم من تأكيد سليم أنه لا يقصد
بمصر سوءاً . والتقى الجيشان بميدان « مرّج دابق » شمالى حلب سنة ٩٢٢ هـ
(١٥١٦ م) ، وكانت مدافع العثمانيين قوية ففتكت بجيش الماليك وانهزموا ،
وفُوج « الغورى » لوقته فوقع تحت سنابك الخيل ، فلم يوقف له على أثر
وملك سليم الشام بلا مقاومة وزحف على مصر ، فولى الماليك عليهم



دخول جمع قنودى (رسم الكچين)



جمع قنيساي (رسم محمد القدى غنى سودى)

السلطان «طومان باى» فجّمع من قدر عليه من الجنود والتقى مع سليم خان بالريدانية (العباسية الآن)، فانهزم طومان باى ودخل سليم خان القاهرة. وفرّ طومان باى ثم قبض عليه سليم وصلبه على باب زويلة . وبموته انقرضت دولة الشراكسة سنة ٩٢٣ هـ (١٥١٧ م) وصارت مصر ولاية عثمانية . وتنازل الخليفة العباسى بمصر عن الخلافة لسلطين آل عثمان



ملخص أهم الحوادث التاريخية منذ تأسيس الدولة الإسلامية

مصر	التاريخ		البلاد الأجنبية
	هـ	م	
زحف الفرس على مصر		٥٧١	مولد النبي صلى الله عليه وسلم
		٦١٠	تولية هرقل امبراطوراً بالقسطنطينية
		٦١٦	تأثير البعثة في تأسيس مجد الدولة العربية
خروج الفرس من مصر ورجوع الرومان اليها	٢	٦٢٤	غزوة بدر
	٣	٦٢٥	» أحد
	٥	٦٢٧	» الخندق
	٦	٦٢٨	
	٧	٦٢٩	أرسل النبي كتبه الى الملوك والامراء
	٨	٦٣٠	فتح مكة
	٩	٦٣١	غزوة تبوك
	١٠	٦٣٢	حجة الوداع
	١١	٦٣٢	وفاة النبي صلى الله عليه وسلم عصر الفتوح العربية
	١١ — ١٣	٦٣٢ — ٦٣٤	خلافة أبي بكر — ابتداء فتح فارس والشام
	١٣ — ٢٣	٦٣٢ — ٦٤٤	خلافة عمر — اتساع عظيم في الدولة الإسلامية :
وصول عمرو بن العاص الى الفرس : ١٨ هـ (٦٣٩ م) دخول الاسكندرية ومصر في قبضة العرب . محرم سنة ٢١ هـ (٦٤١ م) مصر وهي ولاية اسلامية في عهد الخلفاء الراشدين وبنى امية وصدر بنى العباس (٢٢٧ سنة)	١٢ — ٢١	٦٣٣ — ٦٤٢	فتح فارس
	١٢ — ١٧	٦٣٣ — ٦٣٨	فتح الشام
	١٨ — ٢١	٦٣٩ — ٦٤١	فتح مصر
	٢١ — ٢٥٤	٦٤١ — ٨٦٨	

مصر	التاريخ		البلاد الأجنبية
	هـ	م	
(١) في عهد الخلفاء الراشدين	٢١—٤١	٦٤١—٦٦١	
ولاية عمرو بن العاص — انشاء مدينة الفسطاط — تنظيم الادارة ورسم الخطة في جباية الخراج — انشاء الأحواض والقناطر والجسور — كرى خليج أمير المؤمنين — اخضاع بلاد النوبة ولاية عبد الله بن أبي السرح — صد غارة لاروم عن الاسكندرية — فتح برقة وافريقية وغزو بلاد النوبة — كسر الروم بجزراً بالاسكندرية — تشدد في الخراج فكرهه الناس وطرده	٢٢—٣٥	٦٤٢—٦٥٥	خلافة عثمان — مواصلة الفتوح العربية : فتح بلاد التركستان وبرقة وطرابلس الغرب والنوبة وجزيرة قبرس خلافة علي — وقوف الفتوح — اضطرام نار الفتن بسبب قتل عثمان والنزاع بين علي ومعاوية بشأن الخلافة
(٢) في عهد الدولة الأموية	٤١—١٣٢	٦٦١—٧٥٠	دولة بني أمية ومقرها دمشق أهم خلفائها : معاوية (محاولة الاستيلاء على القسطنطينية وفتح بعض بلاد التركستان وافغانستان وشمال الهند والجزائر ومراكش ورودرس) — عبد الملك بن مروان — الوليد بن عبد الملك (وصول الفتوح الى سمرقند ونهر السند وتثبيت ملك العرب ببلاد البربر الى المحيط — فتح الاندلس — كثرة العمارات) — سليمان بن عبد الملك (ابتداء التقهر — صد الجيوش الاسلامية في موقعة تور)
عودة عمرو بن العاص الى ولاية مصر — مواصلة فتح افريقية والمغرب الأقصى ولاية عبد العزيز بن مروان (٢١ سنة) —	٢٨—٤٤	٦٥٨—٦٦٣	
	٦٦—٨٦	٦٨٥—٥٠٧	

مصر	التاريخ		البلاد الأجنبية
	هـ	م	
حلوان قاعدة ثانية للديار المصرية ولاية عبد الله بن عبد الملك — نسخ دواوين مصر بالعربية بدل القبطية	٨٦ — ٩٠	٧٠٥ — ٧٠٩	
	١٣٢ — ٦٥٦	٧٥٠ — ١٢٥٨	الدولة العباسية أهم خلفائها : السفاح (مؤسس الدولة — اتخذ مدينة الانبار داراً للخلافة) — المنصور (أعظم خلفاء العباسيين — بنى بغداد واتخذها مقراً للخلافة — أول عصور وضع العلوم الإسلامية العربية) — الرشيد والمأمون (أزهى عصور الحضارة الإسلامية بالشرق)
(٣) في عهد الدولة العباسية ولاية صالح وأبي عون من قبل السفاح — بناء مدينة المسكر — انتقال مصر الى يد العباسيين بدون صعوبة كبيرة كثرة الفتن والقتال في مصر في عهد العباسيين بقيام العرب تارة والقبط أخرى والاثنيين أحياناً — أنزل عبيد الله بن الحبحاب قبيلة من عرب قيس بالحواف الشرق ليساعدوا على انتشار الإسلام بمصر ابن ممدود أول وال من الاتراك نزول طائفة من الاندلس بالاسكندرية وانضمامهم الى العرب الخارجين قدوم عبد الله بن طاهر واخراجهم من الاسكندرية خروج أهل الحواف والقبط خروجاً عاماً قدوم المأمون واخذ الثورة وابتداء الطور الحقيقي لانتشار الإسلام بمصر عندسة آخر وال عربي تنصيب أحمد بن طولون والياً على القطاط الدولة الطولونية — عصر هدوء وسكينة تنصيب أحمد بن طولون والياً على جميع مصر — بناء مدينة	١٣٢ — ٢٥٤	٧٥٠ — ٨٦٨	
	١٦٣	٧٧٩	
	١٩٩	٨١٥	
	٢١١	٨٢٦	
	٢١٦	٨٣١	
	٢١٧	٨٣٢	
	٢٣٨ — ٢٤٢	٨٥٢ — ٨٥٦	
	٢٥٤	٨٦٨	
	٢٥٤ — ٢٦٣	٨٦٨ — ٩٠٥	
	٢٥٧	٨٧٠	

البلاد الأجنبية	التاريخ		مصر
	هـ	م	
	٢٦٤	٨٧٨	القطاع وجامع ابن طولون
	٢٦٤	٨٧٨	منع ارسال الخراج الى الموفق أخى الخليفة
	٢٦٩	٨٨٣	اخضاع معظم بلاد الشام
	٢٧٠	٨٨٤	حذف اسم الموفق من الخطبة
			وفاة ابن طولون
	٢٧١	٨٨٥	تولية خارويه (اكثره من الاتفاق في تشييد العمارات والبساتين)
			اغارة اميرى الموصل والأنبار على الشام
	٢٧٨	٨١١	نودى بخارويه حاكماً على الموصل والجزيرة
وفاة الموفق وبمعه الخليفة المعتمد (٢٧٩ هـ)			تحسن العلاقات بين مصر وبغداد وتزوج خارويه ابنته قطر
	٢٨٢	٨٩٦	الندى للخليفة المعتمد
			قتل خارويه
			اضمحلال الدولة الطولونية
	٢٩٣	٩٠٥	انقراضها
	٢٩٢ - ٣٢٤	٩٠٥ - ٩٢٥	مصر ولاية عباسية مرند أخرى - عصر فوضى
	٣٢٤ - ٣٥١	٩٣٥ - ٩٦٦	الدولة الاخشيدية (٣٤ سنة) ارجاع السكينة الى مصر
	٣٢٣	٩٢٥	تولية الاخشيد والياً على مصر
	٣٢٨	٩٤٠	استقلاله بالملك
	٣٣٢	٩٤٣	قلده الخليفة حكم الحرمين
	٣٣٤	٩٤٦	وفاة الاخشيد
	٣٣٥	٩٤٦	تولى ابنه أبى الناسم أو وجور ملكاً وجعل فافور قيساً عليه
			لصغر سنه
			وفاة أو وجور
	٣٥٥	٩٦٥	تولى فافور وتقليد الخليفة له ولاية مصر والشام والحجاز
	٣٥٨	٩٦٩	قدوم جوهر الصقلي وانتزاعه مصر من الدولة الاخشيدية
ذهاب أبى عبد الله الشيعى الى بلاد البربر	٣٦٠	٨٩٣	
نودى بعميد الله خليفة فاطميا بالمغرب	٢٩٧	٩١٠	
تولية المعز الخليفة	٣٤١	٩٥٢	
استيلاء جوهر قائد المعز على مصر	٣٥٨	٩٦٩	

مصر	التاريخ		البلاد الأجنبية
	هـ	م	
الدولة الفاطمية - مدة حكمها ٢٠٢ سنة ومقرها القاهرة (١) المزم - ٣٥٨٠ - ٣٦٥ هـ (٩٦٩ - ٩٧٥ م) بناء القاهرة - دانت له مكة والمدينة - تقدم البلاد على عهده - بناء الازهر ٣٦٠ هـ (٩٧٠ م) (٢) المزم - ٣٦٥ - ٣٨٦ هـ (٩٧٥ - ٩٩٦ م) البلاد في هدوء وتقدم - اقامة كثير من المباني وحفر الترغ وإنشاء الجسور - بدأ جامع الحاكم (٣) الحاكم ٣٨٦ - ٤١١ هـ (٩٩٦ - ١٠٢١ م) عصر اضطراب بسبب طيش الحاكم وتناقض أفعاله (٤) الظاهر ٤١١ - ٤٢٧ هـ (١٠٢١ - ١٠٣٦ م) لم يقدر على اصلاح ما أفسده والده وأخذ خلفاء الفواطم في الاضمحلال - تحول السلطة الى الوزراء - - أقصى ما بلغت اليه أملاك الفواطم في الشام (٥) المستنصر ٤٢٧ - ٤٨٧ هـ (١٠٣٦ - ١٠٩٤ م) - عهد تدهور سريع - كثرة المشاحنات بين الوزراء - خروج الولايات السورية وانقسامها الى عدة ولايات - وفرة الثروة بمصر عهد الوزير «اليازوري» - استقرت البلاد نحو ٨ سنوات استبداد الوزير ناصر الدولة - قحط عظيم مدة ٧ سنوات بندر الجبال وبناء الثلاثة الأبواب العظام - رجوع الهدوء والسكينة (٦) المستمل ٤٨٧ - ٤٩٥ هـ (١٠٩٤ - ١١٠١ م) وزارة الافضل (٧) الامر ٤٩٥ - ٥٢٤ هـ (١١٠١ - ١١٣١ م) (٨) الحافظ ٥٢٤ - ٥٤٤ هـ (١١٣١ - ١١٤٩ م)	٣٥٨ - ٥٦٧	٩٦٩ - ١١٧١	
	٤٤٢ - ٤٥٠	١٠٥٨ - ١٠٥٠	
	٤٥٧ - ٤٦٥	١٠٧٢ - ١٠٦٥	
	٤٦٧ - ٤٨٧	١٠٩٤ - ١٠٧٤	
	٤٦٩	١٠٧٦	استيلاء الأتراك الساجوقيين على الشام
	٤٨٧ - ٥١٥	١١٢١ - ١٠٩٤	
	٤٨٩	١٠٩٦	خروج الصليبيين من اوربا
	٤٩٠ - ٤٩١	١٠٩٨ - ١٠٩٧	استيلاؤهم على الرها وانطاكية
	٤٩١	١٠٩٩	استيلاؤهم على بيت المقدس
	٥٢١	١١٢٧	تولى زنكي حاكما للموصل

البلاد الأجنبية	التاريخ		مصر
	هـ	م	
مولد صلاح الدين الايوبي بمدينة تكريت	٥٣٢	١١٣٧	أول وزير لقب نفسه بلقب « ملك »
استيلاء زنكي على بعلبك وتعيينه أيوباً حاكماً عليها	٥٣٤	١١٣٩	
استيلاء زنكي على الرها	٥٣٩	١١٤٤	
وفاة زنكي وتولى نور الدين حكم حلب	٥٤١	١١٤٦	
فشل الحرب الصليبية الثانية أمام دمشق	٥٤٣	١١٤٨	
سقوط عسقلان في يد الصليبيين	٥٤٨	١١٥٣	(٩) الظاهر - ٥٤٤ - ٥٤٩ هـ (١١٤٩ - ١١٥٤ م)
استيلاء نور الدين على دمشق وتعيين شيركوه حاكماً على حمص	٥٤٩	١١٥٤	
			(١٠) الفاتح - ٥٤٩ - ٥٥٥ هـ (١١٥٤ - ١١٦٠ م) - وزارة الملك الصالح طلائع ابن رزيق
			(١١) الماضد - ٥٥٥ - ٥٦٧ هـ (١١٦٠ - ١١٧١ م)
	٥٥٨	١١٦٣	النزاع بين ضرغام وشاور
	٥٥٨	١١٦٣	هزم « مرى » ضرغاماً ثم تحالفاً
	٥٥٩	١١٦٤	دخول شيركوه مصر لأول مرة - قتل ضرغام
			دخوله ثانياً مرة ودخول مرى أيضاً ثم جلاء
	٥٦٣	١١٦٧	الجيوش السورية ومعظم جيوش مرى
			رجوع مرى لغزو البلاد - احراق شاور مدينة
	٥٦٤	١١٦٨	الفسطاط كي لا تأوى الصليبيين
			وصول شيركوه الى مصر لثالث مرة ورجوع
	٥٦٥	١١٦٩	مرى الى الشام - تعيين شيركوه وزيراً
	٥٦٥	١١٦٩	وفاة شيركوه وتعيين صلاح الدين وزيراً
			النداء للخليفة العباسي قبيل وفاة الماضد آخر خلفاء
	٥٦٧	١١٧١	الفاطميين
	٥٦٧ - ٦٤٨	١١٧١ - ١٢٥٠	الدولة الايوبية - مدة حكمها ٧٩ سنة ومقرها القاهرة
	٥٦٥	١١٦٩	(١) صلاح الدين مؤسس الدولة : تولى وزارة مصر

مصر	التاريخ		البلاد الأجنبية
	هـ	م	
خلع الخليفة الفاطمي والنداء للخليفة العباسي (١) تحصينه لمصر وتأسيس ملكه فيها — بدء بناء سور حول القاهرة وضواحيها وإنشاء قلعة الجبيل — إرسال جيوش إلى بلاد العرب وسواحل أفريقيا والسودان	٥٦٧	١١٧١	
	٥٧٠	١١٧٤	
وفاة نور الدين خلا لصلاح الدين الجو وعمل على بسط نفوذه على جميع الممالك الإسلامية (ب) توسيع نطاق دولته	٥٧١ — ٥٧٢	١١٧٥ — ١١٧٦	
اخضاع الشام الإسلامية تنظيم أملاكه ومواصلة تحصين القاهرة إنشاء المدارس لنشر مذهب الامام الشافعي ومحو مذهب الشيعة من مصر ثم بسط نفوذه على معظم ممالك الاسلام ووجد كلتهم	٥٧٣ — ٥٧٨	١١٧٧ — ١١٨٢	
(ج) صلاح الدين والصليبيون حروبه العظيمة بالشام : ٥ سنوات موقعة حطين الفاصلة وفتح عسقلان وبيت المقدس	٥٨٢	١١٨٦	
فتح انطاكية وجميع مدن الساحل شمالي صور سقوط عكا في يد الصليبيين ومهم ريكارد قلب الأسد ملك الانجليز عقد صلح بالرملة بين صلاح الدين وريكارد قلب الاسد وبه صار المسلمون يملكون جميع الشام ما عدا ساحل ضيق بين صور ويافا	٥٨٣ — ٥٨٨	١١٨٧ — ١١٩٢	
وفاة صلاح الدين بدمشق	٥٨٣	١١٨٧	
	٥٨٤	١١٨٨	
	٥٨٧	١١٩١	
	٥٨٨	١١٩٢	
	٥٨٩	١١٩٣	
(٢) الدولة الايوبية بعد صلاح الدين — تقسيم الدولة العظيمة الى عدة أقسام (أهمها مصر) — وقوع نزاع بين أولاد صلاح الدين العدل أخو صلاح الدين تولى على الملك بمهارته ودانت له معظم دولة صلاح الدين	٥٩٦	١٢٠٠	

مصر	التاريخ		البلاد الأجنبية
	٨	٢	
	٥٦٣	١١٩٧	جاءت للصليبيين أمداد جديدة وأرادوا انتهاز فرصة انقسام الدولة بعد وفاة صلاح الدين للاستيلاء على بيت المقدس ولكن العادل عقد معهم صلحاً وتنازل لهم عن بعض الجهات
وقوع قحط ووباء عظيمين أضعفا البلاد العادل لم يفتر عن توحيد كلمة المسلمين	٥٩٩—٩٧	١٢٠١ ١٢٠٢	
بدأ للصليبيين تحويل رجلي القتال الى مصر وملكوا دمياط الكامل (٦١٥ — ٦٣٥ هـ : ١٢١٨ — ١٢٣٨ م)	٦١٥	١٢١٨	نهضة جديدة للصليبيين
طرد الصليبيين من دمياط وأجلاهم عن مصر الملك الصالح : ٦٣٧ — ٦٤٧ هـ (١٢٤٠ — ١٢٤٩ م)	٦١٨	١٢٢١	
أكثر من شراء الممالك وأنزلهم بجزيرة الروضة رجوع بيت المقدس للمسلمين نهائياً	٦٤٢	١٢٤٤	
رجوع دمشق وعسقلان نزول الصليبيين دمياط واستيلاؤهم عليها	٦٤٧	١٢٤٩	
توران شاه : واصل قتالهم بمسد وفاة والده — كسرهم كسرة شنيعة بالمنصورة وأسر ملكهم لويس التاسع قتل المماليك توران شاه وانقراض الدولة الأيوبية المماليك بمصر — ٢٦٧ سنة	٦٤٨	١٢٥٠	
عصر كثير الفتن والثورات واشتد فيه الظلم في الغالب — أنشئ فيه بالرغم من ذلك كثير من المساجد والآثار دولة المماليك البحرية — حكمها ١٣٢ سنة ومقرها بالقاهرة	٦٤٨	١٢٥٠	
بيبرس : ٦٥٨ — ٦٧٦ هـ (١٢٦٠ — ١٢٧٧ م) قهر التتار وهو قائد قطز وطاردتهم حتى أخرجهم من دمشق — قتل قطز واختير مكانه — المؤسس الحقيقي لدولتي المماليك	٦٥٦	١٢٥٨	سقوط بغداد في يد التتار
٦٤٨ — ٧٨٤	١٢٥٠ — ١٣٨٢		
٦٥٩ — ٦٧٠	١٢٦١ — ١٢٧١		
٦٧٦	١٢٧٧		

مصر	التاريخ		البلاد الأجنبية
	هـ	م	
من آثاره مسجد الظاهر بالحسينية قلاون : ٦٧٨ — ٦٨٩ هـ (١٢٧٩ — ١٢٩٠ م) تولى الملك بعد نزاع فبقى في بيته أكثر من ١٠٠ سنة — هادن الصليبيين ١٠ سنوات هزم التتار في موقعة فاصلة بمجمص وكانوا يتأهبون للاغارة على مصر حارب الصليبيين بالرغم من المهادنة استولى على طرابلس ومن آثاره مستشفى قلاون وبجانبه مدرسته بالنحاسين الاشرف خليل — كان قاسياً سيئ السيرة — استولى على عكا آخر مدينة حصينة بالشام بقيت بأيدي الصليبيين الناصر : ٦٩٣ — ٧٤٢ هـ (١٢٩٣ — ١٣٤١ م) أزهى عصور الحضارة الاسلامية بمصر هزم التتار المماليك واستولوا على دمشق لكنهم هزموا هزيمة شنيعة وصدوا لرابع مرة عن مصر زادت في عهد الناصر ثروة البلاد — اهتم بالشؤون الداخلية مثل الموازين والمقاييس الخ — وفي عهده بلغ فن المباني والنقوش العربية أقصاه — أكثر الآثار العربية التي بدور تحف العالم من صنع هذا العصر — من آثاره قناطر المياه الموصلة بين النيل والقلمة السلطان حسن — من أولاد الناصر — شيد جامع السلطان حسن بجوار القلمة دولة المماليك الشراكسة أو البرجية — مدة حكمها ١٣٥ سنة ومقرها القاهرة — زادت الفتن عن عهد الدولة السالفة برقوق : مؤسس دولة المماليك الشراكسة أرسل التتار كتاباً يطلبون من مصر التسليم فأبى برقوق وشرع في اعداد جيش لمحاربتهم — وفاته ومن آثاره مدرسته بالنحاسين فريج : خرج لمحاربة التتار	٦٨٠ ٦٨٨ ٦٩١ ٦٩٩ ٧٠٢ ٧٨٤ — ٩٢٢ ٧٨٤ — ٨٠١ ٧٩٥ ٧٩٦ ٨٠١ ٨٠١ ٨٠٣	١٢٨٢ ١٢٨٩ ١١٩٢ ١٣٠٠ ١٣٠٣ ١٣٨٢ — ١٥١٧ ١٣٨٢ — ١٣٩٩ ١٢٩٣ ١٣٩٤ ١٣٩٩ ١٣٩٩ ١٤٠١	انتهاء الحروب الصليبية وانقراض دولة الصليبيين بالشام استيلاء تيمورلنك على بغداد خضوع الجزيرة بأسرها له

البلاد الأجنبية	التاريخ		مصر
	م	هـ	
			ومن آثاره المدفن ذو القبتين بالجبانة الشرقية المعروف بجامع برقوق برسبای : ٨٢٥ — ٨٤١ هـ (١٤٢٢ — ١٤٣٨ م)
			تشدد في سن الضرائب واحتكار التجارة استولى على جزيرة قبرس وأتى بملكها أسيراً إلى مصر اهتمامه بضرائب التجارة الهندية
استيلاء الترك العثمانيين على القسطنطينية	١٤٥٣	٨٥٧	
			قايتباي (٨٧٣ — ٩٠٢ هـ : ١٤٦٨ — ١٤٩٦ م)
			أطول حكم في ملوك هذه الدولة — زاد الضرائب لكثرة حروبه — أكبر شاغل له ازدياد قوة آل عثمان — نشبت حروب بينه وبين بايزيد انتهت بمهادنة الاثنين وباء شديد أعقبه قحط ومن آثاره تربت في الصحراء وتعرف بجامع قايتباي
كشف فاسكو دي جاما طريق الهند	١٤٩١ ١٤٩٢ ١٤٩٧	٨٩٦ ٨٩٧ ٩٠٣	
			الغوري : ٩٠٦ — ٩٢٢ هـ : (١٥٠١ — ١٥١٦ م)
			وجد خزائن الحكومة خالية فتشدد في جمع الخراج — قل وارد الحكومة من تجارة الهند — مشاحنات مع البرتقال
تولى السلطان سليم الأول عرش آل عثمان	١٥١٢	٩١٨	
			اتهم السلطان سليم الغوري بمبالاة أعدائه ونوى الاستيلاء على مصر — خرج الغوري لمحاربته فالتقى الجيشان بمرج دابق شمال حلب فقتل الغوري وهزم جيشه ملك السلطان سليم الشام بلا مقاومة وزحف على مصر انزاع طومان باي باليدانية واستيلاء سليم على مصر
	١٥١٦ ١٥١٧	٩٢٢ ٩٢٣	

هذه السلسلة تضم :

- ١- فتح العرب لمصر
- ٢- تاريخ مصر إلى الفتح العثماني
- ٣- الجيش المصري البري والبحري في عهد محمد علي
- ٤- تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسي
- ٥- تاريخ مصر من عهد المماليك إلى نهاية حكم اسماعيل
- ٦- تاريخ مصر من الفتح العثماني إلى قبيل الوقت الحاضر
- ٧- ذكرى البطل الفاتح إبراهيم باشا
- ٨- تاريخ مصر في عهد الخديو اسماعيل باشا (مجلدان)

MADBOULI BOOKSHOP

مكتبة مطبولي

6 Talat Harb Sq. Tel. : 5756421

٥٧٥٦٤٢١ ت : القاهرة - طلعت حرب